عُدَّةُ الصَّابِرِينَ

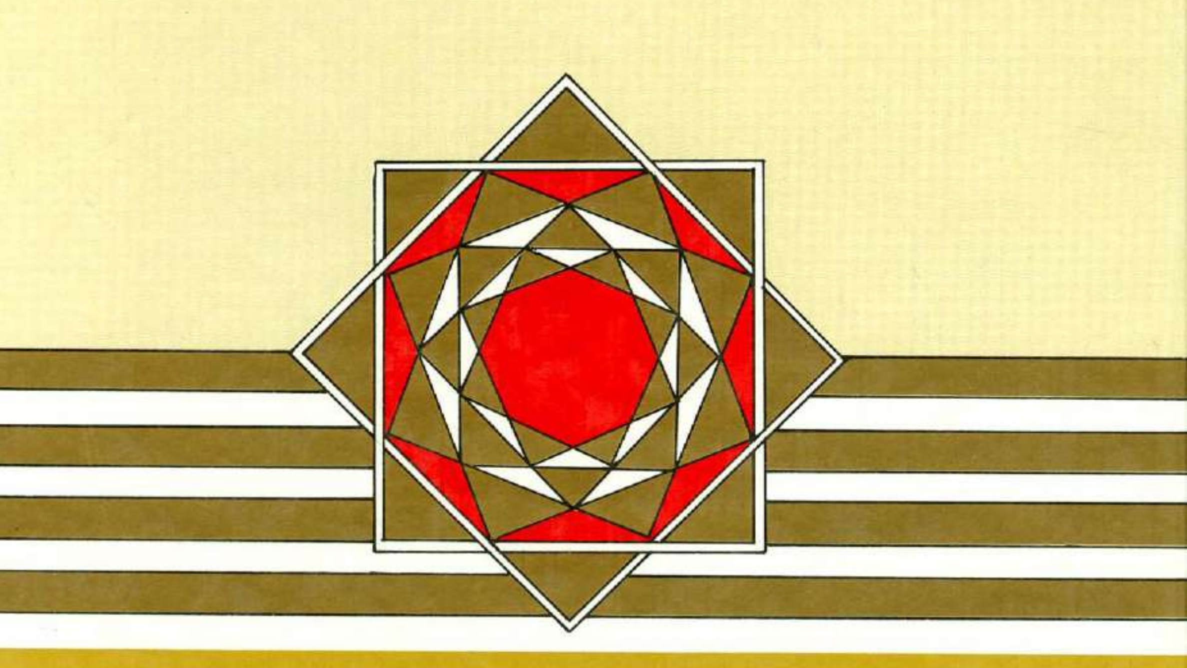
وَذَخِيرَةُ الشَّاكِرِينَ

تأليف

ابن قيّم الجوزيّة

الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي

(٦٩١ - ٧٥١هـ)



دار ابن كثير
دمشق - بيروت

مكتبة دار التراث
المدينة المنورة


mohamed khatab

عُدَّةُ الصَّابِرِينَ

وَذَخِيرَةُ الشَّاكِرِينَ

الطبعة الثالثة

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م



دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي

هاتف: ٢٢٥٨٧٧ - ص ب: ٣١١

بيروت - ص ب: ١١٣/٦٣١٨

ترجمة المؤلف

منقولة من كتاب جلاء العينين للسيد نعمان الألوسي البغدادي

هو العلاّمة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي ثم الدمشقي، الفقيه الحنبلي المفسر النحوي الأصولي المتكلم، الشهير بابن قيم الجوزية. قال في الشذرات: بل هو المجتهد المطلق. قال ابن رجب: ولد شيخنا سنة إحدى وتسعين وستمائة، ولازم الشيخ تقي الدين بن تيمية وأخذ عنه، وتفنن في كافة علوم الإسلام، وكان عارفاً في التفسير لا يُجارى فيه وبأصول الدين وإليه فيه المنتهى، وبالحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط منه لا يلحق في ذلك، وبالفقه والأصول والعربية وله فيها اليد الطولى، وبعلم الكلام والتصوف. حبس مدة لإنكاره «جدّ الرحيل إلى قبر الخليل» وكان ذا عبادة وتهجد وطول صلاة إلى الغاية القصوى، ولم أشاهد مثله في عبادته وعلمه بالقرآن والحديث وحقائق الإيمان، وليس هو بالمعصوم ولكن لم أر في معناه مثله، وقد امتحن وأوذي مرات وحبس مع شيخه شيخ الإسلام تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة منفرداً عنه، ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ، وكان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن وبالتدبر والتفكر ففتح عليه من ذلك خير كثير، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة، وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف والخوض في غوامضهم، وتصانيفه ممتلئة بذلك، وحجَّ مرات كثيرة وجاور بمكة، وكان أهل مكة يتعجبون من كثرة طوافه وعبادته، وسمعت عليه قصيدته النونية في السُّنّة وأشياء من

تصانيفه غيرها، وأخذ عنه العلم خلق كثير في حياة شيخه وإلى أن مات وانتفعوا به، قال القاضي برهان الدين الزرعي: وما تحت أديم السماء أوسع علماً منه، ودرَّس بالصدرية، وأمَّ بالجوزية، وكتب بخطه ما لا يُوصف كثرة، وصنَّف تصانيف كثيرة جداً في أنواع العلوم، وحصل له من الكتب ما لم يحصل لغيره.

فمن تصانيفه: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته، وسفر الهجرتين، ومراحل السائرين، والكلم الطيب، وزاد المسافرين، وزاد المعاد أربع مجلدات وهو كتاب جليل، وكتاب نقد المنقول، وكتاب إعلام الموقعين عن رب العالمين ثلاث مجلدات، كتاب بدائع الفوائد مجلدان، النونية الشهيرة بالشافية الكافية، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، ونزهة المشتاقين، وكتاب الداء والدواء، وكتاب مفتاح دار السعادة مجلد ضخم غريب الأسلوب، واجتماع الجيوش الإسلامية، وكتاب الطرق الحكمية، وكتاب عدة الصابرين، وكتاب إغاثة اللهفان، وكتاب الروح، وكتاب الصراط المستقيم، والفتح القدسي، والتحفة المكية، والفتاوى، وغير ذلك.

توفي ثالث عشر رجب سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، ودفن بمقبرة الباب الصغير بعد أن صُلِّي عليه بمواضع عديدة، وكان قد رأى قبل موته شيخه تقي الدين في النوم وسأله عن منزلته، فأشار إلى علوها فوق بعض الأكابر، ثم قال له: وأنت كدتَ تلحق بنا، ولكن أنت الآن في طبقة ابن خزيمة. رحمهم الله تعالى.

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين

الحمد لله الصبور الشكور، العليّ الكبير، السميع البصير، العليم القدير. الذي شملت قدرته كل مخلوق، وجرت مشيئته في خلقه بتصاريف الأمور، وأسمعت دعوته لليوم الموعود أصحابَ القبور، قدَّرَ مقادير الخلائق وآجالهم، وكتب آثارهم وأعمالهم، وقسم بينهم معايشهم وأموالهم، وخلق الموتَ والحياة ليبلوهم أيُّهم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور. القاهر القادر، فكل عسير عليه يسير، وهو المولى النصير، فنعم المولى ونعم النصير. يُسبِّح له ما في السموات وما في الأرض، وله الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن، والله بما تعملون بصير، خلق السموات والأرض بالحق وصوَّركم فأحسن صوركم وإليه المصير، يعلم ما تسرون وما تعلنون، والله عليم بذات الصدور. وأشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، إلّه جلَّ عن الشبيه والنظير، وتعالى عن الشريك والظهير، وتقدَّس عن تعطيل الملحدين كما تنزه عن شبه المخلوقين، فليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخيرته من بريته، وصفوته من خليقته، وأمينه على وحيه، وسفيره بينه وبين عباده، أعرف الخلق به، وأقومهم بخشيته، وأنصحهم لأمته، وأصبرهم لحكمه، وأشكرهم لنعمه، وأقربهم إليه وسيلة، وأعلاهم عنده منزلة، وأعظمهم عنده جاهاً، وأوسعهم عنده شفاعةً. بعثه إلى الجنة داعياً، وللإيمان منادياً، وفي مرضاته ساعياً، وبالمعروف آمراً وعن المنكر ناهياً. فبلَّغ رسالات ربه

وصدع بأمره، وتحمَّل في مرضاته ما لم يتحمله بشر سواه. وقام لله بالصبر والشكر حقَّ القيام حتى بلغ رضاه، فثبت في مقام الصبر حتى لم يلحقه أحد من الصابرين. وترقَّى في درجة الشكر حتى علا فوق جميع الشاكرين، فحمِده اللَّهُ وملائكته ورسله وجميع المؤمنين، ولذلك خُصَّ بلواء الحمد دون جميع العالمين، فآدم تحت لوائه ومن دونه الأنبياء والمرسلين، وجعل الحمد فاتحة كتابه الذي أنزله عليه كذلك فيما بلغنا وفي التوراة والإنجيل، وجعله آخر دعوى أهل ثوابه الذين هداهم على يديه، وسمى أمته الحامدين قبل أن يخرجهم إلى الوجود، لحمدهم له على السراء والضراء، والشدة والرخاء، وجعلهم أسبق الأمم إلى دار الثواب والجزاء، فأقرب الخلق إلى لوائه أكثرهم حمداً لله وذكراً، كما أن أعلاهم منزلة أكثرهم صبراً وشكراً، فصلَّى الله وملائكته وأنبياؤه ورسله وجميع المؤمنين عليه كما وحَّدَ الله وعرَّف به ودعا إليه، وسلَّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن الله سبحانه جعل الصبر جواداً لا يكبو، وصارماً لا ينبو، وجنداً غالباً لا يُهزم، وحصناً حصيناً لا يهدم ولا يثلم، فهو والنصر أخوان شقيقان فالنصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، والعسر مع اليسر، وهو أنصر لصاحبه من الرجال بلا عدّة ولا عدد، ومحلُّه من الظفر كمحلّ الرأس من الجسد، ولقد ضمن الوفيُّ الصادق لأهله في محكم الكتاب أنه يوفيهم أجرهم بغير حساب، وأخبرهم أنه معهم بهدايته ونصره العزيز وفتحه المبين، فقال تعالى: ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ [الأنفال: ٤٦]. فظفر الصابرون بهذه المعية بخير الدنيا والآخرة، وفازوا بها بنعمه الباطنة والظاهرة، وجعل سبحانه الإمامة في الدين منوطة بالصبر واليقين، فقال تعالى وبقوله اهتدى المهتدون: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ [السجدة: ٢٤].

وأخبر أن الصبر خير لأهله مؤكداً باليمين، فقال تعالى: ﴿ولئن صبرتُم لهو خيرٌ للصابرين﴾ [النحل: ١٢٦]، وأخبر أن مع الصبر والتقوى

لا يضر كيد العدو ولو كان ذا تسليط فقال تعالى: ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط﴾ [آل عمران: ١٢٠]. وأخبر عن نبيه يوسف الصديق أن صبره وتقواه أوصلاه إلى محل العز والتمكين فقال تعالى: ﴿إنه من يتَّقِ ويصبرْ فإنَّ اللَّهَ لا يُضيعُ أجرَ المحسنين﴾ [يوسف: ٩٠]. وعلَّق الفلاح بالصبر والتقوى، فعقل ذلك عنه المؤمنون، فقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا اصْبرُوا وصَابروا ورابطُوا واتَّقُوا اللَّهَ لعلَّكم تُفلحون﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وأخبر عن محبته لأهله، وفي ذلك أعظم ترغيب للراغبين، فقال تعالى: ﴿واللَّه يُحبُّ الصابرين﴾. ولقد بشر الصابرين بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون، فقال تعالى: ﴿وبشِّرِ الصابرينَ الذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا إنَّا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلواتٌ من ربِّهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون﴾ [البقرة: ١٥٥].

وأوصى عباده بالاستعانة بالصبر والصلاة على نوائب الدنيا والدين، فقال تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصَّلاةِ وإنها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين﴾ [البقرة: ٤٥]. وجعل الفوز بالجنة والنجاة من النار لا يحظى به إلا الصابرون فقال تعالى: ﴿إني جزيتُهم اليومَ بما صبروا أنهم هم الفائزون﴾ [المؤمنون: ١١١]. وأخبر أن الرغبة في ثوابه والإعراض عن الدنيا وزينتها لا ينالها إلا أولو الصبر المؤمنون فقال تعالى: ﴿وقال الذين أُوتوا العلمَ ويلكُم ثوابُ الله خيرٌ لمن آمنَ وعملَ صالحاً ولا يُلَقَّاها إلا الصابرون﴾ [القصص: ٨٠]. وأخبر تعالى أن دفع السيئة بالتي هي أحسن تجعل المسيء كأنه ولي حميم فقال تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنةُ ولا السيئةُ ادفعْ بالتي هي أحسنُ فإذا الذي بينكَ وبينَه عداوةٌ كأنَّه وليٌّ حميم﴾ [فصلت: ٣٥]، وأن هذه الخصلة لا يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم.

وأخبر سبحانه خبراً مؤكداً بالقسم: ﴿إن الإنسانَ لفي خُسر. إلا

الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وتواصَوْا بالحقِّ وتواصَوْا بالصبر﴾ [سورة العصر: ٢ ـ ٣]. وقسم خلقه قسمين أصحاب ميمنة وأصحاب مشأمة، وخصَّ أهلَ الميمنة أهلَ التواصي بالصبر والمرحمة، وخص بالانتفاع بآياته أهل الصبر وأهل الشكل تمييزاً لهم بهذا الحظ الموفور، فقال في أربع آيات من كتابه: ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لكلِّ صبَّارٍ شَكور﴾ [إبراهيم: ٥، لقمان: ٣١، سبأ: ١٩، الشورى: ٣٣]. وعلَّق المغفرةَ والأجرَ بالعملِ الصالحِ والصبرِ، وذلك على من يسَّره عليه يسير فقال: ﴿إلا الذين صبَروا وعملوا الصالحَاتِ أولئكَ لهم مغفرةٌ وأجرٌ كبير﴾ [هود: ١١].

وأخبر أن الصبر والمغفرة من العزائم التي تجارة أربابها لا تبور، فقال: ﴿ولمن صبرَ وغفرَ إن ذلكَ لمن عزمِ الأمور﴾ [الشورى: ٤٣]. وأمر رسوله بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره إنما هو لربه، وبذلك جميع المصائب تهون، فقال: ﴿واصبرْ لحكم ربِّك فإنكَ بأعيننا﴾ [الطور: ٤٨] وقال: ﴿واصبرْ وما صبرُكَ إلا بالله، ولا تحزنْ عليهم، ولا تَكُ في ضَيْقٍ مما يَمكرون، إنَّ اللَّه مع الذين اتَّقَوْا والذين هم مُحسنون﴾ [النحل: ١٢٧].

والصبر آخيّة[1] المؤمن التي يجول ثم يرجع إليها، و«ساق» إيمانه الذي لا اعتماد له إلا عليها، فلا إيمانَ لمن لا صبر له، وإن كان فإيمان قليل في غاية الضَّعف، وصاحبه ممن يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأنّ به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، خسرَ الدنيا والآخرة، ولم يحظَ منها إلا بالصفقة الخاسرة، فخير عيش أدركه السعداء بصبرهم، وترقوا إلى أعلى المنازل بشكرهم، فساروا بين جناحَي الصبرِ والشكرِ إلى جنّات النّعيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فصل: ولما كان الإيمان نصفين: نصف صبر ونصف شكر، كان حقيقاً على من نصح نفسه وأحب نجاتها وآثر سعادتها أن لا يهمل هذين

---

(١) آخية: عروة تثبت في أرض أو حائط وتربط بها الدابة.

الأصلَيْن العظيمين، ولا يعدل عن هذين الطريقَيْن القاصدَيْن، وأن يجعل سَيْره إلى الله بين هذين الطريقين ليجعله الله يوم لقائه مع خير الفريقين.

فكذلك وُضع هذا الكتاب للتعريف بشدة الحاجة والضرورة إليهما، وبيان توقف سعادة الدنيا والآخرة عليهما، فجاء كتاباً جامعاً حاوياً نافعاً فيه من الفوائد ما هو حقيق على أن يُعضَّ عليه بالنوجذ، وتثنى عليه الخناصر، ممتعاً لقارئه، صريحاً للناظر فيه، مُسَلِّياً للحزين، منهضاً للمقصرين، محرِّضاً للمشمرين، مشتملاً على نكات حسان من تفسير القرآن، وعلى أحاديثَ نبوية معزوّة إلى مظانها، وآثارٍ سلفية منسوبة إلى قائلها، ومسائلَ فقهية حسان مقررة بالدليل، ودقائق سلوكيةٍ على سواء السبيل، لا تخفى معرفة ذلك على من فكَّر وأحضر ذهنه، فإن فيه ذكر أقسام الصبر ووجوه الشكر وأنواعه، وفصل النزاع في التفضيل بين الغني الشاكر والفقير الصابر، وذكر حقيقة الدنيا وما مثلَّها اللّهُ ورسولُه والسلفُ الصالح به، والكلام على سير هذه الأمثال ومطابقتها لحقيقة الحال، وذكر ما يُذَمُّ من الدنيا ويحمد، وما يُقرِّب منها إلى الله ويُبعد، وكيف يشقى بها من يشقى ويسعد بها من يسعد، وغير ذلك من الفوائد التي لا تكاد تظفر بها في كتاب سواه، وذلك محض مِنّةٍ من الله على عبده، وعطيّة من بعض عطاياه، فهو كتاب يصلح للملوك والأمراء، والأغنياء والفقراء، والصوفيّة والفقهاء، ينهض بالقاعد إلى المسير، ويُؤنسِ السائر في الطريق، وينبِّه السالك على المقصود، ومع هذا فهو جهدُ المُقِلّ، وقدرة المفلس، حذَّرَ فيه من الداء وإن كان من أهله، ووصف فيه الدواء وإن لم يصبر على تناوله لظلمه وجهله، وهو يرجو أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين أن يغفر له غيه لنفسه بنصيحته لعباده المؤمنين، فما كان في الكتاب من صواب فمن الله وحده فهو المحمود والمستعان، وما كان فيه من خطأ فمن مصنفه ومن الشيطان، واللهُ بريءٌ منه ورسولُهُ، وهذه بضاعة مؤلفه المزجاة تُساق إليك، وسلعته تعرض عليك، فلقارئه غنمه، وعلى مؤلفه غرمه. وبنات أفكاره تُزَفُّ إليكَ فإن وَجَدَتْ حراً كريماً

كان بها أسعد، وإلا فهي خُودٌ[1] تزف إلى عِنِّينٍ[2] متعدٍّ.

وقد جعلته ستة وعشرين باباً وخاتمة:

الباب الأول: في معنى الصبر لغةً واشتقاق هذه اللفظة وتصريفها.

الباب الثاني: في حقيقة الصبر وكلام الناس فيه.

الباب الثالث: في بيان أسماء الصبر بالإضافة إلى متعلقه.

الباب الرابع: في الفرق بين الصبر والتَّصَبُّر والاصطبار والمصابرة.

الباب الخامس: في أقسام الصبر باعتبار محله.

الباب السادس: في أقسامه بحسب اختلاف قوته وضعفه ومقاومته لجيش الهوى وعجزه عنه.

الباب السابع: في بيان أقسامه باعتبار متعلقه.

الباب الثامن: في انقسامه باعتبار تعلّق الأحكام الخمسة به.

الباب التاسع: في بيان تفاوت درجات الصبر.

الباب العاشر: في انقسام الصبر إلى محمود ومذموم.

الباب الحادي عشر: في الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام.

الباب الثاني عشر: في الأسباب التي تُعين على الصبر.

الباب الثالث عشر: في بيان أن الإنسان لا يستغني عن الصبر في حال من الأحوال.

الباب الرابع عشر: في بيان أشقّ الصبر على النفوس.

الباب الخامس عشر: في ذكر ما ورد في الصبر من نصوص الكتاب العزيز.

الباب السادس عشر: في ذكر ما ورد فيه من نصوص السنة.

الباب السابع عشر: في ذكر الآثار الواردة عن الصحابة في فضيلة الصبر.

---

(١) خود: المرأة الشابة الحسنة الخلق.

(٢) عنين: العُنّة؛ عجز يُصيب الرجل فلا يقدر على الجماع.

الباب الثامن عشر: في ذكر أمور تتعلق بالمصيبة من البكاء والندب وشقّ الثياب ودعوى الجاهلية ونحوها.

الباب التاسع عشر: في أن الصبر نصف الإيمان، وأن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر.

البـاب العشرون: في بيـان تنازع النـاس في الأفضل من الصبـر والشكر.

الباب الحادي والعشرون: في الحكم بين الفـريقين والفصـل بين الطائفتين.

الباب الثاني والعشرون: في اختلاف الناس في الغني الشاكر والفقير الصابر؛ أيهما أفضل وما هو الصواب في ذلك.

الباب الثالث والعشرون: في ذكر ما احتجت به الفقراء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار.

الباب الرابع والعشرون: في ذكر ما احتجت به الأغنياء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار.

الباب الخامس والعشرون: في بيان الأمور المضادة للصبر، والمنافية له، والقادحة فيه.

الباب السادس والعشرون: في بيان دخول الصبر في صفات الرب جل جلاله وتسميته بالصبور الشكور.

سميته (عِدَة الصابرين وذخيرةُ الشاكرين) والله المسؤول أن يجعله خالصاً لوجهه، مُدْنِياً من رضاه، وأن ينفعَ به مؤلفه وكاتبه وقارئه، إنه سميع الدعاء، وأهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الباب الأول
في معنى الصبر لغة، واشتقاق هذه اللفظة وتصريفها

أصل هذه الكلمة هو المنع والحبس، فالصبر حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي، والجوارح عن لطم الخدود وشق الثياب ونحوهما، ويقال: صبر يصبر صبراً، وصبَّر نفسه، قال تعالى: ﴿واصبرْ نفسَك مع الذين يدْعونَ ربَّهم﴾ [الكهف: ٢٨] وقال عنترة:

فصبرت عارفةً لذلك حرةً　　ترسو إذا نفس الجبان تطلّع

يقول حبست نفساً عارفة، وهي نفس حرّ يأنف لا نفس عبد لا أنفة له، وقوله «ترسو» أي تثبت وتسكن إذا خفَّتْ نفس الجبان واضطربت، ويقال صبَرت فلاناً إذا حبسته، وصبَّرته بالتشديد إذا حملته على الصبر، وفي حديث الذي أمسك رجلاً وقتله آخر «يُقتل القاتل ويُصبر الصابرُ» أي يُحبس للموت كما حبس من أمسكه للموت، وصبرت الرجل إذا قتلته صبراً أي أمسكته للقتل، وصبّرته أيضاً وأصبرته إذا حبسته للحلف، ومنه الحديث الصحيح: «من حلفَ على يمين صبر ليقتطع بها مال امرىء مسلم لقي الله وهو عنه معرض». ومنه الحديث الذي في القسامة: «ولا تصبر يمينه حيث تصبر الإيمان» والمصبورة: اليمين المحلوف عليها، وفي الحديث «نهى عن المصبورة» وهي الشاة والدجاجة ونحوهما تصبر للموت فتربط فترمى حتى تموت.

وفعل هذا الباب صبَرت أصبِر بالفتح في الماضي والكسر في

المستقبل، وأما صبرت أصبُر بالضم في المستقبل فهو بمعنى الكفالة، والصبير الكفيل، كأنه حبس نفسه للغرم، ومنه قولهم أصبرني أي جعلني كفيلاً، وقيل أصل الكلمة من الشدة والقوة، ومنه الصبر للدواء المعروف لشدة مرارته وكراهته، قال الأصمعي: إذا لقي الرجل الشدة بكمالها قيل لقيها بأصبارها، ومنه الصُبر بضم الصاد للأرض؛ ذات الخصب لشدتها وصلابتها، ومنه سميت الحرة أم صُبّار، ومنه قولهم: وقع القوم في أمر صبّور بتشديد الباء أي أمر شديد، ومنه صبَارَّة الشتاء بتخفيف الباء وتشديد الراء لشدة برده، وقيل: هو مأخوذ من الجمع والضم، فالصابر يجمع نفسه ويضمها عن الهلع والجزع. ومنه صبرة الطعام، وصبارة الحجارة.

والتحقيق أن في الصبر المعاني الثلاثة: المنع والشدة والضم، ويقال صبر إذا أتى بالصبر، وتصبّر إذا تكلفه واستدعاه، واصطبر إذا اكتسبه وتعلمه وصابر إذا وقف خصمه في مقام الصبر. وصبَّر نفسه وغيره بالتشديد إذا حملها على الصبر، واسم الفاعل صابر وصبّار وصبور ومصابر ومصطبر، فمصابر من صابر، ومصطبر من اصطبر، وصابر من صبر، وأما صبّار وصبور فمن أوزان المبالغة من الثلاثي، كضرَّاب وضروب، والله أعلم.

الباب الثاني

في حقيقة الصبر وكلام الناس فيه

قد تقدم بيان معناه لغة، وأمّا حقيقته فهو خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها، وسُئِل عنه الجنيد بن محمد فقال: «تجرُّع المرارة من غير تعبس» وقال ذو النون: «هو التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة»، وقيل: «الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب»، وقيل:

«وهو الغنى في البلوى بلا ظهور شكوى»، وقال أبو عثمان: «الصبّار هو الذي عوَّد نفسه الهجوم على المكاره» وقيل: «الصبر المُقام على البلاء بحسن الصحبة كالمقام مع العافية»، ومعنى هذا أن لله على العبد عبودية في عافيته وفي بلائه، فعليه أن يحسن صحبة العافية بالشكر، وصحبة البلاء بالصبر. وقال عَمْرو بن عثمان المكي: «الصبر هو الثبات مع الله وتلقي بلائه بالرحب والدعة»، ومعنى هذا أنه يتلقّى البلاء بصدر واسع لا يتعلق بالضيق والسخط والشكوى. وقال الخواص: «الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة»، وقال رويم: «الصبر ترك الشكوى»، فسره بلازمه. وقال غيره: «الصبر هو الاستعانة بالله»، وقال أبو علي: «الصبر كاسمه»، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الصبر مطية لا تكبو»، وقال أبو محمد الجريري: «الصبر أن لا يفرق بين حال النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما».

قلت: وهذا غير مقدور ولا مأمور به، فقد ركَّبَ الله الطباع على التفريق بين الحالتين، وإنما المقدور حبس النفس عن الجزع لا استواء الحالتين عند العبد، وساحة العافية أوسع للعبد من ساحة الصبر كما قال النبي ﷺ في الدعاء المشهور: «إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي» ولا يناقض هذا قوله ﷺ: «وما أُعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر» فإن هذا بعد نزول البلاء ليس للعبد أوسع من الصبر، وأما قبله فالعافية أوسع له، وقال أبو علي الدقاق: «حد الصبر أن لا يعترض على التقدير» فأما إظهار البلاء على غير وجه الشكوى فلا ينافي الصبرَ، قال الله تعالى في قصة أيوب: ﴿إنا وجدناه صابراً﴾ مع قوله: ﴿مسني الضر﴾. قلت: فسّر اللفظة بلازمها.

وأما قوله: «على غير وجه الشكوى» فالشكوى نوعان أحدهما. الشكوى إلى الله فهذا لا ينافي الصبر كما قال يعقوب: ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ مع قوله: ﴿فصبرٌ جميل﴾، وقال أيوب: ﴿مسّني الضرّ﴾ مع

وصف الله له بالصبر، وقال سيد الصابرين صلوات الله وسلامه عليه «اللهم أشكو إليك ضعف قوّتي وقلة حيلتي.. إلخ».

وقال موسى صلوات الله وسلامه عليه: «اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك».

والنوع الثاني: شكوى المبتلى بلسان الحال أو المقال، فهذه لا تجامع الصبر بل تضاده وتبطله، فالفرق بين شكواه والشكوى إليه، وسنعود لهذه المسألة في باب اجتماع الشكوى والصبر وافتراقهما إن شاء الله تعالى.

وقيل: الصبر شجاعة النفس، ومن هاهنا أخذ القائل قوله: «الشجاعة صبر ساعة» وقيل: الصبر ثبات القلب عند موارد الاضطراب، والصبر والجزع ضدان ولهذا يقابل أحدهما بالآخر، قال تعالى عن أهل النار: ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾ [إبراهيم: ٢١] والجزع قرين العجز وشقيقه، والصبر قرين الكَيْس ومادته، فلو سئل الجزع من أبوك؟ لقال: العجز، ولو سئل الكيس: من أبوك؟ لقال: الصبر. والنفس مطية العبد التي يسير عليها إلى الجنة أو النار، والصبر لها بمنزلة الخطام والزمام للمطية، فإن لم يكن للمطية خطام ولا زمام شردت في كل مذهب.

وحُفظ من خطب الحجاج: «اقدعوا هذه النفوس فإنها طلعة إلى كل سوء، فرحم الله امرءاً جعل لنفسه خطاماً وزماماً فقادها بخطامها إلى طاعة الله وصرفها بزمامها عن معاصي الله، فإن الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه».

قلت: والنفس فيها قوتان: قوة الإقدام وقوة الإحجام، فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه، وقوة الإحجام إمساكاً عما يضره، ومن الناس من تكون قوة صبره على فعل ما ينتفع به وثباته عليه أقوى من صبره عما يضره، فيصبر على مشقة الطاعة ولا صبر له عن داعي

هواه إلى ارتكاب ما نهي عنه، ومنهم من تكون قوة صبره عن المخالفات أقوى من صبره على مشقة الطاعات، ومنهم من لا صبر له على هذا ولا ذاك، وأفضل الناس أصبرهم على النوعين، فكثير من الناس يصبر على مكابدة قيام الليل في الحر والبرد، وعلى مشقة الصيام، ولا يصبر عن نظرة محرمة، وكثير من الناس يصبر عن النظر وعن الالتفات إلى الصور، ولا صبر له على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الكفار المنافقين، بل هو أضعف شيء عن هذا وأعجزه، وأكثرهم لا صبر له على واحد من الأمرين، وأقلهم أصبرهم في الموضعين. وقيل: «الصبر ثبات باعث العقل والدين في مقابلة باعث الهوى والشهوة»، ومعنى هذا أن الطبع يتقاضى ما يحب وباعث العقل والدين يمنع منه، والحرب قائمة بينهما وهي سجال، ومحرك هذه الحرب قلب العبد والصبر والشجاعة والثبات.

الباب الثالث
في بيان أسماء الصبر بالإضافة إلى متعلقه

لما كان الصبر المحمود هو الصبر النفساني الاختياري عن إجابة داعي الهوى المذموم كانت مراتبه وأسماؤه بحسب متعلقه، فإنه إن كان صبراً عن شهوة الفرج المحرمة سُمِّي عفة، وضدها الفجور والزنا والعُهْر، وإن كان عن شهوة البطن وعدم التسرع إلى الطعام أو تناول ما لا يجمل منه سمي شرف نفس وشبع نفس، وسمي ضده شرهاً ودناءة ووضاعة نفس، وإن كان عن إظهار ما لا يحسن إظهاره من الكلام سمي كتمان سر، وضده إذاعة وإفشاء أو تهمة أو فحشاء أو سباً أو كذباً أو قذفاً، وإن كان عن فضول العيش سمي زهداً، وضده حرصاً، وإن كان على قدر يكفي من الدنيا سمي قناعة، وضدها الحرص أيضاً، وإن كان عن إجابة داعي الغضب سمي حلماً وضده تسرعاً، وإن كان عن إجابة داعي العجلة سمي وقاراً وثباتاً وضده طيشاً وخفةً، وإن كان عن إجابة داعي الفرار والهرب سمي شجاعة وضده جبناً وخوراً، وإن كان عن إجابة داعي الانتقام سمي

عفواً وصفحاً وضده انتقاماً وعقوبةً، وإن كان عن إجابة داعي الإمساك والبخل سمي جوداً وضده بخلاً، وإن كـان عن إجابـة داعي الطعـام والشراب في وقت مخصوص سمي صوماً، وإن كان عن إجابة داعي العجز والكسل سمي كَيْساً، وإن كان عن إجابة داعي إلقاء الكَلّ على الناس وعدم حمل كَلِّهم سمي مروءة، فله عند كـل فعل وتـرك اسم يخصه، بحسب متعلقه، والاسم الجامع لذلك كله: الصبر. وهذا يدلك على ارتباط مقامات الدين كلها بالصبر من أولها إلى آخرها. وهكذا يسمى عدلاً إذا تعلق بالتسوية بين المتماثلين وضده الظلم، ويسمى سماحة إذا تعلق ببذل الواجب والمستحب بالرضا والاختيار. وعلى هذا جميع منازل الدين.

الباب الرابع

في الفرق بين الصبر والتصبر والاصطبار والمصابرة

الفرق بين هذه الأسماء بحسب حال العبد في نفسه وحاله مع غيره، فإن حبس نفسه ومنعها عن إجابة داعي ما لا يحسن إن كان خلقاً له ومَلَكَةً سمي صبراً، وإن كان بتكلف وتمرن وتجرع لمرارته سمي تصبُّراً، كما يدل عليه هذا البناء لغة، فإنه موضوع للتكلّف كالتحلّم والتشجّع والتكـرم والتحمّل ونحوها، وإذا تكلّفه العبد واستدعاه صار سجيةً له كـما في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ومن يتصبّر يصبره الله»، وكذلك العبد يتكلف التعفف حتى يصير التعفف له سجية، كذلك سائر الأخلاق، وهي مسألة اختلف فيها الناس: هل يمكن اكتساب واحد منها، أو التخلّق لا يصير خُلُقاً أبداً. كما قال الشاعر:

يُـراد من القـلب نسيـانُكـم ... وتـأبى الـطبـاع عـلى النـاقـل

وقال آخر:

يـا أيهـا المتحـلّي غـير شيمتــه ... إن التخلق يـأتي دونـه الخلق

فقُبح التّطبّع شيمة المطبوع

قالوا: وقد فرغ الله سبحانه من الخَلْق والخُلُق والرزق والأجل، وقالت طائفة أخرى: بل يمكن اكتساب الخُلُق كما يكتسب العقل والحلم والجود والسخاء والشجاعة، والوجود شاهد بذلك. قالوا: والمزاولات تعطي المَلَكات، ومعنى هذا أن من زاول شيئاً واعتاده وتمرن عليه صار ملكة له وسجية وطبيعة، قالوا: والعوائد تنقل الطبائع، فلا يزال العبد يتكلف التصبُّر حتى يصير الصبر له سجية، كما أنه لا يزال يتكلف الحلم والوقار والسكينة والثبات حتى تصير له أخلاقاً بمنزلة الطبائع. قالوا: وقد جعل الله سبحانه في الإنسان قوة القبول والتعلم فَنَقْلُ الطبائع عن مقتضياتها غير مستحيل، غير أن هذا الانتقال قد يكون ضعيفاً فيعود العبد إلى طبعه بأدنى باعث، وقد يكون قوياً ولكن لم ينقل الطبع فقد يعود إلى طبعه إذا قوي الباعث واشتد، وقد يستحكم الانتقال بحيث يستحدث صاحبه طبعاً ثانياً، فهذا لا يكاد يعود إلى طبعه الذي انتقل عنه.

وأما الاصطبار فهو أبلغ من التصبر، فإنه افتعال للصبر بمنزلة الاكتساب، فالتصبر مبدأ الاصطبار، كما أن التكسب مقدمة الاكتساب، فلا يزال التصبر يتكرر حتى يصير اصطباراً.

وأما المصابرة فهي مقاومة الخصم في ميدان الصبر، فإنها مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين كالمشاتمة والمضاربة، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فأمَرَهُم بالصبر، وهو حال الصابر في نفسه، والمصابرة وهي حاله في الصبر مع خصمه، والمرابطة وهي الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة، فقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبّد بالتقوى، فأخبر سبحانه أن ملاك ذلك كله التقوى، وأن الفلاح موقوف عليها، فقال: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يُخاف هجوم العدو منه في الظاهر فهي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته.

الباب الخامس

في انقسامه باعتبار محلّه

الصبر ضربان: ضرب بدني وضرب نفساني، وكل منهما نوعان: اختياري واضطراري، فهذه أربعة أقسام:

الأول: البدني الاختياري، كتعاطي الأعمال الشاقة على البدن اختياراً وإرادة.

الثاني: البدني الاضطراري، كالصبر على ألم الضرب والمرض والجراحات والبرد والحر وغير ذلك.

الثالث: النفساني الاختياري، كصبر النفس عن فعل ما لا يحسن فعله شرعاً ولا عقلاً.

الرابع: النفساني الاضطراري، كصبر النفس عن محبوبها قهراً إذا حيل بينها وبينه.

فإذا عرفت هذه الأقسام فهي مختصة بنوع الإنسان دون البهائم، ومشاركة البهائم في نوعين منها وهما صبر البدن والنفس الاضطراريين، وقد يكون بعضها أقوى صبراً من الإنسان، وإنما يتميز الإنسان عنها بالنوعين الاختياريين، وكثير من الناس تكون قوة صبره في النوع الذي يشارك فيه البهائم لا في النوع الذي يخص الإنسان، فيعد صابراً وليس من الصابرين.

فإن قيل: هل يشارك الجنُ الإنسَ في هذا الصبر؟ قيل: نعم، هذا من لوازم التكليف وهو مظنة الأمر والنهي، والجن مكلفون بالصبر على الأوامر والصبر عن النواهي كما كلفنا نحن بذلك، فإن قيل: فهل هم مكلفون على الوجه الذي كلفنا نحن به أم على وجه آخر؟ قيل: ما كان من لوازم النفوس كالحب والبغض والإيمان والتصديق والموالاة والمعاداة فنحن وهم مستوون فيه، وما كان من لوازم الأبدان كغُسل الجنابة وغَسل

الأعضاء في الوضوء والاستنجاء والختان وغُسل الحيض ونحو ذلك فلا تجب مساواتهم لنا في تكلّفه، وإن تعلّق ذلك بهم على وجه يناسب خلقتهم وحياتهم.

فإن قيل: فهل تشاركنا الملائكة في شيء من أقسام الصبر؟ قيل: الملائكة لم يُبتلوا بهوىً يحارب عقولهم ومعارفهم، بل العبادة والطاعة لهم كالنَّفَس لنا، فلا يُتصور في حقهم الصبر الذي حقيقته ثبات باعث الدين والعقل في مقابلة باعث الشهوة والهوى، وإن كان لهم صبر يليق بهم وهو ثباتهم وإقامتهم على ما خُلقوا له من غير منازعة هوى أو شهوة أو طبع.

فالإنسان منا إذا غلب صبرُه باعثَ الهوى والشهوة التحق بالملائكة، وإن غلب باعثُ الهوى والشهوة صبرَه التحق بالشياطين، وإن غلب باعث طبعه من الأكل والشرب والجماع صبرَه التحق بالبهائم، قال قتادة: خلق الله سبحانه الملائكة عقولاً بلا شهوات، وخلق البهائم شهوات بلا عقول، وخلق الإنسان وجعل له عقلاً وشهوة، فمن غلب عقلُه شهوتَه فهو مع الملائكة، ومن غلبت شهوتُه عقلَه فهو كالبهائم، ولما خلق الإنسان في ابتداء أمره ناقصاً لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه، فصبره في هذه الحال بمنزلة صبر البهائم، وليس له قبل تمييزه قوة الاختيار، فإذا ظهرت فيه شهوة اللعب استعد لقوة الصبر الاختياري على ضعفها فيه، فإذا تعلقت به شهوة النكاح ظهرت فيه قوة الصبر، وإذا تحرك سلطان العقل وقَوِيَ استعان بجيش الصبر، ولكن هذا السلطان وجنده لا يستقلان بمقاومة سلطان الهوى وجنده فإن إشراق نور الهداية يلوح عليه عند أول سن التمييز وينمو على التدريج إلى سن البلوغ كما يبدو خيط الفجر ثم يتزايد ظهوره، وكلها هداية قاصرة غير مستقلة بإدراك مصالح الآخرة ومضارها، بل غايتها تعلقها ببعض مصالح الدنيا ومفاسدها، فإذا طلعت عليه شمس النبوة والرسالة وأشرق عليه نورها، رأى في ضوئها تفاصيل مصالح الدارين ومفاسدهما، فتلمّح العواقب ولبس لأمة الحرب وأخذ أنواع

الأسلحة، ووقع في حومة الحرب بين داعي الطبع والهوى وداعي العقل والهدى، والمنصور من نصره الله، والمخذول من خذله، ولا تضع الحرب أوزارها حتى ينزل في إحدى المنزلتين، ويصير إلى ما خلق له من الدارين.

الباب السادس

في بيان أقسامه بحسب اختلاف قوته وضعفه ومقاومته لجيش الهوى وعجزه عنه

وباعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال:

إحداها: أن يكون القهر والغلبة لداعي الدين فيرد جيش الهوى مفلولاً، وهذا إنما يصل إليه بدوام الصبر، والواصلون إلى هذه الرتبة هم المنصورون في الدنيا والآخرة وهم: ﴿الذين قالوا ربُّنا اللَّهُ ثم استقامُوا ﴾ وهم الذين تقول لهم الملائكة عند الموت: ﴿ ألاَّ تخافُوا ولا تحزنُوا وأبشرُوا بالجنَّةِ التي كُنتم تُوعدون نحنُ أولياؤُكم في الحياةِ الدنيا وفي الآخرة﴾ [فصلت: ٣٠]، وهم الذين نالوا معية الله مع الصابرين، وهم الذين جاهدوا في الله حق جهاده وخصهم بهدايته دون من عداهم.

الحالة الثانية: أن تكون القوة والغلبة لداعي الهوى فيسقط منازعه باعث الدين بالكلية، فيستسلم البائس للشيطان وجنده، فيقودونه حيث شاؤوا، وله معهم حالتان: إحداهما: أن يكون من جندهم وأتباعهم، وهذه حال العاجز الضعيف. الثانية: أن صير الشيطان من جنده، وهذه حال الفاجر القوي المتسلط والمبتدع الداعية لمتبوع، كما قال القائل:

وكنتُ امرءاً من جند إبليسَ فارتقى ... بيَ الحالُ حتى صارَ إبليسُ من جندي

فيصير إبليس وجنده من أعوانه وأتباعه، وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم شقوتهم واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، وإنما صاروا إلى هذه الحال لما أفلسوا من الصبر، وهذه الحالة هي حالة جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء

القضاء وشماتة الأعداء، وجند أصحابها المكر والخداع والأماني الباطلة والغرور والتسويف بالعمل وطول الأمل وإيثار العاجل على الآجل، وهي التي قال في صاحبها النبي ﷺ: «العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني». وأصحاب هذه الحال أنواع شتى: فمنهم المحارب لله ورسوله، الساعي في إبطال ما جاء به الرسول، يصد عن سبيل الله ويبغيها جهده عوجاً وتحريفاً ليصد الناس عنها. ومنهم المعرض عما جاء به الرسول، المقبل على دنياه وشهواتها فقط. ومنهم المنافق ذو الوجهين، الذي يأكل بالكفر والإسلام. ومنهم الماجن المتلاعب الذي قطع أنفاسه بالمجون واللهو واللعب. ومنهم من إذا وعظ قال واشوقاه إلى التوبة ولكنها قد تعذرت علي فلا مطمع لي فيها. ومنهم من يقول: ليس الله محتاجاً إلى صلاتي وصيامي، وأنا لا أنجو بعملي والله غفور رحيم. ومنهم من يقول: ترك المعاصي استهانة بعفو الله ومغفرته.

فكثّر ما استطعت من الخطايا إذا كان القدوم على كريم

ومنهم من يقول: ماذا تقع طاعتي في جنب ما قد عملت، وما ينفع الغريق خلاص إصبعه وباقي بدنه غريق، ومنهم من يقول: سوف أتوب، وإذا جاء الموت ونزل بساحتي تبت وقُبِلَتْ توبتي، إلى غير ذلك من أصناف المغترين الذين صارت عقولهم في أيدي شهواتهم، فلا يستعمل أحدهم عقله إلا في دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهواته، فعقله مع الشيطان كالأسير في يد الكافر، يستعمله في رعاية الخنازير وعصر الخمر وحمل الصليب، وهو بقهره عقله وتسليمه إلى أعدائه عند الله بمنزلة رجل قهر مسلماً، وباعه للكفار، وسلمه إليهم، وجعله أسيراً عندهم.

فصل: وها هنا نكتة بديعة يجب التفطن لها، وينبغي إخلاء القلب لتأملها، وهي أن هذا المغرور لما أذل سلطان الله الذي أعزّه به وشرفه ورفع به قدره، وسلمه في يد أبغض أعدائه إليه، وجعله أسيراً له تحت قهره وتصرفه وسلطانه، سلط الله عليه من كان حقه هو أن يتسلط عليه فجعله

تحت قهره وتصرفه وسلطانه يسخِّره حيث شاء ويسخر منه، ويسخر منه جنده وحزبه، فكما أذل سلطانَ الله وسلمه إلى عدوه أذله الله وسلط عليه عدوه الذي أمره أن يتسلط هو عليه ويذله ويقهره، فصار بمنزلة من سلم نفسه إلى أعدى عدو له يسومه سوء العذاب، وقد كان بصدد أن يستأسره ويقهره ويشفي غيظه منه، فلما ترك مقاومته ومحاربته، واستسلم له سُلِّط عليه عقوبة له، قال الله تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾ [النحل: ٩٩].

فإن قيل: فقد أثبت له على أوليائه ها هنا سلطاناً فكيف نفاه بقوله تعالى حاكياً عنه مقرراً له: ﴿وقال الشيطانُ لما قُضي الأمرُ إنَّ اللَّهَ وعدَكم وعدَ الحقِّ ووعدتُكم فأخلفتكم وما كان ليَ عليكم من سلطان إلَّا أنْ دعوتكم فاستجبتم لي﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ولقد صدَّق عليهم إبليسُ ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين، وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلمَ من يُؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك﴾ [سبأ: ٢١].

قيل: السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين: أحدهما: أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم وتلاعبه بهم، وسوقه إياهم كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته، والسلطان الذي نفاه سلطان الحجة فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان. الثاني: أن الله لم يجعل له عليهم سلطاناً ابتداءً البتة، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم في جملة جنده وحزبه، فلم يتسلْطن عليهم بقوته فإن كيده ضعيف، وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم، والمقصود أن من قصد أعظم أوليائه وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم إلى عدوه كان من عقوبته أن يسلط عليه ذلك العدو نفسه.

فصل: الحالة الثالثة: أن تكون الحرب سجالاً ودولاً بين الجندين،

فتارة له وتارة عليه، وتكثر نوبات الانتصار وتقلّ، وهذه حال أكثر المؤمنين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وتكون الحال يوم القيامة موازنة لهذه الأحوال الثلاث سواء بسواء، فمن الناس من يدخل الجنة ولا يدخل النار، ومنهم من يدخل النار ولا يدخل الجنة، ومنهم من يدخل النار ثم يدخل الجنة، وهذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس في الصحة والمرض، فمن الناس من تقاوم قوتُه داءَه فتقهره، ويكون السلطان للقوة، ومنهم من يقهر داؤه قوتَه ويكون السلطان للداء، ومنهم من تكون الحرب بين دائه وقوته نوباً فهو متردد بين الصحة والمرض.

فصل: ومن الناس من يصبر بجهد ومشقة، ومنهم من يصبر بأدنى حمل على النفس، ومثال الأول: كرجل صارع رجلاً شديداً فلا يقهره إلا بتعب ومشقة، والثاني كمن صارع رجلاً ضعيفاً فإنه يصرعه بغير مشقة، فهكذا تكون المصارعة بين جنود الرحمن وجنود الشيطان، ومن صرع جند الشيطان صرع الشيطان.

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «لقي رجلٌ من الإنس رجلاً من الجن فصارعه فصرعه الإنسي، فقال: مالي أراك ضئيلاً؟ فقال: إني من بينهم لضليع» فقالوا: أهو عمر بن الخطاب؟ فقال: «من ترونه غير عمر!».

وقال بعض الصحابة: إن المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر. وذكر ابن أبي الدنيا عن بعض السلف: إن شيطاناً لقي شيطاناً فقال: مالي أراك شحيباً؟ فقال: إني مع رجل إن أكل ذكر اسم الله فلا آكل معه، وإن شرب ذكر اسم الله فلا أشرب معه، وإن دخل بيته ذكر اسم الله فأبيت خارج الدار، فقال الآخر: لكنني مع رجل إن أكل لم يسمِّ الله فآكل أنا وهو جميعاً، وإن شرب لم يسم الله فأشرب معه، وإن

دخل داره لم يسمِّ الله فأدخل معه، وإن جامع امرأته لم يسمِّ الله فأجامعها معه. فمن اعتاد الصبر هابه عدوه، ومن عزَّ عليه الصبر طمع فيه عدوه وأوشك أن ينال منه غرضه.

الباب السابع
في ذكر أقسامه باعتبار متعلقه

الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها، وهذه الأنواع الثلاثة هي التي قال فيها الشيخ عبد القادر في فتوح الغيب: «لا بد للعبد من أمر يفعله، ونهي يجتنبه، وقدر يصبر عليه».

وهذا الكلام يتعلق بطرفين: طرف من جهة الرب تعالى، وطرف من جهة العبد.

فأما الذي من جهة الرب فهو أن الله تعالى له على عبده حكمان: حكم شرعي ديني، وحكم كوني قدري. فالشرعي متعلق بأمره، والكوني متعلق بخلقه، وهو سبحانه له الخلق والأمر. وحكمه الديني الطلبي نوعان بحسب المطلوب: فإن المطلوب إن كان محبوباً له فالمطلوب فعله إما واجباً وإما مستحباً، ولا يتم ذلك إلا بالصبر، وإن كان مبغوضاً له فالمطلوب تركه إما تحريماً وإما كراهة. وذلك أيضاً موقوف على الصبر، فهذا حكمه الديني الشرعي، وأما حكمه الكوني فهو ما يقضيه ويقدره على العبد من المصائب التي لا صنع له فيها، ففرضه الصبر عليها، وفي وجوب الرضا بها قولان للعلماء، وهما وجهان في مذهب أحمد أصحهما أنه مستحب. فمرجع الدين كله إلى هذه القواعد الثلاث: فعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور. وأما الذي من جهة العبد فإنه لا ينفك عن هذه الثلاث ما دام مكلفاً ولا تسقط عنه هذه الثلاثة حتى يسقط عنه التكليف، فقيام عبودية

الأمر والنهي والقدر على ساق الصبر، لا تستوي إلا عليه كما لا تستوي السنبلة إلا على ساقها.

فالصبر يتعلق بالمأمور والمحظور والمقدور بالخلق والأمر، والشيخ دائماً يحوم حول هذه الأصول الثلاثة، كقوله: يا بني افعل المأمور واجتنب المحظور واصبر على المقدور. وهذه الثلاثة هي التي أوصى بها لقمان لابنه في قوله: ﴿يا بني أقمِ الصلاةَ وأْمُرْ بالمعروف وانْهَ عن المنكر واصبرْ على ما أصابَك﴾ [لقمان: ١٧]. فأمْره بالمعروف يتناول فعله بنفسه وأمر غيره به، وكذلك نهيه عن المنكر. أما من حيث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه وغيره فيه، وأما من حيث اللزوم الشرعي فإن الآمر الناهي لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهي. وذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة في قوله: ﴿إنما يتذكرُ أولو الألبابِ الذين يُوفون بعهد الله ولا ينقضونَ الميثاقَ والذين يَصِلُونَ ما أمرَ اللّهُ به أن يُوصلَ ويَخشون ربَّهم ويخافونَ سوءَ الحساب والذين صبروا ابتغاءَ وجهِ ربِّهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانيةً ويدرؤون بالحسنةِ السيئةَ أولئكَ لهم عقبى الدار﴾ [الرعد: ٢١ - ٢٣].

فجمع لهم مقامات الإسلام والإيمان في هذه الأوصاف، فوصفهم بالوفاء بعهده الذي عاهدهم عليه. وذلك يعم أمره ونهيه الذي عهده إليهم بينهم وبينه، وبينهم وبين خلقه، ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء به بأنهم لا يقع منهم نقضه، ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويدخل في هذا ظاهر الدين وباطنه، وحق الله وحق خلقه، فيصلون ما بينهم وبين ربهم بعبوديته وحده لا شريك له، والقيام بطاعته والإنابة إليه، والتوكل عليه، وحبه وخوفه ورجائه والتوبة إليه، والاستكانة له والخضوع والذلة له، والاعتراف له بنعمته وشكره عليها، والإقرار بالخطيئة والاستغفار منها. فهذه هي الوصلة بين الرب والعبد. وقد أمر الله بهذه الأسباب التي بينه وبين عبده أن توصل، وأمر أن نوصل ما بيننا وبين رسوله بالإيمان به

وتصديقه وتحكيمه في كل شيء، والرضا لحكمه والتسليم له، وتقديم محبته على محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين، صلوات الله وسلامه عليه. فدخل في ذلك القيام بحقه وحق رسوله، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الوالدين والأقربين بالبر والصلة، فإنه أمر ببر الوالدين وصلة الأرحام ذلك مما أمر به أن يوصل، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الزوجات بالقيام بحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الأرقاء بأن نطعمهم مما نأكل ونكسوهم مما نكتسي ولا نكلفهم فوق طاقتهم، وأن نصل ما بيننا وبين الجار القريب والبعيد بمراعاة حقه، وحفظه في نفسه وماله وأهله بما نحفظ به نفوسنا وأهلينا وأموالنا، وأن نصل ما بيننا وبين الرفيق في السفر والحضر، وأن نصل ما بيننا بين عموم الناس بأن نـأتي إليهم بما نحب أن يأتوه إلينا، وأن نصل ما بيننا وبين الحفظة الكرام الكاتبين بأن نكرمهم ونستحي منهم كـما يستحي الرجـل من جليسه ومن هـو معه ممن يجلّه ويكرمه.

فهذا كله مما أمر الله به أن يُوصل، ثم وصفهم بالحامل لهم على هذه الصلة، وهو خشيته وخوف سوء الحساب يوم المآب، ولا يمكن لأحد قط أن يصل ما أمر الله بوصله إلا بخشيته، ومتى ترحلت الخشية من القلب انقطعت هذه الوصلة. ثم جمع لهم سبحانه ذلك كله في أصل واحد هو أخيّة ذلك وقاعدته ومداره الذي يدور عليه وهو الصبر، فقال: ﴿والذين صَبروا ابتغاءَ وجهِ ربِّهم﴾ فلم يكتف منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصاً لوجهه.

ثم ذكـر لهم ما يعينهم عـلى الصبر وهي الصلاة فقال: ﴿وأقـامُوا الصَّلاةَ﴾ وهذان هما العونان على مصـالح الـدنيا والآخـرة، وهما الصبـر والصلاة، فقال تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصَّلاةِ وإنَّها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا استعينُوا بالصبرِ والصَّلاةِ إنَّ اللّهَ مع الصابرين﴾ [البقرة: ١٥٣].

ثم ذكر سبحانه إحسانهم إلى غيرهم بالإنفاق عليهم سراً وعلانية، فأحسنوا إلى أنفسهم بالصبر والصلاة، وإلى غيرهم بالإنفاق عليهم. ثم ذكر حالهم إذا جُهل عليهم وأوذوا أنهم لا يقابلون ذلك بمثله، بل يدرؤون بالحسنة السيئة، فيحسنون إلى من يُسيء إليهم، فقال: ﴿ويدرؤون بالحسنةِ السيئةَ﴾ وقد فُسر هذا الدرء بأنهم يدفعون بالذنب الحسنة بعده، كما قال تعالى: ﴿إن الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال النبي ﷺ: «أتبع السيئة الحسنة تمحها» والتحقيق أن الآية تعم النوعين.

والمقصود أن هذه الآيات تناولت مقامات الإسلام والإيمان كلها، اشتملت على فعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور. وقد ذكر تعالى هذه الأصول الثلاثة في قوله: ﴿بلى إنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وقوله: ﴿إنه مَنْ يتقِّ ويصبرْ﴾ [يوسف: ٩٠]. وقوله: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا اصبرُوا وصابرُوا ورابُطوا واتّقُوا الله لعلكم تُفلحون﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. فكل موضع قرن فيه التقوى بالصبر اشتمل على الأمور الثلاثة، فإن حقيقة التقوى فعل المأمور وترك المحظور.

الباب الثامن

في انقسامه باعتبار تعلق الأحكام الخمسة به

وهو ينقسم بهذا الاعتبار إلى واجب ومندوب ومحظور ومكروه ومباح. فالصبر الواجب ثلاثة أنواع؛ أحدها الصبر عن المحرمات، والثاني الصبر على أداء الواجبات، والثالث الصبر على المصائب التي لا صنع للعبد فيها كالأمراض والفقر وغيرها.

وأما الصبر المندوب فهو الصبر عن المكروهات، والصبر على المستحبات، والصبر على مقابلة الجاني بمثل فعله.

وأما المحظور فأنواع: أحدها الصبر عن الطعام والشراب حتى يموت،

وكذلك الصبر عن الميتة والدم ولحم الخنزير عند المخمصة حرام إذا خاف بتركه الموت، قال طاووس وبعده الإمام أحمد: «من اضطر إلى أكل الميتة والدم فلم يأكل فمات دخل النار».

فإن قيل: فما تقولون في الصبر عن المسألة في هذه الحال؟

قيل: اختلف في حكمه: هل هو حرام أو مباح؟ على قولين هما لأصحاب أحمد، وظاهر نصه أن الصبر عن المسألة جائز، فإنه قيل له: إذا خاف إن لم يسأل أن يموت؟ فقال: لا يموت، يأتيه الله برزقه. أو كما قال، فأحمد منع وقوع المسألة، ومتى علم الله ضرورته وصدقه في ترك المسألة قيّض الله له رزقاً.

وقال كثير من أصحاب أحمد والشافعي: يجب عليه المسألة، وإن لم يسأل كان عاصياً، لأن المسألة تتضمن نجاته من التلف.

فصل: ومن الصبر المحظور صبر الإنسان على ما يقصد هلاكه من سبع أو حيات أو حريق أو ماء أو كافر يريد قتله، بخلاف استسلامه وصبره في الفتنة وقتال المسلمين، فإنه مباح له بل يستحب، كما دلت عليه النصوص الكثيرة، وقد سئل النبي ﷺ عن هذه المسألة بعينها فقال: «كن كخير ابْنَيْ آدم» وفي لفظ: «كن عبد الله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل» وفي لفظ: «دعه يبوء بإثمه وإثمك» وفي لفظ آخر: «فإن بهرك شعاع السيف فضع يدك على وجهك». وقد حكى الله استسلام خير ابني آدم وأثنى عليه بذلك، وهذا بخلاف قتل الكافر فإنه يجب عليه الدفع عن نفسه، لأن من مقصود الجهاد أن يدفع عن نفسه وعن المسلمين. وأما قتال اللصوص فهل يجب فيه الدفع أو يجوز فيه الاستسلام؟ فإن كان عن معصوم غيره وجب، وإن كان عن نفسه فظاهر نصوصه أنه لا يجب الدفع، وأوجبه بعضهم، ولا يجوز الصبر على من قصده أو حرمته بالفاحشة.

فصل: وأما الصبر المكروه فله أمثلة: أحدها: أن يصبر عن الطعام والشراب واللبس وجماع أهله حتى يتضرر بذلك بدنه. الثاني: صبره عن جماع زوجته إذا احتاجت إلى ذلك ولم يتضرر به. الثالث: صبره على المكروه. الرابع: صبره عن فعل المستحب.

فصل: وأما الصبر المباح: فهو الصبر عن كل فعل مستوي الطرفين خُيِّر بين فعله وتركه والصبر عليه.

وبالجملة فالصبر على الواجب واجب، وعن الواجب حرام، والصبر عن الحرام واجب وعليه حرام. والصبر على المستحب مستحب وعنه مكروه. والصبر عن المكروه مستحب وعليه مكروه. والصبر عن المباح مباح. والله أعلم.

الباب التاسع
في بيان تفاوت درجات الصبر

الصبر كما تقدم نوعان: اختياري واضطراري، والاختياري أكمل من الاضطراري، فإن الاضطراري يشترك فيه الناس ويتأتى ممن لا يتأتى منه الصبر الاختياري، ولذلك كان صبر يوسف الصديق ﷺ عن مطاوعة امرأة العزيز، وصبره على ما ناله في ذلك من الحبس والمكروه أعظم من صبره على ما ناله من إخوته لَمَّا ألقوه في الجُبِّ وفرقوا بينه وبين أبيه وباعوه بيع العبد، ومن الصبر الثاني إنْشاءُ اللّهِ سبحانه له ما أنشأه من العز والرفعة والملك والتمكين في الأرض، وكذلك صبر الخليل ﷺ، والكليم، وصبر نوح، وصبر المسيح، وصبر خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كان صبراً على الدعوة إلى الله ومجاهدة أعداء الله، ولهذا سماهم الله أولي العزم، وأمر رسوله أن يصبر صبرهم فقال: ﴿فاصبرْ كما صَبَرَ أُولو العزمِ من الرسل﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وأولو العزم هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما

وصّينا به إبراهيم ومُوَسى وعيسى﴾ [الشورى: ١٣]، وفي قولـه: ﴿ وإذْ أخذَنا من النبيينَ ميثاقَهم ومنكَ ومن نوحٍ وإبـراهيمَ ومُوسى وعيسى﴾ [الأحزاب: ٧]، كذلك قال ابن عباس وغيره من السلف، ونهاه سبحانه أن يتشبَّه بصاحب الحوت حيث لم يصبر صبر أولي العزم، فقال: ﴿فاصبْر لحكم رِبِّك ولا تكنْ كصاحبِ الحوتِ إذ نادَى وهو مكظوم﴾ [القلم: ٤٨].

وهاهنا سؤال نافع وهو أن يقال: ما العامل في الظرف وهو قوله (إذ نادى) ولا يمكن أن يكون الفعل المنهي عنه، إذ يصير المعنى لا تكن مثله في ندائه، وقد أثنى الله سبحانه عليه في هذا النداء، فأخبر أنه نجّاه به فقال: ﴿وذا النُّون إذ ذهبَ مُغاضباً فظن أنْ لن نقدرَ عليه فنادى في الظلمات أنْ لا إلَه إلا أنتَ سبحانَك إني كنتُ من الظالمين، فاستجبنا له ونجّيناه من الغمِّ وكذلك نُنجي المؤمنين﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وفي الترمذي وغيره، عن النبي ﷺ أنه قال: «دعوة أخي ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت، ما دعا بها مكروبٌ إلا فرَّجَ الله عنه: لا إلَه إلا أنتَ سبحانَك إني كنتُ من الظالمين»، فلا يمكن أن ينهى عن التشبه به في هذه الدعوة وهي النداء الذي نادى به ربه، وإنما نهى عن التشبه به في السبب الذي أفضى به إلى هذه المناداة، وهي مغاضبته التي أفضت به إلى حبسه في بطن الحوت وشدة ذلك عليه حتى نادى ربه وهو مكظوم، والكظيم والكاظم: الذي قد امتلأ غيظاً وغضباً وهماً وحزناً وكظم عليه فلم يخرجه.

فإن قيل: وعلى ذلك فما العامل في الظرف؟ قيل: ما في صاحب الحوت من معنى الفعل.

فإن قيل فالسؤال بعد قائم، فإنه إذا قيد المنهي بقيد أو زمن كان داخلاً في حيز النهي، فإن كان المعنى: لا تكن مثل صاحب الحوت في هذه الحال أو هذا الوقت كان نهياً عن تلك الحالة.

قيل: لما كان نداؤه مسبباً عن كونه صاحب الحوت، فنهي أن يتشبَّه

به في الحال التي أفضت به إلى صحبته الحوت والنداء، وهي ضعف العزيمة والصبر لحكمه تعالى، ولم يقل تعالى: ولا تكن كصاحب الحوت إذ ذهب مغاضباً فالتقمه الحوت فنادى، بل طوى القصة واختصرها وأحال بها على ذكرها في الموضع الآخر، واكتفى بغايتها وما انتهت إليه.

فإن قيل: فما منعك بتعويض الظرف بنفس الفعل المنهي عنه، أي لا تكن مثله في ندائه وهو ممتلىء غيظاً وهماً وغماً، بل يكون نداؤك نداء راض بما قُضي عليه قد تلقاه بالرضا والتسليم وسعة الصدر لا نداء كظيم. قيل هذا المعنى وإن كان صحيحاً إلا أن النهي لم يقع عن التشبه به في مجرده، وإنما نهي عن التشبه به في الحال التي حملته على ذهابه مغاضباً حتى سجن في بطن الحوت، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فاصبرْ لحكم ربك﴾ ثم قال: ﴿ولا تكنْ كصاحب الحوت﴾ أي في ضعف صبره لحكم ربه، فإن الحالة التي نهي عنها هي ضد الحالة التي أمر بها.

فإن قيل: فما منعك أن تصبر حيث أمر بالصبر لحكمه الكوني القدري الذي يقدره عليه ولا تكن كصاحب الحوت حيث لم يصبر عليه، بل نادى وهو كظيم لكشفه فلم يصبر على احتماله والسكون تحته؟.

قيل: منع من ذلك أن الله سبحانه أثنى على يونس وغيره من أنبيائه بسؤالهم إياه كشف ما بهم من الضر، وقد أثنى عليه سبحانه بذلك في قوله: ﴿وذا النون إذْ ذهبَ مغاضباً فظنَّ أنْ لنْ نقدر عليه فنادَى في الظلماتِ أنْ لا إلَه إلا أنتَ سبحانَك إني كنتُ من الظالمين، فاستجبنا له فنجّينَاه من الغمِّ وكذلك نُنجي المؤمنين﴾ فكيف ينهى عن التشبه به فيما يثني عليه ويمدحه به، وكذلك أثنى على أيوب بقوله: ﴿مسني الضرُّ وأنتَ أرحمُ الرَّاحمين﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وعلى يعقوب بقوله: ﴿إنما أشكو بَثِّي وحُزني إلى الله﴾ [يوسف: ٨٦]، وعلى موسى بقوله: ﴿ربِّ إني لما أنزلتَ إليَّ من خيرٍ فقير﴾ [القصص: ٢٤]، وقد شكا إليه خاتم أنبيائه ورسله بقوله: «اللهم أشكو إليك ضعفَ قوتي وقلةَ حيلتي» الحديث. فالشكوى إليه

سبحانه لا تنافي الصبر الجزيل، بل إعراض عبده عن الشكوى إلى غيره جملة، وجعل الشكوى إليه وحده هو الصبر، والله تعالى يبتلي عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه، وقد ذم سبحانه من لم يتضرع إليه ولم يستكن له وقت البلاء، كما قال تعالى: ﴿ولقد أخذناهُم بالعذاب فما استكانُوا لربِّهم وما يتضرَّعُون﴾ [المؤمنون: ٧٦]. والعبد أضعف من أن يتجلد على ربه. والرب تعالى لم يرد من عبده أن يتجلد عليه، بل أراد منه أن يستكين له ويتضرع إليه، وهو تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه ويحب من يشكو ما به إليه، وقيل لبعضهم: كيف تشتكي إليه ما ليس يخفى عليه؟ فقال: ربي يرضى ذل العبد إليه.

والمقصود أنه سبحانه أمر رسوله أن يصبر صبر أولي العزم الذين صبروا لحكمه اختياراً وهذا أكمل الصبر، ولهذا دارت قصة الشفاعة يوم القيامة على هؤلاء حتى ردوها إلى أفضلهم وخيرهم وأصبرهم لحكم الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فإن قيل: أيُّ أنواع الصبر الثلاثة أكمل: الصبر على المأمور، أم الصبر عن المحظور، أم الصبر على المقدور؟.

قيل: الصبر المتعلق بالتكليف، وهو الأمر والنهي أفضل من الصبر على مجرد القدر، فإن هذا الصبر يأتي به البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فلا بد لكل أحد من الصبر على القدر اختياراً أو اضطراراً.

وأما الصبر على الأوامر والنواهي فصبر أتباع الرسل، وأعظمهم أتباعاً أصبرهم في ذلك، وكل صبر في محله وموضعه أفضل: فالصبر عن الحرام في محله أفضل، وعلى الطاعة في محلها أفضل.

فإن قيل: أي الصبرين أحبُّ إلى الله؟ صبر من يصبر على أوامره، أم صبر من يصبر عن محارمه؟.

قيل: هذا موضع تنازع فيه الناس. فقالت طائفة: الصبر عن

المخالفات أفضل؛ لأنه أشق وأصعب، فإن أعمال البر يفعلها البر والفاجر، ولا يصبر عن المخالفات إلا الصدّيقون: قالوا: ولأن الصبر عن المحرمات صبر على مخالفة هوى النفس، وهو أشق شيء وأفضله. وقالوا: ولأن ترك المحبوب الذي تحبه النفوس دليل على أن من ترك لأجله أحب إليه من نفسه وهواه، بخلاف فعل ما يحبه المحبوب فإنه لا يستلزم ذلك. قالوا: وأيضاً فالمروءة والفتوة كلُّها في هذا الصبر.

قال الإمام أحمد: «الفتوة ترك ما تهوى لما تخشى» فمروءة العبد وفتوته بحسب هذا الصبر. قالوا: وليس العجب ممن يصبر على الأوامر، فإن أكثرها محبوبات للنفوس السليمة لما فيها من العدل والإحسان والإخلاص والبر، وهذه محاب للنفوس الفاضلة الزكية، بل العجب ممن يصبر عن المناهي التي أكثرها محاب للنفوس فيترك المحبوب العاجل في هذه الدار للمحبوب الآجل في دار أخرى، والنفس الموكلة بحب العاجل فصبرها عنه مخالف لطبعها.

قالوا: ولأن المناهي لها أربعة دواعٍ تدعو إليها: نفس الإنسان وشيطانه وهواه ودنياه، فلا يتركها حتى يجاهد هذه الأربعة، وذلك أشق شيء على النفوس وأمرُّه، قالوا: فالمناهي من باب حمية النفوس عن مشتهياتها ولذاتها، والحميّة مع قيام داعي التناول وقوته من أصعب شيء وأشقه، قالوا: ولذلك كان باب قربان النهي مسدوداً كله. وباب الأمر إنما يفعل منه المستطاع، كما قال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»، فدل على أن باب المنهيات أضيق من باب المأمورات، وإنه لم يرخص في ارتكاب شيء منه كما رخص في ترك بعض المأمورات للعجز والعذر. قالوا: ولهذا كانت عامة العقوبات من الحدود وغيرها على ارتكاب المنهيات بخلاف ترك المأمور، فإن الله سبحانه لم يرتب عليه حداً معيناً فأعظم المأمورات الصلاة، وقد اختلف العلماء هل على تاركها حَدٌّ أم لا؟.

فصل: فهذا بعض ما احتجت به الطائفة، وقالت طائفة أخرى: بل الصبر على فعل المأمور أفضل وأجلُّ من الصبر على ترك المحظور؛ لأن فعل المأمور أحب إلى الله من ترك المحظور، والصبر على أحب الأمرين أفضل وأعلى، وبيان ذلك من وجوه:

أحدها: إن فعل المأمور مقصود لذاته فهو مشروع شرع المقاصد، فإن معرفة الله وتوحيده وعبوديته وحده والإنابة إليه والتوكل عليه، وإخلاص العمل له ومحبته والرضا به والقيام في خدمته هو الغاية التي خلق لها الخلق وثبت بها الأمر، وذلك أمر مقصود لنفسه، والمنهيات إنما نُهي عنها لأنها صادة عن ذلك، أو شاغلة عنه أو مفوتة لكماله، ولذلك كانت درجاتها في النهي بحسب صدها عن المأمور وتعويقها عنه وتفويتها لكماله، فهي مقصودة لغيرها، والمأمور مقصود لنفسه، فلو لم يصدّ الخمر والميسر عن ذكر الله وعن الصلاة وعن التوادِّ والتحابّ الذي وضعه الله بين عباده لما حرمه، وكذلك لو لم يحل بين العبد وبين عقله الذي به يعر ف الله ويعبده ويحمده ويمجده ويصلي له ويسجد لما حرّمه، وكذلك سائر ما حرمه إنما حرمه لأنه يصد عما يحبه ويرضاه، ويحول بين العبد وبين إكماله.

الثاني: إن المأمورات متعلقة بمعرفة الله وتوحيده وعبادته وذكره وشكره ومحبته والتوكل عليه والإنابة إليه، فمتعلقها ذات الرب تعالى وأسماؤه وصفاته. ومتعلق المنهيات ذوات الأشياء المنهي عنها، والفرق من أعظم ما يكون.

الثالث: إن ضرورة العبد وحاجته إ. فعل المأمور أعظم من ضرورته إلى ترك المحظور، فإنه ليس إلى شيء أحوج وأشد فاقة منه إلى معرفة ربه وتوحيده وإخلاص العمل له، وإفراده بالعبودية والمحبة والطاعة، وضرورته إلى ذلك أعظم من ضرورته إلى نفسه، ونفسه وحياته أعظم من ضرورته إلى غذائه الذي به قوام بدنه، بل هذا لقلبه وروحه كالحياة والغذاء لبدنه، وهو إنما هو إنسان بروحه وقلبه لا ببدنه وقالبه، كما قيل:

يا خادمَ الجسم كم تشقى بخدمته   فأنتَ بالقلب لا بالجسم إنسان

وترك المنهي إنما شرع له تحصيلاً لهذا الأمر الذي هو ضروري له، وما أحوجه وأفقره إليه.

الرابع: إن ترك المنهي من باب الحمية، وفعل المأمور من باب حفظ القوة والغذاء الذي لا تقوم البنية بدونه، ولا تحصل الحياة إلا به، فقد يعيش الإنسان مع تركه الحمية وإن كان بدنه عليلاً أشد ما يكون علة، ولا يعيش بدون القوة والغذاء الذي يحفظها، فهذا مثل المأمورات والمنهيات.

الخامس: إن الذنوب كلها ترجع إلى هذين الأصلين: ترك المأمور وفعل المحظور، ولو فعل العبد المحظور كله من أوله إلى آخره حتى أتى من مأمور الإيمان بأدنى أدنى مثقال ذرة منه نجا بذلك من الخلود في النار، ولو ترك كل محظور ولم يأت بمأمور الإيمان لكان مخلداً في السعير، فأين شيء مثاقيل الذر منه تخرج من النار، إلى شيء وزن الجبال منه أضعافاً مضاعفة لا تقتضي الخلود في النار، مع وجود ذلك المأمور أو أدنى شيء منه.

السادس: إن جميع المحظورات من أولها إلى آخرها تسقط بمأمور التوبة، ولا تسقط المأمورات كلها معصية المخالفة إلا بالشرك أو الوفاة عليه، ولا خلاف بين الأمة أن كل محظور يسقط بالتوبة منه، واختلفوا هل تسقط الطاعة بالمعصية؟ وفي المسألة نزاع وتفاصيل ليس هذا موضعه.

السابع: إن ذنب الأب[1] كان بفعل المحظور فكان عاقبته أن اجتباه ربه فتاب عليه وهدى، وذنب إبليس كان بترك المأمور فكان عاقبته ما ذكر الله سبحانه، وجعل هذا عبرة للذرية إلى يوم القيامة.

الثامن: إن المأمور محبوب إلى الرب، والمنهي مكروه له، وهو سبحانه إنما قدره وقضاه لأنه ذريعة إلى حصول محبوبه من عبده ومن نفسه تعالى.

---

(١) الأب: المراد به آدم عليه الصلاة والسلام.

أما من عبده فالتوبة والاستغفار والخضوع والذل والانكسار وغير ذلك. وأما من نفسه فبالمغفرة والتوبة على العبد والعفو عنه، والصفح والحلم والتجاوز عن حقه، وغير ذلك مما هو أحب إليه تعالى من فواته بعدم تقدير ما يكرهه، وإذا كان إنما قدر ما يكرهه لأنه يكون وسيلة إلى ما يحبه علم أن محبوبه هو الغاية، ففوات محبوبه أبغض إليه وأكره له من حصول مبغوضه، بل إذا ترتب على حصول مبغوضه ما يحبه من وجه آخر كان المبغوض مراداً له إرادة الوسائل، كما كان النهي عنه وكراهته لذلك. وأما المحبوب فمراده إرادة المقاصد كما تقدم، فهو سبحانه إنما خلق الخلق لأجل محبوبه ومأموره وهو عبادته وحده، كما قال تعالى: ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبُدون﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقدر مكروهه ومبغوضه تكميلاً لهذه الغاية التي خلق خلقه لأجلها، فإنه ترتب عليه من المأمورات ما لم يكن يحصل بدون تقديره، كالجهاد الذي هو أحب العمل إليه والموالاة فيه والمعاداة فيه، ولولا محبته لهذه المأمورات لما قدر من المكروه له ما يكون سبباً لحصولها.

التاسع: إن ترك المحظور لا يكون قربة ما لم يقارنه فعل المأمور، فلو ترك العبد كل محظور لم يثبه الله عليه حتى يقارنه مأمور الإيمان، وكذلك المؤمن لا يكون تركه المحظور قربة حتى يقارنه مأمور النية بحيث يكون تركه لله، فافتقر ترك المنهيات بكونه قربة يثاب عليها إلى فعل المأمور، ولا يفتقر فعل المأمور في كونه قربة وطاعة إلى ترك المحظور، ولو افتقر إليه لم يقبل الله طاعة من عصاه أبداً، وهذا من أبطل الباطل.

العاشر: إن المنهي عنه مطلوب إعدامه، والمأمور مطلوب إيجاده، والمراد إيجاد هذا وإعدام ذاك، فإذا قدر عدم الأمرين أو وجودهما كان وجودهما خير من عدمهما، فإنه إذا عدم المأمور لم ينفع عدم المحظور، وإذا وجد المأمور فقد يُستعان به على دفع المحظور أو دفع أثره، فوجود القوة والمرض خير من عدم الحياة والمرض.

الحادي عشر: إن باب المأمور الحسنةُ فيه بعشر أمثالها إلى سبعمائة

ضعف إلى أضعاف كثيرة، وباب المحظور السيئةُ فيه بمثلها، وهي بصدد الزوال بالتوبة والاستغفار، والحسنة الماحية والمصيبة المكفِّرة، واستغفار الملائكة للمؤمنين واستغفار بعضهم لبعض وغير ذلك، وهذا يدل على أنه أحب إلى الله من عدم المنهي.

الثاني عشر: إن باب المنهيات يمحوه الله سبحانه ويبطل أثره بأمور عديدة من فعل العبد وغيره، فإنه يبطله بالتوبة النصوح وبالاستغفار وبالحسنات الماحية وبالمصائب المكفرة، وباستغفار الملائكة وبدعاء المؤمنين، فهذه ستة في حال حياته، وبتشديد الموت وكربه وسياقه عليه، فهذا عند مفارقته الدنيا، وبهول المطلع وروعة الملكين في القبر وضغطته وعصرته له، وشدة الموقف وعنائه وصعوبته، وبشفاعة الشافعين فيه، وبرحمة أرحم الراحمين له، فإن عجزت عنه هذه الأمور فلا بدّ له من دخول النار، ويكون لبثه فيها على قدر بقاء خبثه ودرنه، فإن الله حرم الجنة إلا على كل طيب، فما دام درنه ووسخه وخبثه فيه فهو في كير التطهر حتى يتصفى من ذلك الوسخ والخبث، وأما باب المأمورات فلا يبطله إلا الشرك.

الثالث عشر: إن جزاء المأمورات الثواب وهو من باب الإحسان والفضل والرحمة، وجزاء المنهيات العقوبة وهي من باب الغضب والعدل، ورحمته سبحانه تغلب غضبه، فما تعلق بالرحمة والفضل أحب إليه مما تعلق بالغضب والعدل، وتعطيل ما تعلق بالرحمة أكره إليه من فعل ما تعلق بالغضب.

الرابع عشر: إن باب المنهيات تسقط الآلاف المؤلفة منه الواحدة من المأمورات، وباب المأمورات لا يسقط الواحدة منه الآلاف المؤلفة من المنهيات.

الخامس عشر: إن متعلق المأمورات الفعل وهو صفة كمال، بل كمال المخلوق من فعاله فإنه فعل فكمل، ومتعلق النهي الترك، والترك عدم، ومن حيث هو كذلك لا يكون كمالاً، فإن العدم المحض ليس بكمال، وإنما يكون كمالاً لما يتضمنه أو يستلزمه من الفعل الوجودي الذي

هو سبب الكمال، وأما أن يكون مجرد الترك الذي هو عدم محض كمالاً أو سبباً للكمال فلا. مثال ذلك لو ترك السجود للصنم لم يكن كماله في مجرد هذا الترك ما لم يكن يسجد لله، وإلا فلو ترك السجود لله وللصنم لم يكن ذلك كمالاً، وكذلك لو ترك تكذيب الرسول ومعاداته لم يكن بذلك مؤمناً ما لم يفعل ضد ذلك من التصديق والحب وموالاته وطاعته، فعلم أن الكمال كله في المأمور، وأن المنهي ما لم يتصل به فعل المأمور لم يفد شيئاً ولم يكن كمالاً، فإن الرجل لو قال للرسول: لا أكذبك ولا أصدقك، ولا أواليك ولا أعاديك، ولا أحاربك ولا أحارب من يحاربك، لكان كافراً، ولم يكن مؤمناً بترك معاداته وتكذيبه ومحاربته ما لم يأت بالفعل الوجودي الذي أمر به.

السادس عشر: إن العبد إذا أتى بالمأمور به على وجهه ترك المنهي عنه ولا بد. فالمقصود إنما هو فعل المأمور، ومع فعله على وجه يتعذر فعل المنهي، فالمنهي عنه في الحقيقة هو تعريض المأمور للإضاعة، فإن العبد إذا فعل ما أمر به من العدل والعفة امتنع من صدور الظلم والفواحش منه، فنفس العدل يتضمن ترك الظلم، ونفس العفة تتضمن ترك الفواحش، فدخل ترك المنهي عنه في المأمور به ضمناً وتبعاً، وليس كذلك في عكسه، فإن ترك المحظور لا يتضمن فعل المأمور فإنه قد يتركهما معاً كما تقدم. فعلم أن المقصود هو إقامة الأمر على وجهه، ومع ذلك لا يمكن ارتكاب النهي البتة، وأما ترك المنهي عنه فإنه لا يستلزم إقامة الأمر.

السابع عشر: إن الرب تعالى إذا أمر عبده بأمر ونهاه عن أمر ففعلهما جميعاً كان قد حصل محبوب الرب وبغيضه، فقد تقدم له من محبوبه ما يدفع عنه شر بغيضه ومقاومته، ولا سيما إذا كان فعل ذلك المحبوب أحب إليه من ترك ذلك البغيض فيهب له من جنايته ما فعل من هذا بطاعته، ويتجاوز له عما فعل من الآخر.

ونظير هذا في الشاهد أن يقتل الرجل عدواً للملك هو حريص على

قتله. وشرب مسكراً نهاه عن شربه، فإنه يتجاوز له عن هذه الزلة بل عن أمثالها في جنب ما أتى به من محبوبه، وأما إذا ترك محبوبه وبغيضه فإنه لا يقوم ترك بغيضه بمصلحة فعل محبوبه أبداً، كما إذا أمر الملك عبده بقتل عدوه ونهاه عن شرب مسكر، فعصاه في قتل عدوه مع قدرته عليه وترك شرب المسكر، فإن الملك لا يهب له جرمه بترك أمره في جنب ترك ما نهاه عنه، وقد فطر الله عباده على هذا. فهكذا السادات مع عبيدهم والآباء مع أولادهم والملوك مع جندهم والزوجات مع أزواجهم، ليس التارك منهم محبوب الأمر ومكروهه بمنزلة الفاعل منهم محبوب أمر ومكروهه.

يوضحه الوجه الثامن عشر: أن فاعل محبوب الرب يستحيل أن يفعل جميع مكروهه، بل يترك من مكروهه بقدر ما أتى به من محبوبه، فيستحيل الإتيان بجميع مكروهه وهو يفعل ما أحبه وأبغضه، فغايته أن اجتمع الأمران فيحبه الرب تعالى من وجه ويبغضه من وجه. أما إذا ترك المأمور به جملة فإنه لم يقم به ما يحبه الرب عليه، فإن مجرد ترك المنهي لا يكون طاعة إلا باقترانه بالمأمور كما تقدم فلا يحبه على مجرد الترك وهو سبحانه يكرهه ويبغضه على مخالفة الأمر، فصار مبغوضاً للرب تعالى من كل وجه إذ ليس فيه ما يحبه الرب عليه. فتأمله.

يوضحه الوجه التاسع عشر: وهو أن الله سبحانه لم يعلق محبته إلا بأمْر وجودي أُمَر به إيجاباً أو استحباباً ولم يعلقها بالترك من حيث هو ترك ولا في موضع واحد، فإنه يحب التوابين ويحب المحسنين، ويحب الشاكرين، ويحب الصابرين ويحب المتطهرين، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بُنيان مرصوص، ويحب المتقين، ويحب الذاكرين، ويحب المتصدقين، فهو سبحانه إنما علق محبته بأوامره إذ هي المقصود من الخلق والأمر، كما قال تعالى: ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلاّ ليعبُدون﴾ [الذاريات: ٥٦]. فما خلق الخلق إلا لقيام أوامره، وما نهاهم إلا عما يصدهم عن قيام أوامره ويعوقهم عنها.

يوضحه الوجه العشرون: إن المنهيات لو لم تَصُدّ عن المأمورات وتمنع وقوعها على الوجه الذي أمر الله بها لم يكن للنهي عنها معنى، وإنما نهى عنها لمضادتها لأوامره وتعويقها لها وصدها عنها، فالنهي عنها من باب التكميل والتتمة للمأمور، فهو بمنزلة تنظيف طرق الماء ليجري في مجاريه غير معوق، فالأمر بمنزلة الماء الذي أرسل في نهر لحياة البلاد والعباد، والنهي بمنزلة تنظيف طرقه ومجراه وتنقيتها مما يعوق الماء، والأمر بمنزلة القوة والحياة، والنهي بمنزلة الحمية الحافظة للقوة والداء والخادم لها.

قالوا: وإذا تبين أن فعل المأمور أفضل فالصبر عليه أفضل أنواع الصبر، وبه يسهل عليه الصبر عن المحظور والصبر على المقدور، فإن الصبر الأعلى يتضمن الصبر الأدنى دون العكس، وقد ظهر لك من هذا أن الأنواع الثلاثة متلازمة، وكل نوع منها يعين على النوعين الآخرين، وإن كان من الناس من قوة صبره على المقدور، فإذا جاء الأمر والنهي فقوة صبره هناك ضعيفة، ومنهم من هو بالعكس من ذلك، ومنهم من قوة صبره في جانب الأمر أقوى، ومنهم من هو بالعكس والله أعلم.

الباب العاشر
في انقسام الصبر إلى محمود ومذموم

الصبر ينقسم إلى قسمين: قسم مذموم وقسم ممدوح:

فالمذموم: الصبر عن الله وإرادته ومحبته وسير القلب إليه، فإن هذا الصبر يتضمن تعطيل كمال العبد بالكلية وتفويت ما خلق له. وهذا كما أنه أقبح الصبر فهو أعظمه وأبلغه، فإنه لا صبر أبلغ من صبر من يصبر عن محبوبه الذي لا حياة له بدونه البتة، كما أنه لا زهد أبلغ من زهد الزاهد فيما أعد الله لأوليائه من كرامته مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فالزهد في هذا أعظم أنواع الزهد، كما قال رجل لبعض الزاهدين وقد تعجب لزهده: «ما رأيت أزهد منك!» فقال: «أنت أزهد

مني، أنا زهدت في الدنيا وهي لا بقاء لها ولا وفاء، وأنت زهدت في الآخرة، فمن أزهد منا؟». قال يحيى بن معاذ الرازي: «صبر المحبين أعجب من صبر الزاهدين، واعجباً كيف يصبرون!»، وفي هذا قيل:

الصبر يُحمد في المواطن كلِّها إلا عليك فإنه لا يُحمد

ووقف رجل على الشبلي فقال: أي صبر أشد على الصابرين؟ فقال: الصبر في الله؟ قال: لا. فقال: الصبر لله؟ فقال: لا. قال: فالصبر مع الله؟ قال: لا. قال: فإيش هو؟ قال: الصبر عن الله. فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تزهق.

وقيل: الصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء، وقد أجمع الناس على أن الصبر عن المحبوب غير محمود، فكيف إذا كان كمال العبد وفلاحه في محبته، ولم تزل الأحباب تعيب المحبين بالصبر عنهم كما قيل:

والصبرُ عنك فمذمومٌ عواقبُه والصبرُ في سائرِ الأشياء محمودُ

وقال آخر في الصبر عن محبوبه:

إذا لعبَ الرجالُ بكلِّ شيءٍ رأيتُ الحبَّ يلعبُ بالرجالِ
وكيف الصبرُ عمن حلَّ مني بمنزلةِ اليمين مع الشمال

وشكا آخر إلى محبوبه ما يقاسي من حبه فقال: لو كنت صادقاً لما صبرت عني.

ولما شكوتُ الحبَّ قالتْ كذبتني ترى الصبَّ عن محبوبه كيف يصبرُ

فصل: وأما الصبر المحمود فنوعان: صبر لله، وصبر بالله، قال الله تعالى: ﴿واصبرْ وما صبرُك إلا بالله﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال: ﴿واصبرْ لحكمِ ربِّك فإنك بأعيننا﴾ [الطور: ٤٨]. وقد تنازع الناس أي الصبرين أكمل؟ فقالت طائفة: «الصبر له أكمل، فإن ما كان لله أكمل مما كان بالله، فإن ما كان له فهو غاية وما كان به فهو وسيلة، والغايات أشرف من الوسائل، ولذلك وجب الوفاء بالنذر إذا كان تبرراً وتقرباً إلى الله لأنه نذر

له، ولم يجب الوفاء به إذا خرج مخرج اليمين لأنه حلف به، فما كان له سبحانه فهو متعلق بألوهيته، وما كان به فهو متعلق بربوبيته، وما تعلق بألوهيته أشرف مما تعلق بربوبيته، ولذلك كان توحيد الألوهية هو المنجي من الشرك دون توحيد الربوبية بمجرده، فإن عبّاد الأصنام كانوا مقرِّين بأن الله وحده خالق كل شيء وربه ومليكه، ولكن لما لم يأتوا بتوحيد الألوهية وهو عبادته وحده لا شريك له، لم ينفعهم توحيد ربوبيته.

وقالت طائفة: الصبر بالله أكمل بل لا يمكن الصبر له إلا بالصبر به، كما قال تعالى: ﴿واصبرْ﴾ فأَمَره بالصبر، والمأمور به هو الذي يفعل لأجله، ثم قال: ﴿وما صبرُك إلا بالله﴾. فهذه جملة خبرية غير الجملة الطلبية التي تقدمتها، أخبر فيها أنه لا يمكنه الصبر إلا به، وذلك يتضمن أمرين: الاستعانة به والمعية الخاصة التي تدل عليها باء المصاحبة كقوله: «فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي» وليس المراد بهذه الباء الاستعانة، فإن هذا أمر مشترك بين المطيع والعاصي، فإن ما لا يكون بالله لا يكون، بل هي باء المصاحبة والمعية التي صرح بمضمونها في قوله: ﴿إنَّ الله مع الصابرين﴾، وهي المعية الحاصلة لعبده الذي تقرب إليه بالنوافل حتى صار محبوباً له، فبه يسمع وبه يبصر، وكذلك به يصبر فلا يتحرك ولا يسكن ولا يدرك إلا والله معه، ومن كان كذلك أمكنه الصبر له وتحمل الأثقال لأجله، كما في الأثر الإلٰهي يعني «وما يتحمل المتحملون من أجلي»، فدل قوله: ﴿وما صبرُك إلا بالله﴾ على أنه من لم يكن الله معه لم يمكنه الصبر، وكيف يصبر على الحكم الأمري امتثالاً وتنفيذاً وتبليغاً، وعلى الحكم القدري احتمالاً له واضطلاعاً به، من لم يكن الله معه؟. فلا يطمع في درجة الصبر المحمودِ عواقبُه من لم يكن صبره بالله، كما لا يطمع في درجة التقرب المحبوب من لم يكن سمعه وبصره وبطشه ومشيه بالله.

وهذا هو المراد من قوله: «كنتَ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها» ليس المراد أني كنت

نفس هذه الأعضاء والقوى كما يظنه أعداء الله أهل الوحدة، وأن ذات العبد هي ذات الرب، تعالى الله عن قول إخوان النصارى علواً كبيراً، ولو كان كما يظنون لم يكن فرق بين هذا العبد وغيره، ولا بين حالتي تقرُّبه إلى ربه بالنوافل وتمقُّته إليه بالمعاصي، بل لم يكن هناك متقرِّب ومتقرَّب إليه، ولا عبد ولا معبود؛ ولا محب ولا محبوب، فالحديث كله مكذب لدعواهم الباطلة من نحو ثلاثين وجهاً تعرف بالتأمل الظاهر. وقد فسر المراد من قوله: «كنت سمعه وبصره ويده ورجله» بقوله: «فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي» فعبر عن هذه المصاحبة التي حصلت بالتقرب إليه بمحابه بألطف عبارة وأحسنها تدل على تأكد المصاحبة ولزومها حتى صار له بمنزلة سمعه وبصره ويده ورجله.

ونظير هذا قوله: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن صافحه وقبَّله فكأنما صافح الله وقبّل يمينه».

ومثل هذا سائغ في الاستعمال أن ينزل إلى منزلة ما يصاحبه ويقارنه حتى يقول المحب للمحبوب أنت روحي وسمعي وبصري، وفي ذلك معنيان: أحدهما أنه صار منه بمنزلة روحه وقلبه وسمعه وبصره. والثاني أن محبته وذكره لما استولى على قلبه وروحه صار معه وجليسه، كما في الحديث: «يقول الله تعالى: أنا جليس من ذكرني»، وفي الحديث الآخر: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»، وفي الحديث: «فإذا أحببت عبدي كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً» ولا يعبر عن هذا المعنى بأتم من هذه العبارة ولا أحسن ولا ألطف منها، وإيضاح هذه العبارة مما يزيدها جفاءً وخفاءً.

والمقصود إنما هو ذكر الصبر بالله، وأن العبد بحسب نصيبه من معية الله له يكون صبره، وإذا كان الله معه أمكن أن يأتي من الصبر بما لا يأتي به غيره. قال أبو علي: «فاز الصابرون بعز الدارين، لأنهم نالوا من الله معيته»، قال تعالى: ﴿إنَّ اللَّهَ مع الصابرين﴾.

وها هنا سر بديع وهو أن من تعلق بصفة من صفات الرب تعالى أدخلته تلك الصفة عليه وأوصلته إليه، والرب تعالى هو الصبور، بل لا أحد أصبر على أذى سمعه منه، وقد قيل: إن الله سبحانه أوحى إلى داود «تخلق بأخلاقي فإن من أخلاقي أني أنا الصبور» والرب تعالى يحب أسماءه وصفاته، ويحب مقتضى صفاته وظهور آثارها في العبد فإنه جميل يحب الجمال، عفو يحب أهل العفو، كريم يحب أهل الكرم، عليم يحب أهل العلم، وتر يحب أهل الوتر، قوي والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف، صبور يحبّ الصابرين، شكور يحب الشاكرين، وإذا كان سبحانه يحب المتصفين بآثار صفاته فهو معهم بحسب نصيبهم من هذا الاتصاف، فهذه المعية الخاصة عبر عنها بقوله: «كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً».

فصل: وزاد بعضهم قسمًا ثالثاً من أقسام الصبر، وهو الصبر مع الله، وجعلوه أعلى أنواع الصبر، وقالوا: هو الوفاء، ولو سئل هذا عن حقيقة الصبر مع الله لما أمكنه أن يفسره بغير الأنواع الثلاثة التي ذكرت، وهي الصبر على أقضيته، والصبر على أوامره، والصبر عن نواهيه، فإن زعم أن الصبر مع الله هو الثبات معه على أحكامه يدور معها حيث دارت فيكون دائمًا مع الله لا مع نفسه، فهو مع الله بالمحبة والموافقة، فهذا المعنى حق ولكن مداره على الصبر على الأنواع المتقدمة، وإن زعم أن الصبر مع الله هو الجامع لأنواع الصبر، فهذا حق ولكنْ جعلُه قسمًا رابعاً من أقسام الصبر غيرُ مستقيم.

واعلم أن حقيقة الصبر مع الله هو ثبات القلب بالاستقامة معه، وهو أن لا يروغ عنه روغان الثعالب هاهنا وهاهنا، فحقيقة هذا هو الاستقامة إليه وعكوف القلب عليه. وزاد بعضهم قسماً آخر من أقسامه وسماه الصبر فيه، وهذا أيضاً غير خارج عن أقسام الصبر المذكورة، ولا يعقل من الصبر فيه معنى غير الصبر له. وهذا كما يقال فعلت هذا في الله وله، كما قال خبيب:

وذلك في ذاتِ الإلّه وإن يشأْ   يباركْ على أوصال شِلْوٍ ممزّع(١)

وقد قال تعالى: ﴿والذين جاهدُوا فينا لنهدينَّهم سُبلنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقال: ﴿وجاهِدُوا في الله﴾ [الحج: ٧٨] وفي حديث جابر: «إن الله تعالى لما أحيا أباه وقال له: تمنّ! قال: يا رب أن ترجعني إلى الدنيا حتى أُقتل فيك مرة ثانية»، وقال ﷺ: «ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد» وهذا يفهم منه معنيان: أحدهما: أن ذلك في مرضاته وطاعته وسبيله، وهذا فيما يفعله الإنسان باختياره، كما في الحديث: «تعلمت فيك العلم». والثاني أنه بسببه وبجهته حصل ذلك، وهذا فيما يصيبه بغير اختياره وغالب ما يأتي قولهم «ذلك في الله» في هذا المعنى، فتأمل قوله ﷺ: «ولقد أوذيت في الله» وقول خبيب: «وذلك في ذات الإلّه»، وقول عبدالله بن خزام: «حتى أقتل فيك»، وكذلك قوله: ﴿والذين جاهدوا فينا﴾ فإنه يترتب عليه الأذى فيه سبحانه.

وليست (في) هاهنا للظرفية ولا لمجرد السببية وإن كانت السببية هي أصلها، فانظر إلى قوله: «في نفس المؤمن مائة من الإبل» وقوله: «دخلت امرأة النار في هرة» كيف تجد فيه معنى زائداً على السببية، وليست (في) للوعاء في جميع معانيها، فقولك: «فعلت هذا في مرضاتك» فيه معنى زيد على قولك: «فعلته لمرضاتك» وأنت إذا قلت: «أوذيت في الله» لا يقوم مقام هذا اللفظ كقولك «أوذيت لله» ولا «بسبب الله» وإذا فهم المعنى طوي حكم العبارة، والمقصود أن الصبر في الله إن أريد به هذا المعنى فهو حق، وإن أريد به معنى خارج عن الصبر على أقضيته وعلى أوامره وعن نواهيه وله وبه لم يحصل، فالصابر في الله كالمجاهد في الله، والجهاد فيه لا يخرج عن معنى الجهاد به وله. والله الموفق.

وأما قول بعضهم: «الصبر لله غناء، والصبر بالله بقاء، والصبر في

---

(١) شلو: أي عضو. وقبل هذا يقول:

ولستُ أبالي حين أُقتل مسلماً   على أيِّ جَنْبٍ كان في الله مصرعي

الله بلاء، والصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء». فكلام لا يجب التسليم لقائله لأنه ذكر ما سنح له تصوره، وإنما يجب التسليم للنقل المصدق عن القائل المعصوم، ونحن نشرح هذه الكلمات.

أما قوله: «الصبر لله غناء» فإن الصبر لله بترك حظوظ النفس ومرادها لمراد الله وهذا أشق شيء على النفس وأصعبه، فإن قطع المفازة التي بين النفس وبين الله بحيث يسير منها إلى الله شديد جداً على النفس، بخلاف السفر إلى الآخرة فإنه سهل كما قال الجنيد: «السير من الدنيا إلى الآخرة سهل، يعني على المؤمن، وهجران الخلق في جنب الحق شديد، والسير من النفس إلى الله صعب شديد، والصبر مع الله أشد».

وأما قوله: «والصبر بالله بقاء» فلأن العبد إذا كان بالله هان عليه كل شيء ويتحمل الأثقال ولم يجد لها ثقلاً، فإنه إذا كان بالله لا بالخلق ولا بنفسه كان لقلبه وروحه وجودٌ آخر وشأن آخر، غير شأنه إذا كان بنفسه وبالخلق، وبهذا الحال لا يجد عناء الصبر ولا مرارته، وتنقلب مشاق التكليف له نعيماً وقرة عين، كما قال بعض الزهاد: «عالجت قيام الليل سنة وتنعمت به عشرين سنة». ومن كانت قرة عينه في الصلاة لم يجد لها مشقة وكلفة.

وأما قوله: «والصبر في الله بلاء» فالبلاء فوق العناء، والصبر فيه فوق الصبر له وأخص منه كما تقدم، فإن الصبر فيه بمنزلة الجهاد فيه وهو أشق من الجهاد له، فكل مجاهد في الله وصابر في الله، مجاهد له وصابر له من غير عكس، فإن الرجل قد يجاهد ويصبر لله مرة ليقع عليه اسم من فعل ذلك لله، ولا يقع عليه اسم من فعل ذلك في الله، وإنما يقع على من انغمس في الجهاد والصبر ودخل الجنة.

وأما قوله: «والصبر مع الله وفاء» فلأن الصبر معه هو الثبات معه على أحكامه، ولا يزيغ القلب عن الإنابة ولا الجوارح عن الطاعة، فتعطى

المعية حقها من التوفية كما قال تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفّى﴾ أي وفّى ما أُمر به بصبره مع الله على أوامره.

وأما قوله: «والصبر عن الله جفاء» فلا جفاء أعظم ممن صبر عن معبوده وإلّهه ومولاه الذي لا مولى له سواه، ولا حياة له ولا صلاح ولا نعيم إلا بمحبته والقرب منه وإيثار مرضاته على كل شيء، فأي جفاء أعظم من الصبر عنه. وهذا معنى قول من قال: الصبر على ضد بين صبر العابدين وصبر المحبين، فصبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظاً، وصبر المحبين أحسنه أن يكون مرفوضاً كما قيل:

يبينَ يوم البَينْ أن اعتزامهَ ... على الصبر من إحدى الظنون الكواذب

وقال الآخر:

ولما دعوتُ الصبرَ بعدَك والبكا ... أجاب البكا طوعاً ولم يجبِ الصبرُ

قالوا: ويدل عليه أن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه قال: ﴿فصبرٌ جميل﴾ ورسول الله ﷺ إذا وعد وفى، ثم حمله الوجد على يوسف والشوق إليه أن قال: ﴿يا أَسَفا على يوسفَ﴾ [يوسف: ٨٤] فلم يكن عدم صبره عنه منافياً لقوله: ﴿فصبرٌ جميل﴾ فإن الصبر الجميل هو الذي لا شكوى معه، ولا تنافيه الشكوى إلى الله سبحانه وتعالى فإنه قد قال: ﴿إنما أشكو بَثِّي وحُزْني إلى الله﴾. والله تعالى أمر رسوله بالصبر الجميل وقد امتثل ما أمر به وقال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي» الحديث. وأما قول بعضهم: إن الصبر الجميل أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يُدرى من هو، فهذا من الصبر الجميل، لأن من فقده فقد الصبر الجميل، فإن ظهور أثر المصيبة على العبد مما لا يمكن دفعه البتة، وبالله التوفيق.

وزاد بعضهم في الصبر قسماً آخر وسماه الصبر على الصبر وقال: هو أن يستغرق في الصبر حتى يعجز الصبر عن الصبر، كما قيل:

صابرَ الصبرَ فاستغاثَ به الصبرُ ... فصاحَ المحبُّ بالصبر صبرًا

وليس هذا خارجاً عن أقسام الصبر، وإنما هو المرابطة على الصبر والثبات عليه، والله أعلم.

الباب الحادي عشر

في الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام

كل أحد لا بد أن يصبر على بعض ما يكره، إما اختياراً وإما اضطراراً، فالكريم يصبر اختياراً لعلمه بحسن عاقبة الصبر، وأنه يُحمد عليه، ويُذم على الجزع، وأنه إن لم يصبر لم يرد الجزع عليه فائتاً، ولم ينتزع عنه مكروهاً، وأن المقدور لا حيلة في دفعه، وما لم يُقْدر لا حيلة في تحصيله، فالجزع ضرُّهُ أقرب من نفعه، قال بعض العقلاء: «العاقل عند نزول المصيبة يفعل ما يفعله الأحمق بعد شهر» كما قيل:

وأنَّ الأمـرَ يُفضى إلى آخر فـيـصـيرُ آخـرُه أولاً

فإذا كان آخر الأمر الصبر والعبد غير محمود، فما أجدر به أن يستقبل الأمر في أوله بما يستدبره الأحمق في آخره، وقال بعض العقلاء: من لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم. فالكريم ينظر إلى المصيبة فإن رأى الجزع يردها ويدفعها فهذا قد ينفعه الجزع، وإن كان الجزع لا ينفعه فإنه يجعل المصيبة مصيبتين.

فصل: وأما اللئيم فإنه يصبر اضطراراً فإنه يحوم حول ساحة الجزع فلا يراها تجدي عليه شيئاً فيصبر صبر الموثق للضرب، وأيضاً فالكريم يصبر في طاعة الرحمن، واللئيم يصبر في طاعة الشيطان، فاللئام أصبر الناس في طاعة أهوائهم وشهواتهم وأقل الناس صبراً في طاعة ربهم، فيصبر على البذل في طاعة الشيطان أتم صبر، ولا يصبر على البذل في طاعة الله في أيسر شيء، ويصبر على تحمل المشاق لهوى نفسه في مرضاة عدوه، ولا يصبر على أدنى المشاق في مرضاة ربه، ويصبر على ما يقال في عرضه في

المعصية، ولا يصبر على ما يقال في عرضه إذا أوذي في الله بل يفرّ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خشية أن يُتكلم في عرضه في ذات الله، ويبذل عرضه في هوى نفسه ومرضاته صابراً على ما يقال فيه، وكذلك يصبر على التبذل بنفسه وجاهه في هوى نفسه ومراده، ولا يصبر على التبذل لله في مرضاته وطاعته، فهو أصبر شيء على التبذل في طاعة الشيطان ومراد النفس، وأعجز شيء عن الصبر على ذلك في الله، وهذا أعظم اللؤم، ولا يكون صاحبه كريماً عند الله، ولا يقوم مع أهل الكرم إذا نودي بهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد؛ ليعلم أهل الجمع من أولى بالكرم اليوم، أين المتقون.

الباب الثاني عشر
في الأسباب التي تعين على الصبر

لما كان الصبر مأموراً به جعل الله سبحانه له أسباباً تعين عليه وتوصل إليه، وكذلك ما أمر الله سبحانه بالأمر إلا أعان عليه ونصب له أسباباً تمده وتعين عليه، كما أنه ما قدر داءً إلا وقدر له دواء وضمن الشفاء باستعماله، فالصبر وإن كان شاقاً كريهاً على النفوس فتحصيله ممكن، وهو يتركب من مفردين: العلم والعمل، فمنهما تركب جميع الأدوية التي تُداوى بها القلوب والأبدان، فلا بد من جزء علمي وجزء عملي، فمنهما يركب هذا الدواء الذي هو أنفع الأدوية. فأما الجزء العلمي فهو إدراك ما في المأمور من الخير والنفع واللذة والكمال، وإدراك ما في المحظور من الشر والضر والنقص، فإذا أدرك هذين العِلْمَين كما ينبغي أضاف إليهما العزيمة الصادقة والهمة العالية والنخوة والمروءة الإنسانية، وضم هذا الجزء إلى هذا الجزء، فمتى فعل ذلك حصل له الصبر وهانت عليه مشاقه، وحَلَتْ له مرارته وانقلب ألمه لذةً، وقد تقدم أن الصبر مصارعة باعث العقل والدين لباعث الهوى والنفس، وكل متصارعين أراد أن يتغلب أحدهما على الآخر فالطريق فيه تقوية من أراد أن تكون الغلبة له ويضعف الآخر، كالحال مع

القوة والمرض سواء؛ فإذا قوي باعث شهوة الوقاع المحرم وغلب بحيث لا يملك معها فرجه، أو يملكه ولكن لا يملك طرفه، أو يملكه ولكن لا يملك قلبه؛ بل لا يزال يحدثه بما هناك وبعده ويمنيه ويصرفه عن حقائق الذكر والتفكر فيما ينفعه في دنياه وآخرته، فإذا عزم على التداوي ومقاومة هذا الداء فليضعفه أولاً بأمور:

أحدها: أن ينظر إلى مادة قوة الشهوة فيجدها من الأغذية المحركة للشهوة، إما بنوعها أو بكميتها وكثرتها، ليحسم هذه المادة بتقليلها، فإن لم تنحسم فليبادر إلى الصوم فإنه يضعف مجاري الشهوة ويكسر حدتها؛ ولا سيما إذا كان أكله وقت الفطر معتدلاً.

الثاني: أن يجتنب محرك الطلب وهو النظر، فليقصر لجام طرفه ما أمكنه؛ فإن داعي الإرادة والشهوة إنما يهيج بالنظر، والنظر يحرك القلب بالشهوة؛ وفي المسند عنه ﷺ: «النظر سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس». وهذا السهم يشرده إبليس نحو القلب ولا يصادف جُنّة[1] دونه؛ وليست الجنة إلا غض الطرف أو التحيز والانحراف عن جهة الرمي؛ فإنه إنما يرمي هذا السهم عن قوس الصور، فإذا لم تقف على طريقها أخطأ السهم، وإن نصبت قلبك عرضاً فيوشك أن يقتله سهم من تلك السهام المسمومة.

الثالث: تسلية النفس بالمباح المعوض عن الحرام؛ فإن كل ما يشتهيه الطبع ففيما أباحه الله سبحانه غنية عنه، وهذا هو الدواء النافع في حق أكثر الناس، كما أرشد إليه النبي ﷺ فالدواء الأول يشبه قطع العلف عن الدابة الجموح، وعن الكلب الضاري لإضعاف قوتها. والدواء الثاني يشبه تغييب اللحم عن الكلب، والشعير عن البهيمة؛ لئلا تتحرك قوتها له عند المشاهدة، والدواء الثالث يشبه إعطاؤهما من الغذاء ما يميل إليه طبعهما

---

(١) جُنّة: سترة ووقاية.

بحسب الحاجة لتبقى معه القوة فتطيع صاحبها؛ ولا تغلب بإعطائها الزيادة على ذلك.

الرابع: التفكر في المفاسد الدنيوية المتوقعة من قضاء هذا الوطر، فإنه لو لم يكن جنة ولا نار لكان في المفاسد الدنيوية ما ينهى عن إجابة هذا الداعي، ولو تكلفنا عدها لفاقت الحصر، ولكن عين الهوى عمياء.

الخامس: الفكرة في مقابح الصورة التي تدعوه نفسه إليها إن كانت معروفة بالإجابة له ولغيره؛ فيعز نفسه أن يشرب من حوض ترده الكلاب والذئاب، كما قيل:

سأتركُ وصلَكم شَرَفاً وعِزّاً ... لخسّةِ سائرِ الشركاءِ فيه

وقال آخر:

إذا كثرَ الذبابُ على طعامٍ ... رفعتُ يدي ونفسي تشتهيه
وتجتنبُ الأسودُ ورودَ ماءٍ ... إذا كان الكلابُ يَلُغْنَ فيه

وليذكر مخالطة ريقه لريق كل خبيث ريقه الداء الدوي، فإن ريق الفاسق داء، كما قيل:

تسلَّ يا قلب عن سمح بمهجته ... مبذل كل ما يلقاه يقرفه
كالماء أيّ صيدٍ يأتيه ينهلُه ... والغصنُ أيّ نسيم مسَّ يعطفه
وإن حلا ريقٌ فاذكرْ مرارتَه ... في فم أبخَرَ يحفيه ويرشفُه

ومن له أدنى مروءة نخوة يأنف لنفسه من مواصلة من هذا شأنه، فإن لم تجبه نفسه إلى الإعراض ورضي بالمشاركة فلينظر إلى ما وراء هذا اللون والجمال الظاهر من القبائح الباطنة، فإن من مَكَّنَ نفسه من فعل القبائح فنفسه أقبح من نفوس البهائم، فإنه لا يرضى لنفسه بذلك حيوان من الحيوانات أصلاً إلا ما يحكى عن الخنزير، وأنه ليس في البهائم لوطي سواه، فقد رضي هذا الممكن من نفسه أنه يكون بمنزلة الخنزير. وهذا

القبح يغطي كل جمال وملاحة في الوجه والبدن، غير أن حبك الشيء يعمي ويصم، وإن كانت الصورة أنثى فقد خانت الله ورسوله وأهلها وبعلها ونفسها وأورثت ذلك لمن بعدها من ذريتها فلها نصيب من وزرهم وعارهم، ولا نسبة لجمال صورتها إلى هذا القبح البتة، وإذا أردت معرفة ذلك فانظر إلى القبح الذي يعلو وجه أحدهما في كبره، وكيف يقلب الله سبحانه تلك المحاسن مقابح حتى تعلو الوحشة والقبح وجهه، كما قيل شعراً:

لو فكَّرَ العاشقُ في منتهى   حسن الذي يسبيه لم يسبه

وتفصيل هذه الوجوه يطول جداً فيكفي ذكر أصولها.

فصل: وأما تقوية باعث الدين فإنه يكون بأمور:

أحدها: إجلال الله تبارك وتعالى أن يُعصى وهو يَرى ويَسمع، ومن قام بقلبه مشهد إجلاله لم يطاوعه قلبه لذلك البتة.

الثاني: مشهد محبته سبحانه فيترك معصيته محبة له، فإن المحب لمن يحب مطيع، وأفضل الترك ترك المحبين، كما أن أفضل الطاعة طاعة المحبين، فبين ترك المحب وطاعته وترك من يخاف العذاب وطاعته بون بعيد.

الثالث: مشهد النعمة والإحسان فإن الكريم لا يقابل بالإساءة من أحسن إليه، وإنما يفعل هذا لئام الناس، فليمنعه مشهد إحسان الله تعالى ونعمته عن معصيته حياء منه أن يكون خير الله وإنعامه نازلاً إليه، ومخالفاته ومعاصيه وقبائحه صاعدة إلى ربه، فملك ينزل بهذا، وملك يعرج بذاك، فأقبح بها من مقابلة.

الرابع: مشهد الغضب والانتقام، فإن الرب تعالى إذا تمادى العبد في معصيته غضب، وإذا غضب لم يقم لغضبه شيء، فضلاً عن هذا العبد الضعيف.

الخامس: مشهد الفوات وهو ما يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة، وما يحدث له بها من كل اسم مذموم عقلاً وشرعاً وعرفاً، ويزول عنه من الأسماء الممدوحة شرعاً وعقلاً وعرفاً، ويكفي في هذا المشهد مشهد فوات الإيمان الذي أدنى مثقال ذرة منه خير من الدنيا وما فيها أضعافاً مضاعفة، فكيف أن يبيعه بشهوة تذهب لذاتها وتبقى تبعتها، تذهب الشهوة وتبقى الشقوة، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن». قال بعض الصحابة: ينزع منه الإيمان حتى يبقى على رأسه مثل الظلَّة، فإن تاب رجع إليه. وقال بعض التابعين: ينزع عنه الإيمان كما ينزع القميص، فإن تاب لبسه، ولهذا روي عن النبي ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري: «الزناة في التنور عراة» لأنهم تعروا من لباس الإيمان، وعاد تنور الشهوة الذي كان في قلوبهم تنوراً ظاهراً يُحمى عليه في النار.

السادس: مشهد القهر والظفر، فإن قهر الشهوة والظفر بالشيطان له حلاوة ومسرة وفرحة عند من ذاق ذلك أعظم من الظفر بعدوه من الآدميين وأحلى موقعاً وأتم فرحة، وأما عاقبته فأحمد عاقبة، وهو كعاقبة شرب الدواء النافع الذي أزال داء الجسد وأعاده إلى صحته واعتداله.

السابع: مشهد العوض، وهو ما وعد الله سبحانه من تعويض مَن ترك المحارم لأجله ونهى نفسه عن هواها، وليوازنه بين العوض والمعوض، فأيهما كان أولى بالإيثار اختاره وارتضاه لنفسه.

الثامن: مشهد المعية وهو نوعان: معية عامة ومعية خاصة، فالعامة اطلاع الرب عليه وكونه بعينه لا تخفى عليه حاله، وقد تقدم هذا، والمقصود هنا المعية الخاصة كقوله: ﴿إن الله مع الصابرين﴾ وقوله: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ وقوله: ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾ فهذه المعية الخاصة خير وأنفع في دنياه وآخرته ممن قضى وطره ونال شهوته على التمام من أول عمره إلى آخره، فكيف يؤثر عليها لذة

منغصة منكدة في مدة يسيرة من العمر؟ إنما هي كأحلام نائم أو كظل زائل.

التاسع: مشهد المغافصة[1] والمعاجلة، وهو أن يخاف أن يغافصه الأجل فيأخذه الله على غرة، فيحال بينه وبين ما يشتهي من لذات الآخرة، فيا لها من حسرة ما أمرَّها وما أصعبها، لكن ما يعرفها إلا من جربها، وفي بعض الكتب القديمة: يا من لا يأمن على نفسه طرفة عين ولا يتم له سرور يوم، الحذر الحذر.

العاشر: مشهد البلاء والعافية فإن البلاء في الحقيقة ليس إلا الذنوب وعواقبها والعافية المطلقة هي الطاعات وعواقبها، فأهل البلاء هم أهل المعصية وإن عوفيت أبدانهم، وأهل العافية هم أهل الطاعة وإن مرضت أبدانهم، وقال بعض أهل العلم في الأثر المروي: إذا رأيتم أهل البلاء فاسألوا الله العافية، فإن أهل البلاء المبتلون بمعاصي الله والإعراض والغفلة عنه، وهذا وإن كان أعظم البلاء فاللفظ يتناول أنواع المبتلين في أبدانهم وأديانهم، والله أعلم.

الحادي عشر: أن يعوِّد باعث الدين ودواعيه مصارعة داعي الهوى ومقاومته على التدريج قليلاً قليلاً حتى يدرك لذة الظفر، فتقوى حينئذ همته، فإن من ذاق لذة شيء قويت همته في تحصيله، والاعتياد لممارسة الأعمال الشاقة تزيد القوى التي تصدر عنها تلك الأعمال، ولذلك تجد قوى الحمالين وأرباب الصنائع الشاقة تتزايد بخلاف البزاز والخياط ونحوهما، ومن ترك المجاهدة بالكلية ضعف فيه باعث الدين وقوي فيه باعث الشهوة، ومتى عود نفسه مخالفة الهوى غلبه متى أراد.

الثاني عشر: كف الباطن عن حديث النفس، وإذا مرت به الخواطر نفاها ولا يؤويها ويساكنها فإنها تصير أماني، وهي رؤوس أموال المفاليس،

---

(١) المغافصة: من غافص: الأخذ على غِرّة.

ومتى ساكن الخواطر صارت أماني، ثم تقوى فتصير هموماً، ثم تقوى فتصير إرادات، ثم تقوى فتصير عزماً يقترن به المُراد، فدفع الخاطر الأول أسهل وأيسر من دفع أثر المقدور بعد وقوعه وترك معاودته.

الثالث عشر: قطع العلائق والأسباب التي تدعوه إلى موافقة الهوى. وليس المراد أن لا يكون له هوى، بل المراد أن يصرف هواه إلى ما ينفعه، ويستعمله في تنفيذ مراد الرب تعالى، فإن ذلك يدفع عنه شر استعماله في معاصيه، فإن كل شيء من الإنسان يستعمله لله، فإن الله يقيه شر استعماله لنفسه وللشيطان، وما لا يستعمله لله استعمله لنفسه وهواه ولا بد. فالعلم إن لم يكن لله كان للنفس والهوى، والعمل إن لم يكون لله كان للرياء والنفاق، والمال إن لم ينفق في طاعة الله أنفق في طاعة الشيطان والهوى، والجاه إن لم يستعمله صاحبه في مرضاة الله استعمله في هواه وحظوظه، والقوة إن لم يستعملها في أمر الله استعملته في معصيته، فمن عوَّد نفسه العمل لله لم يكن عليه أشق من العمل لغيره، ومن عوَّد نفسه العمل لهواه وحظه لم يكن عليه أشق من الإخلاص والعمل لله، وهذا في جميع أبواب الأعمال، فليس شيء أشق على المنفق لله من الإنفاق لغيره وكذا بالعكس.

الرابع عشر: صرف الفكر إلى عجائب آيات الله التي ندب عباده إلى التفكر فيها، وهي آياته المتلوة وآياته المجلوة، فإذا استولى ذلك على قلبه دفع عنه محاظرة الشيطان ومحادثته ووسواسه، وما أعظم غبن من أمكنه أن لا يزال محاظراً للرحمن وكتابه ورسوله والصحابة، فرغب عن ذلك إلى محاظرة الشيطان من الإنس والجن، فلا غبن بعد هذا الغبن والله المستعان.

الخامس عشر: التفكر في الدنيا وسرعة زوالها وقرب انقضائها، فلا يرضى لنفسه أن يتزود منها إلى دار بقائه وخلوده أخس ما فيها وأقله نفعاً إلا ساقط الهمة دنيء المروءة ميت القلب، فإن حسرته تشتد إذا عاين حقيقة ما تزوده وتبين له عدم نفعه له، فكيف إذا كان ترك تزود ما ينفعه إلى زاد

يعذب به ويناله بسببه غاية الألم، بل إذا تزود ما ينفعه وترك ما هو أنفع منه له كان ذلك حسرة عليه وغبناً.

السادس عشر: تعرّضه إلى مَن القلوب بين أُصْبُعَيه وأزِمَّة الأمور بيديه، وانتهاء كل شيء إليه على الدوام، فلعله أن يصادف أوقات النفحات، كما في الأثر المعروف: «إن لله في أيام دهره نفحات، فتعرضوا لنفحاته، واسألوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم». ولعله في كثرة تعرضه أن يصادف ساعة من الساعات التي لا يسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه، فمن أعطي منشور الدعاء أعطي الإجابة، فإنه لو لم يرد إجابته لما ألهمه الدعاء، كما قيل:

لو لم تردْ نيلَ ما أرجو وأطلبُه   من جودِ كَفِّكَ ما عودتني الطلبا

ولا يستوحش من ظاهر الحال فإن الله سبحانه يعامل عبده معاملة من ليس كمثله شيء في أفعاله كما ليس كمثله شيء في صفاته، فإنه ما حرمه إلا ليعطيه، ولا أمرضه إلا ليشفيه، ولا أفقره إلا ليغنيه، ولا أماته إلا ليحييه، وما أخرج أبويه من الجنة إلا ليعيدهما إليها على أكمل حال، كما قيل: «يا آدم لا تجزع من قولي لك: واخرج منها. فلك خلقتها وسأعيدك إليها».

فالرب تعالى ينعم على عبده بابتلائه، ويعطيه بحرمانه، ويصحبه بسقمه، فلا يستوحش عبده من حالة تسوؤه أصلاً إلا إذا كانت تغضبه عليه وتبعده منه.

السابع عشر: أن يعلم العبد بأن فيه جاذبين متضادين ومحنته بين الجاذبين. جاذب يجذبه إلى الرفيق الأعلى من أهل عليين، وجاذب يجذبه إلى أسفل سافلين، فكلما انقاد مع الجاذب الأعلى صعد درجة حتى ينتهي إلى حيث يليق به من المحل الأعلى، وكلما انقاد إلى الجاذب الأسفل نزل حتى ينتهي إلى موضعه من سجين. ومتى أراد أن يعلم هل هو مع الرفيق

الأعلى أو الأسفل، فلينظر أين روحه في هذا العالم فإنها إذا فارقت البدن تكون في الرفيق الأعلى الذي كانت تجذبه إليه في الدنيا، فهو أولى بها، فالمرء مع من أحب طبعاً وعقلاً وجزاءً، وكل مهتم بشيء فهو منجذب إليه وإلى أهله بالطبع، وكل امرىء يصبو إلى ما يناسبه وقد قال تعالى: ﴿ قلْ كلٌّ يعملُ على شاكلتِهِ ﴾ [الإسراء: ٨٤]، فالنفوس العلوية تنجذب بذاتها وهمها وأعمالها إلى أعلى، والنفوس السافلة إلى أسفل.

الثامن عشر: أن يعلم العبد أن تفريغ المحل شرط لنزول غيث الرحمة، وتنقيته من الدغل شرط لكمال الزرع، فمتى لم يفرغ المحل لم يصادف غيثُ الرحمة محلاً قابلاً ينزل فيه، وإن فرغه حتى أصابه غيث الرحمة، ولكنه لم ينقِّه من الدغل لم يكن الزرع زرعاً كاملاً، بل ربما غلب الدغل على الزرع فكان الحكم له، وهذا كالذي يصلح أرضه ويهيئها لقبول الزرع ويُودع فيها البذور وينتظر نزول الغيث، فإذا طهَّر العبد قلبهُ وفرَّغه من إرادة السوء وخواطره، وبذر فيه بذر الذكر والفكر والمحبة والإخلاص، وعرَّضه لمهاب رياح الرحمة، وانتظر نزول غيث الرحمة في أوانه كان جديراً بحصول المغل، وكما يقوى الرجاء لنزول الغيث في وقته، كذلك يقوى الرجاء لإصابة نفحات الرحمن جل جلاله في الأوقات الفاضلة والأحوال الشريفة، ولا سيما إذا اجتمعت الهمم وتساعدت القلوب وعظم الجمع كجمع عرفة وجمع الاستسقاء وجمع أهل الجمعة، فإن اجتماع الهمم والأنفاس أسباب نصبها الله تعالى مقتضية لحصول الخير ونزول الرحمة، كما نصب سائر الأسباب مقتضية إلى مسبباتها، بل هذه الأسباب في حصول الرحمة أقوى من الأسباب الحسية في حصول مسبباتها، ولكن العبد بجهله يغلب عليه الشاهد على الغائب الحسن، وبظلمه يؤثر ما يحكم به هذا ويقتضيه على ما يحكم به الآخر ويقتضيه، ولو فرغ العبد المحل وهيأه وأصلحه لرأى العجائب، فإن فضل الله لا يردّه إلا المانع الذي في العبد، فلو زال ذلك المانع لسارع إليه الفضل من كل صوب، فتأمل حال نهر

عظيم يسقي كل أرض يمر عليها فحصل بينه وبين بعض الأرض المعطشة المجدبة سِكْرٌ وسد كثيف، فصاحبُها يشكو الجدب والنهر إلى جانب أرضه.

التاسع عشر: أن يعلم العبد أن الله سبحانه خلقه لبقاءٍ لا فناء له، ولعز لا ذل معه، وأمن لا خوف فيه، وغناء لا فقر معه، ولذة لا ألم معها، وكمال لا نقص فيه، وامتحنه في هذه الدار بالبقاء الذي يسرع إليه الفناء، والعز الذي يقارنه الذل ويعقبه الذل، والأمن الذي معه الخوف وبعده الخوف. وكذلك الغناء واللذة والفرح والسرور والنعيم الذي هنا مشوب بضده، لأنه يتعقبه ضده وهو سريع الزوال، فغلط أكثر الخلق في هذا المقام إذ طلبوا النعيم والبقاء والعز والملك والجاه في غير محله ففاتهم في محله، وأكثرهم لم يظفر بما طلبه من ذلك، والذي ظفر به إنما هو متاع قليل والزوال قريب فإنه سريع الزوال عنه؛ والرسل صلوات الله وسلامه عليهم إنما جاؤوا بالدعوة إلى النعيم المقيم والملك الكبير، فمن أجابهم حصل له ألذ ما في الدنيا وأطيبه، فكان عيشه فيها أطيب من عيش الملوك فمن دونهم، فإن الزهد في الدنيا ملك حاضر، والشيطان يحسد المؤمن عليه أعظم حسد، فيحرص كل الحرص على أن لا يصل إليه، فإن العبد إذا ملك شهوته وغضبه فانقادا معه لداعي الدين فهو المَلِك حقاً، لأن صاحب هذا المُلك حر، والمِلك المنقاد لشهوته وغضبه عبد شهوته وغضبه، فهو مسخر مملوك في زي مالك يقوده زمام الشهوة والغضب كما يقاد البعير، فالمغرور المخدوع يقطع نظره على الملك الظاهر الذي صورته ملك وباطنه رق، وعلى الشهوة التي أولها لذة وآخرها حسرة، والبصير الموفق يعبر نظره من الأوائل إلى الأواخر، ومن المبادىء إلى العواقب، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

العشرون: أن لا يغتر العبد باعتقاده أن مجرد العلم بما ذكرنا كاف في حصول المقصود، بل لا بد أن يضيف إليه بذل الجهد في استعماله، واستفراغ الوسع والطاقة فيه، وملاك ذلك الخروج عن العوائد فإنها أعداء

الكمال والفلاح، فلا أفلح من استمر مع عوائده أبداً. ويستعين على الخروج عن العوائد بالهرب عن مظان الفتنة والبعد عنها ما أمكنه، وقد قال النبي ﷺ: «ومن سمعَ بالدجال فلينأ عنه» فما استعين على التخلص من الشر بمثل البعد عن أسبابه ومظانه.

وها هنا لطيفة للشيطان لا يتخلص منها إلا حاذق، وهي أن يظهر له في مظان الشر بعض شيء من الخير ويدعوه إلى تحصيله، فإذا قرب منه ألقاه في الشبكة، والله أعلم.

الباب الثالث عشر

في بيان أن الإنسان لا يستغني عن الصبر في حال من الأحوال

فإنه بين أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه، ونهي يجب عليه اجتنابه وتركه، وقَدَرٍ يجري عليه اتفاقاً، ونعمة يجب عليه شكر المنعم عليها، وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه فالصبر لازم له إلى الممات، وكل ما يلقى العبد في هذه الدار لا يخلو من نوعين: أحدهما يوافق هواه ومراده، والآخر يخالفه، وهو محتاج إلى الصبر في كل منهما. أما النوع الموافق لغرضه فكالصحة والسلامة والجاه والمال وأنواع الملاذ المباحة، وهو أحوج شيء إلى الصبر فيها من وجوه:

أحدها: أن لا يركن إليها ولا يغتر بها، ولا تحمله على البطر والأشر والفرح المذموم الذي لا يحب الله أهله.

الثاني: أن لا ينهمك في نيلها ويبالغ في استقصائها، فإنها تنقلب إلى أضدادها، فمن بالغ في الأكل والشرب والجماع انقلب ذلك إلى ضده، وحرم الأكل والشرب والجماع.

الثالث: أن يصبر على أداء حق الله فيها ولا يضيعه فيسلبها.

الرابع: أن يصبر عن صرفها في الحرام، فلا يمكن نفسه من كل ما

تريده منها فإنها توقعه في الحرام، فإن احترز كل الاحتراز أوقعته في المكروه، ولا يصبر على السراء إلا الصِّدِّيقون.

قال بعض السلف: البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا الصديقون، وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: «ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر». ولذلك حذَّر الله عباده من فتنة المال والأزواج والأولاد، فقال تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أموالُكُم ولا أولاَدُكُم عن ذِكْر الله ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿ يَا أيها الَّذين آمنوا إنَّ من أزوَاجِكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ﴾ [التغابن: ١٤]. وليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس أنها عداوة البغضاء والمحادة، بل إنما هي عداوة المحبة الصادة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر، كما في جامع الترمذي من حديث إسرائيل، حدثنا سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا إن من أزواجِكُم وأولادِكُمْ عدواً لكم فاحذورهم ﴾ قال: هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة فأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله ﷺ، فلما أتوا رسول الله ورأوا الناس قد فقهوا في الدين همّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم ﴾ الآية. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده، وفي الحديث: «الولد مبخلة مجبنة»، وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، قال: حدثني زيد بن واقد، قال: حدثني عبدالله بن بريدة، قال: سمعت أبي يقول: كان رسول الله ﷺ يخطبنا، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال: «صدق الله ﴿ إنما أموالُكُم وأولادكُم فتنة ﴾ [التغابن: ١٥]. نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما». وهذا من كمال رحمته ﷺ ولطفه بالصغار وشفقته

عليهم، وهو تعليم منه للأمة الرحمة والشفقة واللطف بالصغار.

فصل: وإنما كان الصبر على السراء شديداً لأنه مقرون بالقدرة، والجائع عند غيبة الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره، وكذلك الشبق عند غيبة المرأة أصبر منه عند حضورها.

فصل: وأما النوع الثاني المخالف للهوى فلا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي، أو لا يرتبط أوله باختياره كالمصائب، أو يرتبط أوله باختياره ولكن لا اختيار له في إزالته بعد الدخول فيه، فها هنا ثلاثة أقسام:

أحدها: **ما يرتبط باختياره** وهو جميع أفعاله التى توصف بكونها طاعة أو معصية، فأما الطاعة فالعبد محتاج إلى الصبر عليها، لأن النفس بطبعها تنفر عن كثير من العبودية، أما في الصلاة فلها في طبعها من الكسل وإيثار الراحة ولا سيما إذا اتفق مع ذلك قسوة القلب ورين الذنب، والميل إلى الشهوات ومخالطة أهل الغفلة، فلا يكاد العبد مع هذه الأمور وغيرها أن يفعلها، وإن فعلها مع ذلك كان متكلفاً غائب القلب، ذاهلاً عنها طالباً لفراقها كالجالس إلى الجيفة.

وأما الزكاة فلها فيها ـ أي النفس ـ من الشح والبخل، وكذلك الحج والجهاد للأمرين جميعاً طبعاً. ويحتاج العبد ها هنا إلى الصبر في ثلاثة أحوال: أحدها قبل الشروع فيها بتصحيح النية والإخلاص، وتجنب دواعي الرياء والسمعة، وعقد العزم على توفية المأمورية حقها.

الحالة الثانية: الصبر حال العمل فيلازم العبد الصبر عن دواعي التقصير فيه والتفريط، ويلازم الصبر على استصحاب ذكر النية وعلى حضور القلب بين يدي المعبود، وأن لا ينساه في أمره، فليس الشأن في فعل المأمور بل الشأن كل الشأن أن لا ينسى الآمر حال الإتيان بأمره، بل يكون مستصحباً لذكره في أمره. فهذه عبادة العبيد المخلصين لله، فهو محتاج إلى الصبر على توفية العبادة حقها بالقيام بأدائها وأركانها وواجباتها وسننها، وإلى

الصبر على استصحاب ذكر المعبود فيها ولا يشتغل عنه بعبادته، فلا يعطله حضوره مع الله بقلبه عن قيام جوارحه بعبوديته، ولا يعطله قيام الجوارح بالعبودية عن حضور قلبه بين يديه سبحانه.

الحالة الثالثة: الصبر بعد الفراغ من العمل وذلك من وجوه:

أحدها: أن يصبر نفسه عن الإتيان بما يبطل عمله، قال تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تُبطلوا صدقاتِكم بالمن والأذى ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فليس الشأن الإتيان بالطاعة، إنما الشأن في حفظها مما يبطلها.

الثاني: أن يصبر عن رؤيتها والعجب بها والتكبر والتعظم بها، فإن هذا أضر عليه من كثير من المعاصي الظاهرة.

الثالث: أن يصبر عن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية فإن العبد يعمل العمل سراً بينه وبين الله سبحانه فيكتب في ديوان السر، فإن تحدث به نقل إلى ديوان العلانية، فلا يظن أن بساط الصبر انطوى بالفراغ من العمل.

فصل: وأما الصبر عن المعاصي فأمره ظاهر، وأعظم ما يعين عليه قطع المألوفات ومفارقة الأعوان عليها في المجالسة والمحادثة وقطع العوائد، فإن للعادة طبيعة خاصة، فإذا انضافت الشهوة إلى العادة تظاهر جندان من جند الشيطان فلا يقوى باعث الدين على قهرهما.

فصل: القسم الثاني ما لا يدخل تحت الاختيار، وليس للعبد حيلة في دفعه كالمصائب التي لا صنع للعبد فيها، كموت من يعز عليه، وسرقة ماله، ومرضه ونحو ذلك، وهذا نوعان: أحدهما ما لا صنع للعبد الآدمي فيه، والثاني ما أصابه من جهة آدمي مثله كالسَّب والضرب وغيرهما. فالنوع الأول للعبد فيه أربع مقامات: أحدها مقام العجز، وهو مقام الجزع والشكوى والسخط، وهذا ما لا يفعله إلا أقل الناس عقلاً وديناً ومروءة، وهو أعظم المصيبتين.

المقام الثاني: مقام الصبر إما لله وإما للمروءة الإنسانية.

المقام الثالث: مقام الرضا، وهو أعلى من مقام الصبر، وفي وجوبه نزاع، والصبر متفق على وجوبه.

المقام الرابع: مقام الشكر، وهو أعلى من مقام الرضا، فإنه يشهد البلية نعمة فيشكر المبتلي عليها.

وأما النوع الثاني: وهو ما أصابه من قبل الناس فله فيه هذه المقامات، ويضاف إليه أربعة أخر، أحدها مقام العفو والصفح، والثاني: مقام سلامة القلب من إرادة التشفي والانتقام، وفراغه من ألم مطالعة الجناية كل وقت وضيقه بها. الثالث: مقام شهود القدر، وأنه وإن كان ظالماً بإيصال هذا الأذى إليك فالذي قدره عليك وأجراه على يد هذا الظالم ليس بظالم، وأذى الناس مثل الحر والبرد لا حيلة في دفعه، فالمتسخط من أذى الحر والبرد غير حازم، والكل جار بالقدر وإن اختلفت طرقه وأسبابه.

المقام الرابع: مقام الإحسان إلى المسيء ومقابلة إساءته بإحسانك، وفي هذا المقام من الفوائد والمصالح ما لا يعلمه إلا الله، فإن فات العبد هذا المقام العالي فلا يرضى لنفسه بأخس المقامات وأسفلها.

فصل: القسم الثالث: ما يكون وروده باختياره، فإذا تمكن لم يكن له اختيار ولا حيلة في دفعه، وهذا كالعشق أوله اختيار وآخره اضطرار، وكالتعرض لأسباب الأمراض والآلام التي لا حيلة في دفعها بعد مباشرة أسبابها، كما لا حيلة في دفع السُّكْرِ بعد تناول المُسْكِر، فهذا كان فرضه الصبر عنه في أوله، فلما فاته بقي فرضه الصبر عليه في آخره، وأن لا يطيع داعي هواه ونفسه، وللشيطان ها هنا دسيسة عجيبة، وهي أن يخيل إليه أن نيل بعض ما منع قد يتعين عليه أو يباح له على سبيل التداوي، وغايته أن يكون كالتداوي بالخمر والنجاسة، وقد أجازه كثير من الفقهاء، وهذا من أعظم الجهل، فإن هذا التداوي لا يزيل الداء بل يزيده ويقويه، وكم ممن

تداوى بذلك فكان هلاك دينه ودنياه في هذا الدواء، بل الدواء النافع لهذا الداء الصبر والتقوى، كما قال تعالى: ﴿ وإن تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا فإنَّ ذلكَ من عزمِ الأمور﴾ [آل عمران: ١٨٦]. وقال: ﴿ إنه من يَتَّقِ ويصبرْ فإن اللَّهَ لا يضيعُ أجرَ المحسنين ﴾ [يوسف: ٩٠]، فالصبر والتقوى دواء كل داء من أدواء الدين، ولا يستغني أحدهما عن صاحبه.

فإن قيل: فهل يثاب على الصبر في هذا القسم إذا كان عاصياً مفرطاً يتعاطى أسبابه؟ وهل يكون معاقباً على ما تُولد منه وهو غير اختياري له؟

قيل: نعم، إذا صبر لله تعالى وندم على ما تعاطاه من السبب المحظور أثيب على صبره لأنه جهاد منه لنفسه وهو عمل صالح، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وأما عقوبته على ما تولد منه فإنه يستحق العقوبة على السبب وما تولد منه، كما يُعاقب السكران على ما جناه في حال سكره، فإذا كان السبب محظوراً لم يكن السكران معذوراً، فإن الله سبحانه يعاقب على الأسباب المحرمة وعلى ما تولد منها، كما يثيب على الأسباب المأمور بها وعلى ما يتولد منها، ولذا كان من دعا إلى بدعة وضلالة فعليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه، لأن اتباعهم تولد عن فعله، ولذلك كان على ابن آدم القاتل لأخيه كِفْلٌ من ذنبٍ كل قاتلٍ إلى يومِ القيامة، وقد قال تعالى: ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملةً يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ [النحل: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أثقالَهُم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ [العنكبوت: ١٣].

فإن قيل: فكيف التوبة من هذا المتولد وليس من فعله؟ والإنسان إنما يتوب عما يتعلق باختياره قبل التوبة منه بالندم عليه، وعدم إجابة دواعيه وموجباته وحبس النفس عن ذلك، فإن كان المتولد متعلقاً بالغير فتوبته مع ذلك برفعه عن الغير بحسب الإمكان، ولهذا كان من توبة الداعي إلى

البدعة أن يبين أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة، وأن الهدى في ضده كما شرط تعالى في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى ليضلوا الناس بذلك أن يصلحوا العمل في نفوسهم، ويبينوا للناس ما كانوا يكتمونهم إياه، فقال: ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البيناتِ والهدى من بعد ما بيَّناه للناس في الكتـاب أولئكَ يلعنُهم اللهُ ويلعنُهم اللاعنون، إلا الذين تابوا وأصلحُوا وبيَّنوا فأولئك أتوبُ عليهم وأنا التوابُ الرحيم ﴾ [البقرة: ١٥٩].

وهذا ما شرط في توبة المنافقين الذين كان ذنبهم إفساد قلوب ضعفاء المؤمنين، وتحيزهم واعتصامهم باليهود والمشركين أعداء الرسول، وإظهارهم الإسلام رياء وسمعة: أن يصلحوا بدل إفسادهم، وأن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالكفار من أهل الكتاب والمشركين، وأن يخلصوا دينهم لله بدل إظهـارهم رياء وسمعـة، فهكذا تفهم شـرائط التـوبـة وحقيقتهـا، والله المستعان.

الباب الرابع عشر
في بيان أشق الصبر على النفوس

مشقة الصبر بحسب قوة الداعي إلى الفعل وسهولته على العبد، فإذا اجتمع في الفعل هذان الأمران كان الصبر عنه أشق شيء على الصابر، وإن فقدا معاً سَهُل الصبر عنه، وإن وجد أحدهما وفقد الآخر سهل الصبر من وجه وصعب من وجه، فمن لا داعي له إلى القتل والسرقة وشرب المسكر وأنواع الفواحش، ولا هو سهل عليه، فصبره عنه من أيسر شيء وأسهله، ومن اشتد داعيه إلى ذلك وسهل عليه فعله فصبره عنه أشق شيءٍ عليه، ولهذا كان صبر السلطان عن الظلم وصبر الشاب عن الفاحشة وصبر الغني عن تناول اللذات والشهوات عند الله بمكان.

وفي المسند وغيره عن النبي ﷺ: «عجبَ ربُّك من شابٍّ ليست له

صبوة»، ولذلك استحق المذكورون في الحديث الذين يظلهم الله في ظل عرشه لكمال صبرهم ومشقته، فإن صبر الإمام المتسلط على العدل في قسمه وحكمه ورضاه وغضبه، وصبر الشاب على عبادة الله ومخالفة هواه، وصبر الرجل على ملازمة المسجد، وصبر المتصدق على إخفاء الصدقة حتى عن بعضه، وصبر المدعو إلى الفاحشة مع كمال جمال الداعي ومنصبه، وصبر المتحابين في الله على ذلك في حال اجتماعهما وافتراقهما، وصبر الباكي من خشية الله على كتمان ذلك وعدم إظهاره للناس من أشق الصبر، ولهذا كانت عقوبة الشيخ الزاني والملك الكذاب والفقير المختال أشد العقوبة لسهولة الصبر عن هذه الأشياء المحرمات عليهم لضعف دواعيها في حقهم، فكان تركهم الصبر عنها مع سهولته عليهم دليلاً على تمردهم على الله وعتوِّهم عليه.

ولهذا كان الصبر عن معاصي اللسان والفرج من أصعب أنواع الصبر لشدة الداعي إليهما وسهولتهما، فإن معاصي اللسان فاكهة الإنسان، كالنميمة والغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً، وحكاية كلام الناس والطعن على من يبغضه، ومدح من يحبه ونحو ذلك، فتتفق قوة الداعي وتيسر حركة اللسان فيضعف الصبر، ولهذا قال ﷺ لمعاذ: «أمسك عليك لسانك، فقال: «وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به»؟ فقال: «وهل يكبُّ الناسَ في النار على مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتهم»، ولا سيما إذا صارت المعاصي اللسانية معتادة للعبد فإنه يعز عليه الصبر عنها، ولهذا تجد الرجل يقوم الليل ويصوم النهار، ويتـ ـع من استناده إلى وسادة حرير لحظة واحدة، يطلق لسانه في الغيبة والنميمة والتفكه في أعراض الخلق، وربما خصَّ أهل الصلاح والعلم بالله والدين والقول على الله ما لا يعلم، وكثير ممن تجده يتورع عن الدقائق من الحرام والقطرة من الخمر، ومثل رأس الإبرة من النجاسة؛ لا يبالي بارتكاب الحرام، كما يحكى أن رجلاً خلا بامرأة أجنبية، فلما أراد مواقعتها قال: يا هذه! غطي وجهك، فإن

النظر إلى وجه الأجنبية حرام!!. وقد سأل رجل عبدالله بن عمر عن دم البعوض؟ فقال: انظروا إلى هؤلاء! يسألوني عن دم البعوض وقد قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ.

واتفق لي قريب من هذه الحكاية: كنت في حال الإحرام فأتاني قوم من الأعراب المعروفين بقتل النفوس والإغارة على الأموال يسألوني عن قتل المُحْرِم القملَ؟ فقلت: يا عجباً لقوم لا يتورعون عن قتل النفس التي حرم الله قتلَها، ويسألون عن قتل القملة في الإحرام.

والمقصود أن اختلاف شدة الصبر في أنواع المعاصي وآحادها يكون باختلاف داعيه إلى تلك المعصية في قوتها وضعفها، ويُذكر عن علي رضي الله عنه أنه قال: «الصبر ثلاثة: فصبرٌ على المصيبة، وصبرٌ على الطاعة، وصبر عن المعصية، فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة، ومن صبر على الطاعة حتى يؤديها كما أمر الله كتب الله له ستمائة درجة، ومن صبر عن المعصية خوفاً من الله ورجاءَ ما عنده كتب الله له تسعمائة درجة».

وقال ميمون بن مهران «الصبر صبران: فالصبر على المصيبة حسن، وأفضل منه الصبر عن المعصية».

وقال الفضيل في قوله تعالى: ﴿ سلامٌ عليكم بما صبرتُم ﴾ [الرعد: ٢٤]، صبروا على ما أمروا به وصبروا عما نهوا عنه. وكأنه جعل الصبر على المصيبة داخلاً في قسم المأمور به، والله أعلم.

الباب الخامس عشر

في ذكر ما ورد في الصبر من نصوص الكتاب العزيز

قال الإمام أحمد رحمه الله: «ذكر الله سبحانه الصبر في القرآن في تسعين موضعاً». ونحن نذكُر الأنواع التي سيق فيها الصبر، وهي عدة أنواع:

أحدها: الأمر به كقوله: ﴿ واصبرْ وما صبرُكَ إلاّ بالله ﴾ [النحل: ١٢٧]، ﴿ واصبرْ لحكمِ ربِّك ﴾ [الطور: ٤٨].

الثاني: النهي عما يضاده كقوله: ﴿ ولا تستعجلْ لهم ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وقوله: ﴿ ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنُوا ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. وقوله: ﴿ ولا تكنْ كصاحبِ الحوت ﴾ [القلم: ٤٨]. وبالجملة فكل ما نهى عنه فإنه يضاد الصبر المأمور به.

الثالث: تعليق الفلاح به كقوله: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتَّقُوا اللهَ لعلَّكم تُفلحون ﴾ [آل عمران ٢٠٠]، فعلق الفلاح بمجموع هذه الأمور.

الرابع: الإخبار عن مضاعفة أجر الصابرين على غيره كقوله: ﴿ أولئكَ يُؤتون أجرَهم مرتين بما صَبَرُوا ﴾ [القصص: ٥٤]. وقوله: ﴿ إنما يُوَفَّى الصابرونَ أجرَهم بغير حساب ﴾ [الزمر: ١٠]. قال سليمان ابن القاسم: «كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر» قال الله تعالى: ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾، قال: كالماء المنهمر.

الخامس: تعليق الإمامة في الدين به وباليقين، قال الله تعالى: ﴿ وجعلنا منهم أئمةً يهدونَ بأمرنا لما صَبَرُوا وكانُوا بآياتِنا يُوقنون ﴾ [السجدة: ٢٤]، فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

السادس: ظفرهم بمعية الله سبحانه لهم، قال تعالى: ﴿ إنَّ اللَّهَ مع الصابرين ﴾ [الأنفال: ٤٩]. قال أبو علي الدقاق: «فاز الصابرون بعز الدارين لأنهم نالوا من الله معيته».

السابع: أنه جمع للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم وهي الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، قال تعالى: ﴿ وبشِّر الصابرينَ الذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلواتٌ من ربِّهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون ﴾ [البقرة: ١٥٥]. وقال

بعض السلف وقد عُزِّي على مصيبة نالته، فقال: مالي لا أصبر وقد وعدني الله على الصبر ثلاث خصال كل خصلة منها خير من الدنيا وما عليها.

الثامن: أنه سبحانه جعل الصبر عوناً وعدة. وأمر بالاستعانة به، فقال: ﴿ واستعينُوا بالصبرِ والصَّلاة ﴾، [البقرة: ٤٥]، فمن لا صبر له لا عون له.

التاسع: أنه سبحانه علَّق النصر بالصبر والتقوى فقال تعالى: ﴿ بلى إنْ تصبروا وتَتَّقُوا ويأتوكُم من فورِهم هذا يُمْدِدْكُم ربُّكم بخمسةِ آلافٍ من الملائكة مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٥]. لهذا قال النبي ﷺ «واعلم أن النصر مع الصبر».

العاشر: أنه سبحانه جعل الصبر والتقوى جُنَّة عظيمة من كيد العدو ومكره فما استجنَّ العبد من ذلك جنة أعظم منهما. قال تعالى: ﴿ وإنْ تصبُروا وتَتَّقُوا لا يضرُّكم كيدهُم شيئاً ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

الحادي عشر: أنه سبحانه أخبر أن ملائكته تسلم عليهم في الجنة بصبرهم كما قال: ﴿ والملائكةُ يدخلونَ عليهم من كلِّ باب سلامٌ عليكم بما صبرتُم فنعمَ عُقبَى الدار ﴾ [الرعد: ٢٤].

الثاني عشر: أنه سبحانه أباح لهم أن يعاقبوا على ما عوقبوا به، ثم أقسم قسماً مؤكداً غاية التأكيد أن صبرهم خير لهم فقال: ﴿ وَإنْ عاقبتُم فعاقبوا بمثل ما عُوقبتُم به ولئن صبرتُم لهو خيرٌ للصابرين ﴾ [النحل: ١٢٦] فتأمل هذا التأكيد بالقَسَم المدلول عليه بالواو ثم باللام بعده ثم باللام التي في الجواب.

الثالث عشر: أنه سبحانه رتب المغفرة والأجر الكبير على الصبر والعمل الصالح فقال: ﴿ إلا الذين صَبَرُوا وعملوا الصالحاتِ أولئكَ لهم مغفرةٌ وأجرٌ كبير ﴾ [هود: ١١]. وهؤلاء ثنية[1] الله من نوع الإنسان

(١) ثنية الله: أي الذين استثناهم الله.

المذموم الموصوف باليأس والكفر عند المصيبة، والفرح والفخر عند النعمة، ولا خلاص من هذا الذم إلا بالصبر والعمل الصالح، كما لا تنال المغفرة والأجر الكبير إلا بهما.

الرابع عشر: أنه سبحانه جعل الصبر على المصائب من عزم الأمور، أي مما يعزم من الأمور التي إنما يعزم على أجلها وأشرفها فقال: ﴿ ولمن صَبَرَ وغفرَ إنَّ ذلكَ لمن عزمِ الأُمور ﴾ [الشورى: ٤٣]. وقال لقمان لابنه: ﴿ وَأْمُرْ بالمعروفِ وانهَ عنِ المنكر واصبرْ على ما أصابكَ إنَّ ذلكَ من عزم الأمور ﴾ [لقمان: ١٧].

الخامس عشر: أنه سبحانه وعد المؤمنين بالنصر والظفر، وهي كلمته التي سبقت لهم وهي الكلمة الحسنى، وأخبر أنه إنما أنالهم ذلك بالصبر، فقال تعالى: ﴿ وتمَّتْ كلمةُ ربِّك الحسنى على بني إسرائيلَ بما صَبَرُوا ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

السادس عشر: أنه سبحانه علق محبته بالصبر وجعلها لأهله فقال: ﴿ وكأيِّن من نبيٍّ قاتلَ معه رِبِّيونَ كثيرٌ، فما وَهَنُوا لِمَا أصابَهم في سبيل الله وما ضَعُفُوا وما استكانُوا واللَّهُ يُحبُّ الصابرين ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

السابع عشر: أنه سبحانه قال عن خصال الخير: إنه لا يلقاها إلا الصابرون، في موضعين من كتابه، في سورة القصص في قصة قارون، وأن الذين أوتوا العِلم قالوا للذين تمنوا مثل ما أوتي ﴿ ويلكم ثوابُ الله خيرٌ لمن آمنَ وعملَ صالحاً ولا يُلَقَّاهَا إلا الصابرون ﴾ [القصص: ٨٠]. وفي سورة حميم السجدة، حيث أمر العبد أن يدفع بالتي هي أحسن، فإذا فعل ذلك صار الذي بينه وبينه عداوة كأنه حبيب قريب، ثم قال: ﴿ وما يُلَقَّاهَا إلا الذين صَبَرُوا وما يُلَقَّاهَا إلا ذو حظٍّ عظيم ﴾ [فصلت: ٣٥].

الثامن عشر: أنه سبحانه أخبر أنه إنما ينتفع بآياته ويتعظ بها الصَّبَّارُ الشكور فقال تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أنْ أخرجْ قومَكَ من

الظلماتِ إلى النُّور وذكِّرهم بأيَّامِ الله، إنَّ في ذلك لآياتٍ لكـلِّ صبَّار شَكُور﴾ [إبراهيم: ٥]. وقال تعالى في لقمان: ﴿ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته، إن في ذلك لآيـات لكل صبَّـار شكور﴾ [لقمان: ٣١]. وقـال في قصة سبأ: ﴿وجَعلناهُم أحـاديثَ ومَزَّقنَاهُم كلَّ مُمزَّق، إنَّ في ذلك لآياتٍ لكلِّ صبَّارٍ شَكُور﴾ [سبأ: ١٩]. وقال تعالى: ﴿ومن آيـاتِه الجوار في البحر كالأعلام، إن يشأْ يسكن الريح فيـظْلَلْن رواكد عـلى ظهره، إن في ذلـك لآيات لكـل صبَّار شكـور﴾ [الشورى: ٣٣]. فهذه أربع مواضعٍ في القرآن تدل على أن آيات الرب إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر.

التاسع عشر: أنه أثنى على عبده أيوب بأحسن الثناء على صبـره فقال: ﴿إنا وجدنَاهُ صَابراً نعمَ العبدُ إنَّهُ أواب﴾ [ص: ٤٤]، فأطلق عليه نعم العبد بكونه وجده صابراً. وهذا يدل على أن من لم يصبر إذا ابتُلي فإنه بئس العبد.

العشرون: أنه سبحانه حكم بالخسران حكماً عاماً على كل من لم يؤمن ولم يكن من أهل الحق والصبر، وهذا يدل على أنه لا رابح سواهم فقال تعالى: ﴿والعصر. إنَّ الإنسانَ لَفي خُسْر. إلا الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ. وتَواصَوْا بالحقِّ وتَواصَوْا بالصبر﴾ [سورة العصر: ١ - ٣] ولهذا قال الشافعي: لو فكر الناس كلهم في هذه الآية لوسعتهم، وذلك أن العبد كماله في تكميل قوّتيه: قوة العلم وقوة العمل، وهما الإيمان والعمل الصالح، وكما هو محتاج إلى تكميل نفسه فهو محتاج إلى تكميل غيره، وهو التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وأخية ذلك وقاعدته وساقه الذي يقوم عليه إنما هو الصبر.

الحادي والعشرون: أنه سبحانه خص أهل الميمنة بأنهم أهل الصبر والمرحمة الذين قامت بهم هاتان الخصلتان ووصوا بهما غيرهم فقال تعالى: ﴿ثم كان من الذين آمنوا وتَوَاصَوْا بالصبـرِ وَتَواصَـوْا بالَمـرْحَمَةِ، أولئـك

أصحابُ المَيْمَنَة ﴾ [البلد: ١٧]. وهذا حصر لأصحاب الميمنة فيمن قام به هذان الوصفان، والناس بالنسبة إليهما أربعة أقسام هؤلاء خير الأقسام، وشرهم من لا صبر له ولا رحمة فيه، ويليه من له صبر ولا رحمة عنده، ويليه القسم الرابع وهو من له رحمة ورقة ولكن لا صبر له.

الثاني والعشرون: أنه سبحانه قرن الصبر بأركان الإسلام ومقامات الإيمان كلها، فقرنه بالصلاة، كقوله: ﴿ واستعينوا بالصبر والصَّلاة ﴾ [البقرة: ٤٥]. وقرنه بالأعمال الصالحة عموماً، كقوله: ﴿ إلا الذينَ صَبَرُوا وعَملوا الصالحاتِ ﴾ [هود: ١١]. وجعله قرين التقوى، كقوله: ﴿ إنَّه مَنْ يَتَّقِ ويصبرْ ﴾ [يوسف: ٩٠]. وجعله قرين الشكر كقوله: ﴿ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لكلِّ صَبَّارٍ شَكور ﴾ [إبراهيم: ٥]. وجعله قرين الحق، كقوله: ﴿ وتَوَاصَوْا بالحقِّ وتواصَوْا بالصبر ﴾ [العصر: ٣]. وجعله قرين الرحمة، كقوله: ﴿ وتَوَاصَوْا بالصبرِ وتَوَاصَـوْا بالمرحمةِ ﴾ [البلد: ١٧]. وجعله قرين اليقين كقوله: ﴿ لَمَّا صَبَرُوا وكانوا بآياتِنا يُوقنون ﴾ [السجدة: ٢٤]. وجعله قرين الصدق كقوله: ﴿ والصَّادقينَ والصَّادقاتِ والصَّابرينَ والصَّابراتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وجعله سبب محبته ومعيّته ونصره وعونه وحسن جزائه، ويكفي بعض ذلك شرفاً وفضلاً، والله أعلم.

الباب السادس عشر
في ذكر ما ورد فيه من نصوص السنة

في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ أتى على امرأة تبكي على صبيٍ لها، فقال لها: اتقي الله واصبري، فقالت: وما تبالي بمصيبتي، فلما ذهب قيل لها: إنه رسول الله ﷺ، فأخذها مثل الموت، فأتت بابه فلم تجد على بابه بوَّابين، فقالت يا رسول الله: لم أعرفك، فقال: إنما الصبر عند أول صدمة». وفي لفظ «عند الصدمة

الأولى». وقوله: الصبر عند الصدمة الأولى مثل قوله: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه وقت الغضب»، فإن مفاجآت المصيبة لها روعة تزعزع القلب وتزعجه بصدمتها، فإن صبر للصدمة الأولى انكسر حدها وضعفت قوتها فهان عليه استدامة الصبر، وأيضاً فإن المصيبة ترد على القلب وهو غير موطَّن لها فتزعجه وهي الصدمة الأولى، وأما إذا وردت عليه بعد ذلك توطن لها وعلم أنه لا بد له منها فيصير صبره شبيه الاضطرار. وهذه المرأة لما علمت أن جزعها لا يجدي عليها شيئاً جاءت تعتذر إلى النبي ﷺ كأنها تقول له قد صبرت، فأخبرها أن الصبر إنما هو عند الصدمة الأولى.

ويدل على هذا المعنى ما رواه سعيد بن زربي، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «مر النبي ﷺ على امرأة جاثمة على قبر تبكي، فقال لها: يا أَمَةَ الله اتقِ الله واصبري، قالت: يا عبدالله ثكلى، قال: يا أمة الله اتقي الله واصبري، قالت: يا عبد الله لو كنت مصاباً عذرتني، قال: يا أمة الله اتقي الله واصبري، قالت: يا عبد الله قد أسمَعْتَ فانصرف عني، فمضى رسول الله ﷺ واتبعه رجل من أصحابه فوقف على المرأة فقال لها: ما قال لك الرجل الذاهب؟ قالت: قال لي كذا وكذا وأجبته بكذا. قال هل تعرفينه، قالت: لا. قال: ذلك رسول الله ﷺ، قال: فوثبت مسرعةً نحوه حتى انتهت إليه، وهي تقول: أنا أصبر، أنا أصبر يا رسول الله، فقال: الصبر عند الصدمة الأولى، الصبر عند الصدمة الأولى».

قال ابن أبي الدنيا حدثنا بشر بن الوليد وصالح الكندي بن مالك، قالا: حدثنا سعيد بن زربي فذكره. فهذا السياق يبين معنى الحديث، قال أبو عبيد: معناه أن كل ذي رزية فإن قصاراه الصبر، ولكنه إنما يحمد على صبره عند حدة المصيبة وحرارتها.

قلت: وفي الحديث أنواع من العلم: أحدها: وجوب الصبر على

المصائب، وأنه من التقوى التي أُمر العبد بها. الثاني: الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر، وأن سكر المصيبة وشدتها لا يسقطه عن الآمر الناهي. الثالث: تكرار الأمر والنهي مرة بعد مرة حتى يعذر المرء إلى ربه. الرابع: احتج به على جواز زيارة النساء للقبور، فإنه ﷺ لم ينكر عليها الزيارة وإنما أمرها بالصبر، ولو كانت الزيارة حراماً لبين لها حكمها وهذا كان في اخر الأمر، فإن أبا هريرة إنما أسلم بعد السنة السـابعة، وأجيب عن هـذا بأنه ﷺ قد أمرها بتقوى الله والصبر وهذا إنكار منه لحالها من الـزيارة والبكاء، ويدل عليه أنها لما علمت أن الآمر لها من تجب طاعته انصرفت مسرعة، وأيضاً فأبو هريرة لم يخبر أنه شهد هذه القصة فلا يدل الحديث على أنها بعد إسلامه ولو شهدها. فَلَعْنَتُهُ ﷺ لزائراتِ القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج كان بعد هذا في مرض موته، وفي عدم تعريفه لها بنفسه في تلك الحال التي لا تملك فيها نفسها شفقة منه ورحمة بها إذا عرفها بنفسه في تلك الحال فربما لم تسمع منه فتهلك، وكأن معصيتها له وهي لا تعلم أنه رسول الله أخف من معصيتها له لو علمت، فهذا من كمال رأفته صلوات الله وسلامه عليه.

وفي صحيـح مسلم عن أم سلمة قـالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم اءْجُرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها». قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟! أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها فأخلف الله لي رسوله، فأرسل إليَّ رسول الله ﷺ حاطب بـن أبي بلتعة يخطبني له، فقلت: إن لي بنتاً وأنا غيور، فقال: أما بنتها فأدعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة، فتزوجتُ رسول الله ﷺ.

وعند أبي داود في هذا الحديث عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا

أصابت أحدكم مصيبة فليقل: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم عندك أحتسب مصيبتي فائجُرني فيها وأبدلني خيراً منها»، فلما احتضر أبو سلمة قال: «اللهم اخلفني في أهلي خيراً مني»، فلما قبض، قالت أم سلمة: «إنا لله وإنا إليه راجعون، عند الله أحتسب مصيبتي». فانظر عاقبة الصبر والاسترجاع ومتابعة الرسول والرضاء عن الله إلى ما آلت إليه، وأنالت أم سلمة نكاح أكرم الخلق على الله.

وفي جامع الترمذي ومسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبان عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقول: حمدك واسترجعك، فيقول: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسمُّوه بيت الحمد».

وفي صحيح البخاري من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه ثم صبر عوضته عنهما الجنة»، يريد عينيه. وعند الترمذي في الحديث: «إذا أخذت كريمتي عبدي في الدنيا لم يكن له جزاء عندي إلا الجنة». وفي الترمذي أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: من أذهبتُ حبيبتيه فصبر واحتسب لم أرض له ثواباً دون الجنة».

وفي سنن أبي داود من حديث عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «لا يرضى الله لعبده المؤمن إذا ذهب بصفيه من أهل الأرض واحتسبه بثواب دون الجنة»، وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «يقول الله عزَّ وجل: ما لعبدي المؤمن جزاء إذا قبضت صفيّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة». وفي صحيحه أيضاً عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إني أصرع وإني أتكشف فادع الله لي، قال: إن شئت صبرتِ ولك

الجنة، وإن شئتِ دعوتُ الله تعالى أن يعافيك، فقالت: أصبر. فقالت: إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها.

وفي الموطأ من حديث عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مرض العبد بعث إليه ملكين، فقال: انظر ماذا يقول لعُوَّاده، فإن هو إذ جاؤوه حمدالله وأثنى عليه رفعا ذلك إلى الله وهو أعلم، فيقول: إن لعبدي علي إن توفيته أن أدخله الجنة، وإن أنا شفيته أن أبدله لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، وأن أكفِّر عنه سيئاته». وفي صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله: «إذا جمع الله الخلائق نادى مناد أين أهل الصبر؟ فيقوم ناس وهم قليلون، فينطلقون سراعاً إلى الجنة، فتلقاهم الملائكة فيقولون: إنا نراكم سراعاً إلى الجنة فمن أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الفضل، فيقولون: ما كان فضلكم؟ فيقولون كنا إذا ظُلمنا صبرنا، وإذا أُسيء إلينا غفرنا، وإذا جُهل علينا حلمنا، فيقال لهم: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين».

وفي الصحيحين «أن رسول الله ﷺ قسم مالاً، فقال بعض الناس: هذه قسمة ما أُريد بها وجه الله، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

وفي الصحيحين من حديث الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفَّر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها». وفيهما أيضاً من حديث أبي سعيد وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وَصَب ولا همٍّ ولا حزن ولا أذىً ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه».

وفي صحيح مسلم من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة، وحطَّ عنه بها خطيئة»، وفي المسند من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يزال

البلاء بالمؤمن أو المؤمنة في جسده وفي ماله وفي ولده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة». وفي الصحيح من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله! أي الناس أشد بلاءً؟ قال: الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة».

وفي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك وعكاً شديداً، قال: فقلت يا رسول الله! إنك لتوعك وعكاً شديداً؟ قال: أجل إني لأوعك كما يوعك رجلان منكم، قلت: إن لك لأجرين؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أذىً من مرض فما سواه إلاّ حطَّ الله عنه به خطاياه كما تحط الشجرة ورقها». وفي الصحيحين أيضاً من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت الوجع أشد منه على رسول الله ﷺ».

وفي بعض المسانيد مرفوعاً «أن الرجل لتكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمل حتى يُبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك». ويروى عن عائشة رضي الله عنها عنه ﷺ «إذا اشتكى المؤمن أخلصه ذلك من الذنوب كما يخلص الكير الخبث من الحديد»، وفي صحيح البخاري من حديث خباب ابن الأرت قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد ببردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يُؤخذ الرجل فيُحفر له في الأرض فيُجعل فيها ثم يُؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيُجعل نصفين ويُمشَّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون».

وفي لفظ للبخاري: «أتيت رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة، فقلنا: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمر

وجهه؛ فقال: لقد كان الرجل ليمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه».

وقد حمل أهل العلم قول خباب: «شكونا إلى رسول الله ﷺ حر الرمضاء فلم يشكنا» على هذا المحمل، وقال: شكوا إليه حر الرمضاء الذي كان يصيب جباههم وأكفهم من تعذيب الكفار فلم يشكهم، وإنما دلهم على الصبر.

وهذا الوجه أنسب من تفسير من فسر ذلك بالسجود على الرمضاء، واحتج به على وجوب مباشرة المصلي بالجبهة لثلاثة أوجه:

أحدها: أنه لا دليل في اللفظ على ذلك.

الثاني: أنهم قد أخبروا أنهم كانوا مع النبي ﷺ فكان أحدهم إذا لم يستطع أن يسجد على الأرض يبسط ثوبه فيسجد عليه، والظاهر أن هذا يبلغه ويعلم به، وقد أقرهم عليه.

الثالث: أن شدة الحر في الحجاز تمنع من مباشرة الجبهة والكف للأرض بل يكاد يشوي الوجه والكف، فلا يتمكن من الطمأنينة في السجود، ويذهب خشوع الصلاة ويتضرر البدن ويتعرض للمرض، والشريعة لا تأتي بهذا، فتأمل رواية خباب لهذا والذي قبله، واجمع بين اللفظين والمعنيين، والله أعلم. ولا تستوحش من قوله: «فلم يشكنا» فإنه هو معنى إعراضه عن شكايتهم وإخباره لهم بصبر من قبلهم، والله أعلم.

وفي الصحيح من حديث أسامة بن زيد قال: «أرسلت ابنةُ النبي ﷺ إليه أن ابناً لي احتضر فائْتِنَا، فأرسل يقريها السلام ويقول: إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرفع الصبي إلى رسول الله فأقعده في حجره

ونَفْسُهُ تَقَعْقَع كأنها شِنّ[1] ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ قال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب من يشاء من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء».

وفي سنن النسائي عن ابن عباس قال: «احتضرت ابنة رسول الله ﷺ صغيرة فأخذها رسول الله ﷺ وضمها إلى صدره، ثم وضع يده عليها وهي بين يدي رسول الله ﷺ، فبكت أم أيمن، فقلت لها: أتبكين ورسول الله ﷺ عندك؟ فقالت: مالي لا أبكي ورسول الله ﷺ يبكي، فقال رسول الله ﷺ: إني لست أبكي ولكنها رحمة، ثم قال رسول الله ﷺ: المؤمن بخير على كل حال، تنزع نفسه من بين جنبيه وهو يحمد الله عز وجل».

وفي صحيح البخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال: «اشتكى ابن لأبي طلحة فمات وأبو طلحة خارج، فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئاً وسجّته[2] في جانب البيت، فلما جاء أبو طلحة قال كيف الغلام؟ قالت: قد هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح، فظن أبو طلحة أنها صادقة، قال فبات معها، فلما أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات، فصلى مع رسول الله ﷺ ثم أخبره بما كان منهما، فقال رسول الله ﷺ: لعل الله أن يبارك لكما في ليلتكما، قال ابن عيينة: فقال رجل من الأنصار: فرأيت له تسعة أولاد كلهم قد قرأوا القرآن». وفي موطأ مالك عن القاسم بن محمد قال «هلكت امرأة لي فأتاني محمد بن كعب القرظي يعزيني فيها، فقال: إنه قد كان في بني إسرائيل رجل فقيه عابد عالم مجتهد، وكانت له امرأة وكان بها معجباً، فماتت فوجد[3] عليها وجداً شديداً حتى خلا في بيت وأغلق على نفسه واحتجب عن الناس، فلم يكن

---

(١) تقعقع: أي تتحرك وتضطرب بصوت، والشن: القربة البالية.

(٢) سجته: أي غطته.

(٣) وَجَد: حَزِنَ.

يدخل عليه أحد، ثم إن امرأة من بني إسرائيل سمعت به فجاءته فقالت: إن لي إليه حاجة أستفتيه فيها ليس يجزيني إلا أن أشافهه بها، فذهب الناس ولزمت الباب، فأخبر فأذن لها فقالت: أستفتيك في أمر. قال: وما هو؟ قالت: إني استعرت من جارة حلياً فكنت ألبسه وأعيره زماناً، ثم إنها أرسلت إلي فيه أفأرده إليها؟ قال: نعم. قالت: والله إنه مكث عندي زماناً، فقال: ذلك أحق لردك إياه. فقالت له: يرحمك الله أفتأسف على ما أعارك الله ثم أخذه منك وهو أحق به منك. فأبصر ما كان فيه ونفعه الله بقولها.

وفي جامع الترمـذي عن شيخ من بني مرة قال: قدمت الكوفة فأخبرت عن بلال بن أبي بردة، فقلت: إن فيه لمعتبر، فأتيته وهو محبوس في داره التي كان بنى وإذا كل شيء منه قد تغير من العذاب والضرب، وإذا هو في قشاش، فقلت له: الحمد لله يا بلال لقد رأيتك تمر بنا وأنت تمسك أنفك من غير غبار وأنت في حالتك هذه فكيف صبرك اليوم؟ فقال ممن أنت؟ قلت: من بني مرة بن عباد. قال: ألا أحدثك حديثاً عسى أن ينفعك الله به؟ قلت: هات، قال حدثني أبو بردة عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: لا يصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر. قال: وقرأ ﴿ وما أصابَكُم من مصيبةٍ فبما كسبتْ أيديكُم ويعفو عن كثير ﴾ [الشورى: ٣٠].

وفي الصحيحين من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي أن نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: اللهم اغفر لقومي فـإنهم لا يعلمون»، فتضمنت هذه الدعوة العفو عنهم والدعاء لهم والاعتذار عنهم والاستعطاف بقول: لقومي. وفي الموطأ من حديث عبد الرحمن بن القاسم قال: «قال رسول الله ﷺ ليعز المسلمين في مصائبهم المصيبة بي» وفي الترمذي من حديث يحيى بن وثاب، عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ قال: قال

رسول الله ﷺ: «الذي يُخالط النَّاسَ ويصبر على أذاهم خيرٌ من الذي لا يُخالط الناس ولا يصبر على أذاهم» قال الترمذي: كان شعبة يرى أن الشيخ ابن عمر.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسعَ من الصبر». وفي بعض المسانيد عنه ﷺ أنه قال: «قال الله عز وجل: إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً».

وفي جامع الترمذي عنه ﷺ «إذا أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط». وفي بعض المسانيد عنه ﷺ مرفوعاً: «إذا أراد الله بعبد خيراً صبَّ عليه البلاء صباً». وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ دخل على امرأة فقال: «مالك تزفزفين؟[1] قالت: الحمى لا بارك الله فيها، قال لا تسُبّي الحمَّى إنها تُذهب خطايا بني آدم، كما يُذهب الكيرُ خبثَ الحديد».

ويذكر عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من وُعك ليلةً فصبر ورضي عن الله تعالى خَرَج من ذنوبه كيوم ولدته أمه». وقال الحسن: «إنه ليكفر عن العبد خطاياه كلها بحمَّى ليلة». وفي المسند وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: دخلْتُ على النبي ﷺ وهو محموم، فوضعتُ يدي من فوق القطيفة فوجدت حرارة الحمَّى، فقلت: ما أشد حمَّاك يا رسول الله! قال إنا كذلك معاشر الأنبياء يُضاعف علينا الوجع ليضاعف لنا الأجر، قال: قلت: يا رسول الله؛ فأي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء قلت: ثم من؟ قال: الصالحون، إن كان الرجل ليبتُلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباء فيجوبها فيلبسها، وإن كان الرجل ليبتلى

---

(١) تَزَفْزِفين: تضم التاء وتفتح، معناها: تتحركين حركة شديدة، أي ترعَدين.

بالقمل حتى يقتله القمل، وكان ذلك أحب إليهم من العطاء إليكم».

وقال عقبة بن عامر الجهني: قال رسول الله ﷺ: «ليس من عمل إلا وهو يختم عليه، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: يا ربنا عبدك فلان قد حبسته عن العمل فيقول الرب تعالى: «اختموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت». وقال أبو هريرة: «إذا مرض العبد المسلم نودي صاحب اليمين أنْ أجْرِ على عبدي صالح ما كان يعمل وهو صحيح، ويقال لصاحب الشمال أقصر عن عبدي ما دام في وثاقي»، فقال رجل عند أبي هريرة يا ليتني لا أزال ضاجعاً، فقال أبو هريرة: كره العبد الخطايا ذكره ابن أبي الدنيا.

وذكر أيضاً عن هلال بن بساق قال: كنا قعوداً عند عمار بن ياسر فذكروا الأوجاع، فقال أعرابي ما اشتكيتُ قط، فقال عمار: ما أنت منا أو لست منا، إن المسلم يُبتلى ببلاء فتحط عنه ذنوبه كما يحط الورق من الشجر، وإن الكافر أو قال الفاجر يُبتلى ببلية، فمثله مثل البعير إن أطلق لم يدر لم أطلق، وإن عقل لم يدر لم عقل. وذكر عن أبي معمر الأزدي قال: كنا إذا سمعنا من ابن مسعود شيئاً نكرهه سكتنا حتى يفسره لنا، فقال لنا ذات يوم: ألا إن السقم لا يكتب له أجر فساءنا ذلك وكبر علينا، فقال: ولكن يكفر به الخطيئة، فسرنا ذلك وأعجبنا.

وهذا من كمال علمه وفقهه رضي الله عنه فإن الأجر إنما يكون على الأعمال الاختيارية ومما تولد منها، كما ذكر الله سبحانه النوعين في آخر سورة التوبة في قوله في المباشر من الإنفاق وقطع الوادي ﴿إلا كتب لهم﴾ وفي المتولد من إصابة الظمأ والنصب والمخمصة في سبيله وغيظ الكفار ﴿إلا كتبَ لهم به عملٌ صالحٌ﴾ [التوبة: ١٢١]، فالثواب مرتبط بهذين النوعين، وأما الأسقام والمصائب فإن ثوابها تكفير الخطايا، ولهذا قال تعالى: ﴿وما أصابَكُم من مصيبةٍ فبما كسبتْ أيديكُم﴾ [الشورى: ٣٠] والنبي ﷺ إنما قال في المصائب: «كفر الله بها من خطاياه» كما تقدم ذكر ألفاظه ﷺ،

وكذا قوله: «المرض حطة» فالطاعات ترفع الـدرجات، والمصـائب تحط السيئات. ولهذا قال ﷺ: من يرد الله به خيراً يصب منه، وقال ﷺ: «من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين» فهذا يرفعه وهذا يحط خطاياه.

وقال يزيد بن ميسرة: إن العبد ليمرض المرض وماله عند الله من عمل خير فيذكِّره الله سبحانه بعض ما سلف من خطاياه فيخرج من عينه مثل رأس الذباب من الدمع من خشية الله فيبعثه الله، أن يبعثه مطهّراً، أو يقبضه إن قبضه مطهراً. ولا يرد على هذا حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في ثواب من قبض الله ولده وثمرة فؤاده بأن يبني له بيتاً في الجنة ويسميه بيت الحمد.

وقال زياد بن زياد مولى ابن عباس رضي الله عنه وعن أصحاب النبي ﷺ قال: «دخلنا على النبي ﷺ وهو موعوك ـ أي محموم ـ فقلنا أح أح بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله، ما أشد وعكك! قال: إنا معاشر الأنبياء يضاعف علينا البلاء تضعيفاً، قال: قلنا: سبحان الله! قال: أفعجبتم، إن كان النبي من الأنبياء ليقتله القمل! قلنا: سبحان الله! قال: أفعجبتم إن أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل، قلنا: سبحان الله! قال: أفعجبتم، إن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء».

أح: بالحاء المهملة، هو المعروف من كـلامهم، ومن قال بـالخاء المعجمة فقد غلط. وذكر النسائي عن عبيدة بن حذيفة عن عمته فاطمة قالت: «أتيت النبي ﷺ في نسوة نعوده فإذا سقاء معلقة يقطر ماؤها من شدة ما كان يجد من الحمى، فقلنا: لو دعوت الله يا رسول الله أن يذهبها عنك؟ فقال: «إن أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم».

وقال مسروق عن عائشة رضي الله عنها: «ما رأيت أحداً أشد وجعاً من رسول الله ﷺ، كان يشدد عليه إذا مرض حتى إنه لربما مكث خمس

عشرة لا ينام، وكان يأخذ عرق الكلية وهو الخاصرة، فقلنا: يا رسول الله: «لو دعوت الله فيكشف عنك، قال: إنا معاشر الأنبياء يشدد علينا الوجع ليكفر عنا».

وفي المسند والنسائي من حديث أبي سعيد قال: «قال رجل: يا رسول الله! أرأيت هذه الأمراض التي تصيبنا مالنا بها؟ قال: كفارات. فقال: أبيّ بن كعب: يا رسول الله وإن قلَّتْ؟ قال: شوكة فما فوقها، قال فدعا أُبيّ على نفسه عند ذلك أنْ لا يفارقه الوعك حتى يموت، ولا يشغله عن حج ولا عمرة ولا جهاد في سبيل الله وصلاة مكتوبة في جماعة، قال: فما مسَّ رجلٌ جلده بعدها إلا وجد حرها حتى مات». وقال عبدالله بن عمر: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة ثم مرض، قيل: للملك الموكل به اكتب له مثل عمله إذا كان طلقاً أو اكفته إلى ناقة طُلُق». بضم الطاء واللام إذا حل عقالها. وقال كفته إليه إذا ضمه إليه. ذكره ابن أبي الدنيا.

وذكر أيضاً عن أبي أُمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليجرب أحدكم بالبلاء وهو أعلم به كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار، فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز، فذلك الذي نجاه الله من السيئات، ومنهم من يخرج كالذهب دون ذلك فذلك الذي يشك بعض الشك، ومنهم من يخرج كالذهب الأسود، فذلك الذي قد افتتن». وذكر أيضاً من مراسيل الحسن البصري عن النبي ﷺ: «إنّ الله ليكفر عن المؤمن خطاياه كلها بحمى ليلة».

قال ابن أبي الدنيا قال ابن المبارك: هذا من الحديث الجيد، قال: وكانوا يرجون في حمى ليلة كفارة ما مضى من الذنوب.

وذكر عن أنس، أن رسول الله ﷺ دخل على رجل وهو يشتكي فقال: «قل: اللهم إني أسألك تعجيل عافيتك، وصبراً على بليتك، وخروجاً من الدنيا إلى رحمتك». وقالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول

الله ﷺ: «إن الحمَّى تحط الخطايا كما تحط الشجرة ورقها». وقال أبو هريرة وقد عاد مريضاً، فقال له: إن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول: هي ناري أسلّطها على عبدي المؤمن في الدنيا لتكون حظه من النار في الآخرة».

وقال مجاهد: الحمّى حظ كل مؤمن من النار ثم قرأ: ﴿وإنْ مِنكُم إلا واردُها كان على ربِّك حَتْماً مَقْضِيّاً﴾ [مريم: ٧١] وهذا لم يرد به مجاهد تفسير الورود الذي في القرآن، فإن السياق يأبى حمله على الحمى قطعاً، وإنما مراده أن الله سبحانه وعد عباده فينجو منها سريعاً، والله أعلم.

ويدل عليه حديث أبي ريحانة عن النبي ﷺ: «الحمى كير من كير جهنم، وهي نصيب المؤمن من النار». وقال أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن إذا برأ وصح من مرضه كمثل البردة تقع من السماء في صفائها ولونها» ذكره ابن أبي الدنيا.

وذكر أبيّ أيضاً عن أمامة يرفعه: «ما من مسلم يصرع صرعةً من مرض إلا بُعث منها طاهراً»، وذكر عنه ﷺ: «مثل المؤمن حين يصيبه الوعك مثل الحديدة تدخل النار فيذهب خبثها ويبقى طيبها»، وذكر أيضاً عنه مرفوعاً: «إن العبد إذا مرض أوحى الله إلى ملائكته: يا ملائكتي: أنا قيدت عبدي بقيد من قيودي فإن أقبضه أغفر له، وإن أعافِهِ فجسد مغفور لا ذنب له».

وذكر عن سهل بن أنس الجهني، عن أبيه، عن جده قال: «دخلت على أبي الدرداء في مرضه فقلت: يا أبا الدرداء إنا نحب أن نصح ولا نمرض» فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الصداع والمَلِيْلَة لا يزالان بالمؤمن وإن كان ذنبه مثل أحد حتى لا يدعان عليه من ذنبه مثقال حبة من خردل» المليلة فعيلة من التململ، وأصلها من الملة التي يخبز فيها.

وقالت أم سلمة عن النبي ﷺ: «ما أبتلى الله عبداً ببلاء وهو على طريق يكرهها إلا جعل الله ذلك البلاء له كفارةً وطهوراً ما لم ينزل ما أصابه من البلاء بغير الله أو يدعو غير الله يكشفه»، وقال عطية بن قيس: «مرض كعبٌ، فعاده رهط من أهل دمشق، فقالوا: كيف تجدك يا أبا إسحاق؟ قال: بخير، جسد أخذ بذنبه، إن شاء ربه عذبه وإن شاء رحمه، وإن بعثه بعثه خلقاً جديداً لا ذنب له»، وقال سعيد بن وهب: «دخلنا مع سلمان الفارسي على رجل من كندة نعوده، فقال سلمان: إن المسلم يبتلى فيكون كفارة لما مضى ومستعتباً فيما بقي، وإن الكافر يُبتلى فمثله كمثل البعير أطلق فلم يدر لم أطلق، وعُقل فلم يدر لم عقل».

وذكر أيضاً عن أبي أيوب الأنصاري قال: عاد رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار وأكبَّ عليه، فسأله فقال: يا نبي الله! ما غمضت منذ سبع، فقال رسول الله: «أي أخي! اصبر تخرجْ من ذنوبك كما دخلت فيها» ثم قال رسول الله: «ساعات الأمراض يُذهبن ساعات الخطايا».

وفي النسائي من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال لأعرابي: «هل أخذتك أمُّ مِلْدم؟ قال: يا رسول الله: وما أمُّ مِلْدم؟ قال: حر يكون بين الجلد والدم، قال: ما وجدت هذا، قال: يا أعرابي! هل أخذك الصداع؟ قال: يا رسول الله وما الصداع؟ قال: عرق يضرب على الإنسان في رأسه. قال: ما وجدت هذا، فلما ولّى قال رسول الله ﷺ: من أحبَّ أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا».

وقالت: أم سُليم: «مرضتُ، فعادني رسول الله ﷺ، فقال: يا أم سليم: أتعرفين النار والحديد وخبث الحديد؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال أبشري يا أم سليم فإنك إن تخلصي من وجعك هذا تخلصي منه كما يخلص الحديد من النار خبثه». وخرج بعض الصحابة زائراً لرجل من إخوانه، فبلغه أنه شَاكٍ قبل أن يدخل عليه، فقال: أتيتك زائراً وأتيتك عائداً ومبشراً! قال: كيف جمعت هذا؟ قال: خرجت وأنا أريد زيارتك

فبلغني شكاتك فصارت عيادة، وأبشرك بشيء سمعته من رسول الله ﷺ قال: «إذا سبقت للعبد من الله منزلة لم يبلغها ـ أو قال: لم ينلها ـ بعمله ابتلاه الله في جسده أو في ولده أو في ماله، ثم صبره حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله عز وجل».

وقال الحسن ـ وذكر الوجع ـ: أما والله ما هو بشرٍ أيامٍ المسلم، أيام نُوِّرت له فيها مراحله، وذُكِّر فيها ما نسي من معاده، وكُفِّر بها عنه من خطاياه. وقال بعض السلف: لولا مصائب الدنيا لوردنا الآخرة مفاليس.

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: «انتهى رسول الله ﷺ إلى شجرة فهزَّها حتى سقط من ورقها ما شاء الله، ثم قال: «المصائب والأوجاع في إحباط ذنوب أمتي أسرع مني في هذه الشجرة». وذكر ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه: «ما من مسلم إلا وكّل الله به ملكين من ملائكته لا يفارقانه حتى يقضي الله بأمره بإحدى الحسنيين، إما بموت وإما بحياة، فإذا قال له العوَّاد: كيف نجدك؟ قال: أَحْمَدُ الله أجدني والله المحمود بخير. قال له الملكان: أبشر بدم هو خير من دمك، وصحة هي خير من صحتك. وإن قال: أجدني مجهوداً في بلاء شديد قال له الملكان: أبشر بدم هو شر من دمك وبلاء أطول من بلائك».

ولا يناقض هذا قول النبي ﷺ في وجعه: «وارأساه»، وقول سعد: يا رسول الله! قد اشتد بي الوجع وأنا ذو مال، وقول عائشة: وارأساه، فإن هذا إنما قيل على وجه الإخبار، لا على وجه شكوى الرب تعالى إلى العوّاد، فإذا حمد المريض الله ثم أخبر بعلته لم يكن شكوى منه، وإن أخبر بها تبرُّماً وتسخُّطاً كان شكوى منه، فالكلمة الواحدة قد يثاب عليها، وقد يعاقب بالنية والقصد.

وقال ثابت البناني: انطلقنا مع الحسن إلى صفوان بن محرز نعوده، فخرج إلينا ابنه وقال: هو مبطون لا تستطيعون أن تدخلوا عليه. فقال

الحسن: إن أباك إن يؤخذ اليوم من لحمه ودمه فيوجد فيه خير من أن يأكله التراب.

وقال ثابت أيضاً: دخلنا على ربيعة بن الحارث نعوده وهو ثقيل فقال: إنه من كان في مثل حالتي هذه ملأت الآخرة قلبه، وكانت الدنيا أصغر في عينيه من ذباب. ويذكر عن أنس عن النبي ﷺ قال: «إذا مرض العبد ثلاثة أيام خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» ويذكر عنه ﷺ: «لا ترد دعوة المريض حتى يبرأ».

وذكر ابن أبي الدنيا، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كنتُ مع رسول الله ﷺ جالساً فتبسم، فقلنا: يا رسول الله! مم تبسمت؟ قال: تعجباً للمؤمن من جزعه من السقم، ولو كان يعلم ماله في السقم أحب أن يكون سقيماً حتى يلقى الله، ثم تبسم ثانية ورفع رأسه إلى السماء، قلنا: يا رسول الله! مم تبسمت ورفعت رأسك إلى السماء؟ قال عجبت من مَلَكين نزلا من السماء يلتمسان عبداً مؤمناً في مصلّاه يصلّي فلا يجداه، فعرجا إلى الله فقالا: يا رب عبدك فلان المؤمن كنا نكتب له من العمل في يوم وليلة كذا وكذا، فوجدنا قد حبسته في حبالك فلم نكتب له شيئاً من عمله، فقال: اكتبوا لعبدي عمله الذي كان يعمله في يومه وليلته ولا تنقصوا منه شيئاً، فعليَّ أجر ما حبسته وله أجر ما كان يعمل».

ويذكر عنه ﷺ: «من وُعك ليلة فصبر ورضي بها عن الله عز وجل خرج من ذنوبه كهيئة يوم ولدته أمه»، ومن مراسيل يحيى بن كثير قال: فقد رسولُ الله ﷺ سلمانَ، فسأل عنه، فأخبر أنه عليل، فأتاه يعوده، فقال: «شفى الله سُقْمك، وعظَّم أجرك، وغفر ذنبك، ورزقك العافية في دينك وجسمك إلى منتهى أجلك، إن لك من وجعك خلالاً ثلاثة: أما الأولى: فتذكرة من ربك يُذكر بها، وأما الثانية: فتمحيص لما سلف من ذنوبك، وأما الثالثة: فادع بما شئت فإن المبتلى مجاب الدعوى».

وقال زياد بن الربيع: قلت لأُبيٍّ بن كعب: آية من كتاب الله قد

أحزنتني. قال: ما هي؟ قلت: ﴿من يعملْ سوءاً يُجز به﴾ [النساء: ١٢٣] قال: ما كنت أراك إلا أفقه مما أرى، إن المؤمن لا يصيبه عثرة قدم، ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله أكثر. وسئلت عائشة عن هذه الآية فقالت: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله، فقال النبي ﷺ: يا عائشة: هذه معاقبة الله تعالى لعبده بما يصيبه من الحمّى والمَليلة والشوكة وانقطاع شِسعه، حتى البضاعة يضعها في كمه فيفقدها، فيفزع لها، فيجدها في ضِبْنه، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج الذهب الأحمر من الكير»، ضِبن الإنسان ما تحت يده؛ يقال اضطبن كذا إذا حمله تحت يده.

وقال وهب بن منبه: لا يكون الرجل فقيهاً كامل الفقه حتى يعد البلاء نعمة ويعد الرخاء مصيبة، وذلك أن صاحب البلاء ينتظر الرخاء وصاحب الرخاء ينتظر البلاء.

وفي بعض كتب الله سبحانه: «إن الله ليصيبُ العبدَ بالأمر يكرهه وإنه ليحبه؛ لينظر كيف تضرعه إليه».

وقال كعب: أجد في التوراة: لولا أن يحزن عبدي المؤمن لعصبت الكافر بعصابة من حديد لا يصدع أبداً، وقال معروف الكرخي: «إن الله ليبتلي عبده المؤمن بالأسقام والأوجاع فيشكو إلى أصحابه، فيقول الله تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي ما ابتليتك بهذه الأوجاع والأسقام إلا لأغسلك من الذنوب فلا تشكني». وذكر ابن أبي الدنيا أن رجلاً قال: يا رسول الله: ما الأسقام؟ قال: «أو ما سقمت قط؟ قال: لا، فقال: قم عنا فلست مؤمناً».

وكان عبدالله بن مسعود قد اشتدت به العلة فدخل عليه بعض أصحابه يعوده وأهله تقول: نفسي فداكِ ما نطعمك؟ ما نسقيك؟ فأجابها بصوتٍ ضعيف: «بَليت الحرافيف وطالت الضجعة، والله ما يسرني أن الله نقصني منه قلامة ظفر».

وطلق خالد بن الوليد امرأة له ثم أحسن عليها الثناء، فقيل له: يا أبا سليمان! لأي شيء طلقتها؟ قال: ما طلقتها لأمر رابني منها ولا ساءني، ولكن لم يصبها عندي بلاء، ويذكر عنه ﷺ: «ما ضرب على مؤمن عرق إلا كتب الله له به حسنة وحطَّ به عنه سيئة ورفع له به درجة».

ولا ينافي هذا ما قدمناه من أن المصائب مكفرات لا غير، لأن حصول الحسنة إنما هو بصبره الاختياري عليها وهو عمل منه. وعاد رجل من المهاجرين مريضاً فقال: إن للمريض أربعاً: يرفع عنه القلم، ويكتب له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحته، ويتبع المرض كل خطيئة من مفصل من مفاصله فيستخرجها، فإن عاش عاش مغفوراً له، وإن مات مات مغفوراً له، فقال المريض: اللهم لا أزال مضطجعاً.

وفي المسند عنه ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن»، وفي لفظٍ: «إن أمر المؤمن كله عجب: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».

الباب السابع عشر

في الآثار الواردة عن الصحابة ومن بعدهم في فضيلة الصبر

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن مالك بن مغول، عن السفر قال: «مرض أبو بكر رضي الله عنه فعادوه فقالوا: ألا ندعو لك الطبيب؟ فقال: قد رآني الطبيب! قالوا: فأيُّ شيء قال لك؟ قال: إني فعّالٌ لما أريد.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مجاهد، قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وجدنا خير عيشنا بالصبر.

وقال أيضاً: أفضل عيش أدركناه بالصبر، ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريماً.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بار الجسم، ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له، وقال الصبر مطية لا تكبو.

وقال الحسن: الصبر كنز من كنوز الخير لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده. وقال عمر بن عبد العزيز: ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه مكانها الصبر إلا كان ما عوضه خيراً مما انتزعه. وقال ميمون بن مهران: ما نال أحد شيئاً من ختم الخير فما دونه إلا الصبر. وقال سليمان ابن القاسم: كل عمل يُعرف ثوابه إلا الصبر، قال الله تعالى: ﴿إنما يُوفَّى الصابرون أجرَهم بغير حساب﴾ [الزمر: ١٠] قال: كالماء المنهمر.

وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل وقت ينظر فيها، وفيها: ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾ [الطور: ٤٨] وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو كان الصبر والشكر بعيرين لم أبال أيهما ركبت. وكان محمد بن شبرمة إذا نزل به بلاء قال: سحابة صيف ثم تنقشع، وقال سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿وجعلناهُم أئِمَّةً يهدونَ بأمرِنا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤوساً، وقيل للأحنف بن قيس: ما الحلم؟ قال: أن تصبر على ما تكره قليلاً، وقال وهب: «مكتوب في الحكمة قصر السفه النصب، وقصر الحلم الراحة، وقصر الصبر الظفر. وقصر الشيء وقصاراه: غايته وثمرته.

وقدم عروة بن الزبير على الوليد بن عبد الملك ومعه ابنه محمد، وكان من أحسن الناس وجهاً، فدخل يوماً على الوليد في ثياب وشيٍ، وله غديرتان، وهو يضرب بيده، فقال الوليد: هكذا تكون فتيان قريش،

فعانه(1)، فخرج من عنده متوسناً، فوقع في إصطبل الدواب فلم تزل الدواب تطأه بأرجلها حتى مات، ثم إن الأَكَلَةَ وقعتْ في رجل عروة، فبعث إليه الوليد الأطباء، فقالوا: إن لم تقطعها سرت إلى باقي الجسد فتهلك، فعزم على قطعها، فنشروها بالمنشار، فلما صار المنشار إلى القصبة وضع رأسه على الوسادة ساعة فغشي عليه، ثم أفاق والعرق يتحدر على وجهه وهو يهلل ويكبر، فأخذها وجعل يقبلها في يده، ثم قال: أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى حرام ولا إلى معصية ولا إلى ما لا يرضي الله، ثم أمر بها فغسلت وطيبت وكفنت في قطيفة، ثم بعث بها إلى مقابر المسلمين، فلما قدم من عند الوليد المدينة تلقاه أهل بيته وأصدقاؤه يعزونه، فجعل يقول: ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نَصَباً﴾ [الكهف: ٦٢] ولم يزد عليه، ثم قال: لا أدخل المدينة، إنما أنا بها بين شامت بنكبة أو حاسد لنعمة، فمضى إلى قصره بالعقيق فأقام هنالك، فلما دخل قصره قال له عيسى بن طلحة: لا أباً لشانئيك، أرني هذه المصيبة التي نعزيك فيها، فكشف له عن ركبته، فقال له عيسى: أما والله ما كنا نعدك للصراع، قد أبقى الله أكثرك، عقلك ولسانك وبصرك ويداك وإحدى رجليك، فقال له: يا عيسى: ما عزاني أحد بمثل ما عزيتني به. ولما أرادوا قطع رجله قالوا له: لو سقيناك شيئاً كيلا تشعر بالوجع، فقال: إنما ابتلاني ليرى صبري أفأعارض أمره، وسئل ابنه هشام: كيف كان أبوك يصنع برجله التي قطعت إذا توضأ؟ قال كان يمسح عليها.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا سلام، قال: سمعت قتادة يقول: قال لقمان: وسأله رجل: أيُّ شيء خيراً؟ قال: صبر لا يتبعه أذى، قال: فأيُّ الناس خيراً؟ قال: الذي يرضى بما أوتي، قال: فأيُّ الناس أعلم؟ قال: الذي يأخذ من علم الناس إلى علمه. قيل: فما خير الكنز، من المال أو من العلم؟ قال: سبحان الله بل المؤمن العالم الذي إن

---

(1) فعانه: أي أصابه بعينه، حسده. ومتوسناً: من الوسن، وهو النعاس.

ابتغى عنده خيراً وجد، وإن لم يكن عنده كفَّ نفسه، وبحسب المؤمن أن يكفَّ نفسه، وقال حسان بن أبي جبلة: من بثَّ فلم يصبر، ورواه ابن أبي الدنيا مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وإن صحَّ فمعناه إلى المخلوق، لا من بثَّ إلى الله. وقال حسان بن أبي جبلة أيضاً في قوله تعالى: ﴿فصبرٌ جميل﴾ قال: لا شكوى فيه. ورفعه ابن أبي الدنيا أيضاً.

وقال مجاهد فصبر جميل: في غير جزع، وقال عمرو بن قيس: فصبر جميل، قال: الرضا بالمصيبة والتسليم. وقال بعض السلف: فصبر جميل: لا شكوى فيه، وقال همام، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وابيضّتْ عيناهُ من الحزن فهو كظيم﴾ [يوسف: ٨٤] قال: كظم على حزن فلم يقل إلا خيراً. وقال يحيى بن المختار، عن الحسن: الكظيم: الصبور. وقال همّام، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وابيضتْ عيناهُ من الحزن فهو كظيم﴾، أي كميد، أي كمد الحزن. وقال الحسن: ما جرعتين أحب إلى الله من جرعة مصيبة موجعة محزنة ردها صاحبها بحسن عزاء وصبر، وجرعة غيظ ردها بحلم.

وقال عبدالله بن المبارك: أخبرنا عبدالله بن لهيعة، عن عطاء بن دينار؛ أن سعيد بن جبير قال: «الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه، واحتسابه عند الله، ورجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر». فقوله اعتراف العبد لله بما أصابه منه؛ كأنه تفسير لقوله: ﴿إنا لله﴾، فيعترف أنه ملك لله يتصرف فيه مالكه بما يريد، وقوله: راجياً به ما عند الله؛ كأنه تفسير لقوله: ﴿وإنا إليه راجعون﴾ أَنْ نَرِدَ إليه فيجزينا على صبرنا ولا يضيع أجر المصيبة، وقوله: وقد يجزع الرجل وهو يتجلد: أي ليس الصبر بالتجلد وإنما هو حبس القلب عن التسخط على المقدور، ورد اللسان عن الشكوى، فمن تجلد وقلبه ساخط على القدر فليس بصابر.

وقال يونس بن يزيد سألت ربيعة بن أبي عبد الرحمن: ما منتهى الصبر؟ قال: أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه، وقال قيس

ابن الحجاج في قول الله: ﴿فاصبرْ صبراً جميلاً﴾ [المعارج: ٥] قال: أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يعرف من هو. وكان شمر إذا عزّى مصاباً قال: اصبر لما حكم ربك. وقال أبو عقيل: رأيت سالم بن عبدالله ابن عمر بيده سوط وعليه إزار في موت واقد بن عبدالله بن عمر لا يسمع صارخة إلا ضربها بالسوط.

قال ابن أبي الدنيا حدثني محمد بن جعفر بن مهران، قال: قالت امرأة من قريش:

أما والذي لا خلدَ إلا لوجهه ومن ليس في العزِّ المنيع له كفو
لئن كان بدءُ الصبر مراً مذاقه لقد يُجنى من غبته الثمرُ الحلو

قال وأنشدني عمرو بن بكير:

صبرْتُ فكان الصبرُ خيرَ مغبّةٍ وهل جزَعٌ يُجدي علي فأجزع
ملكتُ دموعَ العين حتى رددتُها إلى ناظري فالعينُ في القلب تدمع

قال: وأنشدني أحمد بن موسى الثقفي:

نبئتُ خولةَ أمس قد جزعتْ من أن تنوبَ نوائبُ الدهر
لا تجزعي يا خولَ واصطبري إن الكرامَ بُنوا على الصبر

قال: وحدثني عبدالله بن محمد بن إسماعيل التيمي: أن رجلاً عزَّى رجلاً في ابنه فقال: إنما يستوجب على الله وعده من صبر له بحقه، فلا تجمع إلى ما أُصبت به من المصيبة الفجيعة بالأجر، فإنها أعظم المصيبتين عليك وأنكى الرزيتين لك والسلام. وعزَّى ابن أبي السماك رجلاً فقال: عليك بالصبر فبه يعمل من احتسب، وإليه يصير من جزع، وقال عمر بن عبد العزيز: أما الرضاء فمنزلة عزيزة أو منيعة، ولكن جعل الله في الصبر معولاً حسناً. ولما مات ابنٌ لعبد الملك صلَّى عليه، ثم قال: رحمك الله، لقد كنت لي وزيراً، وكنت لي معيناً. قال: والناس يبكون وما يقطر من

عينيه قطرة، وأصيب مطرف بن عبدالله في ابن له، فأتاه قوم يعزّونه، فخرج إليهم أحسن ما كان بِشْراً، ثم قال: إني لاستحي من الله أن أتضعضع لمصيبة. وقال عمرو بن دينار: قال عبيد بن عمير: ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب، ولكن الجزع القول السيء والظن السيء.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني الحسين بن عبد العزيز الحروزي: قد مات ابن لي نفيس، فقلت لأمه: اتق الله واحتسبيه واصبري، فقالت: مصيبتي أعظم من أن أفسدها بالجزع. قال ابن أبي الدنيا: وأخبرني عمر ابن بكير، عن شيخ من قريش، قال: مات الحسن بن الحصين أبو عبيد الله بن الحسن، وعبيد الله يومئذ قاضٍ على البصرة وأميراً، فكثر من يعزيه، فتذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره، فأجمعوا أنه إذا ترك شيئاً مما كان يصنعه فقد جزع.

وقال خالد بن أبي عثمان القرشي: كان سعيد بن جبير يعزيني في ابني، فرآني أطوف بالبيت متقنعاً، فكشف القناع عن رأسي وقال: الاستكانة من الجزع.

فصل: وأما قول كثير من الفقهاء من أصحابنا وغيرهم: لا بأس أن يجعلَ المُصابُ على رأسه ثوباً يُعرف به، قالوا: لأن التعزية سنة، وفي ذلك تيسير لمعرفته حتى يعزيه، ففيه نظر، وأنكره شيخنا، ولا ريب أن السلف لم يكونوا يفعلون شيئاً من ذلك، ولا نُقل هذا عن أحد الصحابة والتابعين، والآثار المتقدمة كلُّها صريحة في ردِّ هذا القول، وقد أنكر إسحق بن راهويه أن يترك لبس ما عادته لبسه، وقال: هو من الجزع.

وبالجملة فعادتهم أنهم لم يكونوا يغيّرون شيئاً من زيهم قبل المصيبة، ولا يتركون ما كانوا يعملونه، فهذا كله منافٍ للصبر، والله سبحانه أعلم.

الباب الثامن عشر

في ذكر أمور تتعلق بالمصيبة من البكاء والندب وشقِّ الثياب ودعوى الجاهلية ونحوها

فمنها البكاء على الميت، ومذهب أحمد وأبي حنيفة أجازاه قبل الموت وبعده، واختاره أبو إسحاق الشيرازي، وكرهه الشافعي وكثير من أصحابه بعد الموت، ورخصوا فيه قبل خروج الروح، واحتجوا بحديث جابر بن عتيك؛ أن رسول الله ﷺ جاء يعود عبدالله بن ثابت فوجده قد غاب، فصاح به فلم يجب، فاسترجع وقال: غلبنا عليك يا أبا الربيع، فصاح النسوة وبكيْنَ، فجعل ابن عتيك يسكتهن، فقال رسول الله ﷺ: «دعهن فإذا وجب فلا تبكِيَنَّ باكية، قالوا: وما الوجوب يا رسول الله؟ قال الموت». رواه أبو داود والنسائي.

قالوا: وفي الصحيحين من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه». وهذا إنما هو بعد الموت، وأما قبله فلا يسمى ميتاً. وعن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ لما قدم من أحد سمع نساء بني عبد الأشهل يبكين على هلكاهن، فقال: لكن حمزة لا بواكي له، فجاءت نساء الأنصار فبكين على حمزة عنده فاستيقظ فقال: ويحهن أتين هاهنا يبكين حتى الآن! مروهن فليرجعن ولا يبكين على هالك بعد اليوم» رواه الإمام أحمد، وهذا صريح في نسخ الإباحة المتقدمة.

والفرق بين ما قبل الموت وبعده أنه قبل الموت يرجى، فيكون البكاء عليه حذراً، فإذا مات انقطع الرجاء وأُبرم القضاء فلا ينفع البكاء.

قال المجوزون: قال جابر بن عبدالله: «أصيب أبي يوم أحد فجعلت أبكي، فجعلوا ينهونني، ورسول الله ﷺ لا ينهاني، فجعلت عمتي فاطمة تبكي، فقال النبي ﷺ: تبكين؟ ـ أو لا تبكين ـ ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعوه» متفق عليه.

وفي الصحيحين أيضاً، عن ابن عمر قال: «اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فأتاه النبي ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص وعبدالله بن مسعود، فلما دخل عليه وجده في غشية، فقال: قد قضى؟ قالوا: لا يا رسول الله، فبكى رسول الله ﷺ، فلما رأى القوم بكاءه بكوا، فقال: ألا تسمعون أن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يعذب بهذا وأشار إلى لسانه، أو يرحم».

وفي الصحيحين أيضاً من حديث أسامة بن زيد: «أن رسول الله ﷺ انطلق إلى إحدى بناته ولها صبي في الموت فرُفع إليه الصبي ونفسه تقعقع كأنها في شَنَّةٍ[1]، ففاضت عيناه، فقال سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء».

وفي مسند الإمام أحمد من حديث ابن عباس قال: ماتت رقية ابنة رسول الله ﷺ، فبكت النساء فجعل عمر يضربهن بسوطه، فقال النبي ﷺ: «دعهن يا عمر يبكين، وإياكن ونعيق الشيطان، ثم قال: إنه مهما كان من العين ومن القلب فمن الله ومن الرحمة، وما كان من اليد ومن اللسان فمن الشيطان»، وفي المسند أيضاً، عن عائشة؛ أن سعد بن معاذ لما مات حضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، قالت: فوالذي نفسي بيده إني لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر وأنا في حجرتي. وفي المسند أيضاً، عن أبي هريرة قال: مُرَّ على النبي ﷺ بجنازة يُبكى عليها وأنا معه، ومعه عمر بن الخطاب، فانتهر عمر اللاتي يبكين عليها، فقال النبي ﷺ: «دعهن يا ابن الخطاب: فإن النفس مصابة، وإن العين دامعة والعهد قريب».

وفي جامع الترمذي عن جابر بن عبدالله قال: أخذ النبي ﷺ بيد عبد الرحمن بن عوف، فانطلق إلى ابنه إبراهيم فوجده يجود بنفسه، فأخذه

---

(١) في شَنَّة: في قِرْبة.

النبي ﷺ فوضعه في حجره فبكى، فقال له: أتبكي، أو لم تكن نهيت عن البكاء؟ قال: لا ولكن نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند مصيبة خمش الوجه وشق الجيوب، ورنة شيطان. قال الترمذي: هذا حديث حسن. وقد صح عنه ﷺ أنه زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله، وقد صح عنه ﷺ أنه قبَّل عثمان بن مظعون حتى سالت دموعه على وجهه، وصح عنه ﷺ أنه نعى جعفر وأصحابه وعيناه تذرفان. وصح عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قبّل النبي ﷺ وهو ميِّت وبكى.

فهذه اثنتا عشرة حجة تدل على عدم كراهة البكاء، فتعيَّن حمل أحاديث النهي على البكاء الذي معه ندب ونياحة، ولهذا جاء في بعض ألفاظه حديث عمر: «الميت يُعذب ببعض بكاء أهله عليه». وفي بعضها: «يعذب بما ينح عليه». وقال البخاري في صحيحه قال عمر: دعهن يبكين على أبي سليمان - يعني خالد بن الوليد - ما لم يكن نقع أو لقلقة. والنقع حثي التراب، واللقلقة: الصوت.

وأما دعوى النسخ في حديث حمزة فلا يصح، إذ معناه لا يبكين على هالك بعد اليوم من قتلى أحد.

ويدل على ذلك أن نصوص الإباحة أكثرها متأخرة عن غزوة أحد، منها حديث أبي هريرة إذ إسلامه وصحبته كانا في السنة السابعة، ومنها البكاء على جعفر وأصحابه وكان استشهادهم في السنة الثامنة، ومنها البكاء على زينب وكان موتها في السنة الثامنة أيضاً، ومنها البكاء على سعد بن معاذ وكان موته في الخامسة، ومنها البكاء عند قبر أمه ﷺ وكان عام الفتح في الثامنة.

وقولهم: إنما جاز قبل الموت حذراً بخلاف ما بعد الموت. جوابه أن الباكي قبل الموت يبكي حزناً، وحزنه بعد الموت أشد، فهو أولى برخصة البكاء من الحالة التي يرجى فيها، وقد أشار النبي إلى ذلك بقوله: «تدمع

العين ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون».

فصل: وأما الندب والنياحة فنصَّ أحمد على تحريمها، قال في رواية حنبل: النياحة معصية. وقال أصحاب الشافعي وغيرهم: النوح حرام. وقال ابن عبد البر: أجمع العلماء على أن النياحة لا تجوز للرجال ولا للنساء. وقال بعض المتأخرين من أصحاب أحمد: يكره تنزيهاً. وهذا لفظ أبي الخطاب في الهداية، قال: ويكره الندب والنياحة وخمش الوجوه وشق الجيوب والتحفي، والصواب القول بالتحريم؛ لما في الصحيحين من حديث عبدالله بن مسعود: أن النبي ﷺ قال: «ليس منا من ضرب الخدودَ وشقَّ الجيوبَ ودعا بدعوى الجاهلية». وفي الصحيحين أيضاً، عن أبي بردة قال: وَجِعَ أبو موسى وجعاً فغشي عليه، ورأسه في حِجر امرأة من أهله، فصاحت امرأة من أهله، فلم يستطع أن يرد عليها شيئاً، فلما أفاق قال: أنا بريء مما برىء منه رسول الله ﷺ، فإن رسول الله برىء من الصالقة والحالقة والشاقّة[1] وفي الصحيحين أيضاً عن المغيرة بن شعبة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من يُنح عليه يعذب بما نيح عليه». وفي الصحيحين أيضاً عن أم عطية قالت: أخذ علينا رسول الله ﷺ في البيعة ألا ننوح، فما وفَّتْ منا امرأة إلا خمسُ نسوة.

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: الميت يعذب في قبره بما ينح عليه. وفي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال: أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن «الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة». وقال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب.

---

(١) الصالقة: التي ترفع صوتها عند المصيبة، والشاقة: التي تشق ثوبها عند المصيبة.

وفي سنن أبي داود عن أسيد بن أبي أسيد عن امرأة من المبايعات قالت: كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ في المعروف الذي أخذ علينا أن لا نعصيه فيه وأن لا نخمش وجهاً ولا ندعو ويلاً، ولا نشق جيباً ولا ننفش شعراً، وفي المسند عن أنس قال: «أخذ النبي ﷺ على النساء حين بايعهن أن لا ينحن، فقلن: يا رسول الله إن نساءنا أسعدننا في الجاهلية أفنسعدهن في الإسلام؟ فقال: لا إسعاد في الإسلام». وقد تقدم قوله: «ما كان من اليد واللسان فمن الشيطان» وقوله: نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين، صوت عند مصيبة خمش وجوه وشق جيوب، ورنة شيطان.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «الميت يعذب ببكاء الحي، إذا قالت النائحة: واعضداه! واناصراه! واكاسياه! جبذ الميت وقيل له: أنت عضدها؟ أنت ناصرها؟ أنت كاسيها؟» وفي صحيح البخاري عن النعمان بن بشير قال: أغمي على عبد الله بن رواحة، فجعلت أخته عمرة تبكي وتقول: واجبلاه واكذا واكذا، تعدد عليه، فقال حين أفاق: ما قلت لي شيئاً إلا قيل لي أنت كذا؟ فلما مات لم تبك عليه.

وكيف لا تكون هذه الخصال محرمة وهي مشتملة على التسخط على الرب وفعل ما يناقض الصبر والإضرار بالنفس، من لطم الوجه، وحلق الشعر ونتفه، والدعاء عليها بالويل والثبور، والتظلم من الله سبحانه، وإتلاف المال بشق الثياب وتمزيقها، وذكر الميت بما ليس فيه، ولا ريب أن التحريم الشديد يثبت ببعض هذا.

وقال المبيحون لمجرد الندب والنياحة مع كراهتهم له: قد روى حرب عن واثلة بن الأسقع وأبي وائل أنهما كانا يسمعان النوح ويسكتان.

قالوا وفي الصحيحين عن أم عطية قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿يا أيُّها النبي إذا جاءَكَ المؤمناتُ يُبايِعْنَكَ على أنْ لا يُشْرِكْنَ بالله شيئاً ـ إلى قوله ـ ولا يَعْصِينَكَ في معروف﴾ [الممتحنة: ١٢] كان منه النياحة، فقلت:

يا رسول الله! إلا آل فلان فإنهم كانوا أسعدوني في الجاهلية فلا بد لي من أن أسعدهم؟ فقال: «إلا آل فلان». وفي رواية لهما أنها قالت: بايعنا رسول الله ﷺ، فقرأ علينا ﴿أن لا يُشْرِكْنَ بالله شيئاً﴾ ونهانا عن النياحة، فقبضت منا امرأة يدها فقالت: فلانة أسعدتني فأنا أريد أن أجزيها، قالت: فما قال لها شيئاً، فذهبت فانطلقت ثم رجعت فبايعها، قالوا: وهذا الإذن لبعضهن في فعله يدل على أن النهي عنه تنزيه لا تحريم، ويتعين حمله على المجرد من تلك المفاسد جمعاً بين الأدلة.

قال المحرمون: لا تعارض سنة رسول الله ﷺ بأحد من الناس كائناً من كان، ولا نضرب سنته بعضها ببعض، وما ذكرنا من النصوص صحيحة صريحة لا تحتمل تأويلاً، وقد انعقد عليها الإجماع، وأما المرأة التي قال لها: «إلا آل فلان»، والمرأة التي سكت عنها فذلك خاص بهما لوجهين:

أحدهما: أنه قال لغيرهما لما سألته ذلك: «لا إسعاد في الإسلام».

والثاني: أنه أطلق لهما ذلك وهما حديثا عهد بالإسلام، وهما لم يميزا بين الجائز من ذلك وبين المحرم، وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، فعلم أن الحكم لا يعدوهما إلى غيرهما.

وأما الكلمة اليسيرة إذا كانت صدقاً لا على وجه النوح والتسخط فلا تحرم ولا تنافي الصبر الواجب، نص عليه أحمد في مسنده من حديث أنس أن أبا بكر رضي الله عنه دخل على النبي ﷺ بعد وفاته، فوضع فمه بين عينيه ووضع يده على صدغيه وقال: وانبيّاه واخليلاه واصفيّاه.

وفي صحيح البخاري عن أنس أيضاً قال: لما ثقل على النبي ﷺ جعل يتغشاه الكرب، فقالت فاطمة: واكرب أبتاه، فقال: ليس على أبيك كرب بعد اليوم، فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب رباً دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل أنعاه. فلما دفن قالت فاطمة: يا أنس! أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟ وقال النبي ﷺ «وإنا

بك يا إبراهيم لمحزونون». وهذا ونحوه من القول الذي ليس فيه تظلم للمقدور، ولا تسخط على الرب، ولا إسخاط له، فهو كمجرد البكاء.

فصل: وأما قول النبي ﷺ: «إن الميت ليعذب بالنياحة عليه»، فقد ثبت عنه من رواية عمر بن الخطاب وابنه عبدالله والمغيرة بن شعبة، وروي نحوه عن عمران بن حصين وأبي موسى رضي الله عنهم، فاختلفت طرق الناس في ذلك: فقالت فرقة: يتصرف الله في خلقه بما يشاء، وأفعال الله لا تعلل، ولا فرق بين التعذيب بالنوح عليه والتعذيب بما هو منسوب إليه، لأن الله خالق الجميع، والله تعالى يؤلم الأطفال والبهائم والمجانين بغير عمل.

وقالت فرقة: هذه الأحاديث لا تصح عن رسول الله ﷺ، وقد أنكرتها عائشة أم المؤمنين، واحتجت بقوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ [الإسراء: ١٥] ولما بلغها رواية عمر وابنه قالت: إنكم لتحدثون عن غير كاذبين ولا متهمين، ولكن السمع يخطىء. وقالت: إنما مر النبي ﷺ على قبر يهودي فقال: «إن صاحب هذا القبر يعذب وأهله يبكون عليه».

وفي رواية متفق عليها عنها: إنما قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه». وقالت: حسبكم القرآن ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾.

وقالت فرقة أخرى منهم المزني وغيره: إن ذلك محمول على من أوصى به إذا كانت عادتهم ذلك، وهو كثير في أشعارهم، كقول طرفة:

إذا مت فانعيني بما أنا أهلُه ... وشقّي عليَّ الجيب يا ابنة معبد

وقول لبيد:

فقوما فقولا بالذي قد علمتها ... ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر

وقولا هو المرءُ الذي لا صديقه ... أضاع ولا خان الأمين ولا غدر

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذر

وقالت طائفة: هو محمول على من سنته وسنة قومه ذلك إذا لم ينههم عنه، لأن ترك نهيه دليل على رضاه به، وهذا قول ابن المبارك وغيره. قال أبو البركات بن تيمية: وهو أصح الأقوال كلها؛ لأنه متى غلب على ظنه فعلهم ولم يوصهم بتركه فقد رضي به وصار كمن ترك النهي عن المنكر مع القدرة عليه، فأما إذا أوصاهم بتركه فخالفوه فالله أكرم من أن يعذبه بذلك، وقد حصل بذلك العمل بالآية مع إجراء الخبر على عمومه في كثير من الموارد، وإنكار عائشة لذلك بعد رواية الثقات لا يعود عليه، فإنهم قد يحضرون ما لا تحضره ويشهدون ما تغيب عنه، واحتمال السهو والغلط بعيد خصوصاً في حق خمسة من أكابر الصحابة.

وقوله في اليهود لا يمنع أن يكون قد قال ما رواه عنه هؤلاء الخمسة في أوقات أخر، ثم هي محجوجة بروايتها عنه أنه قال: «إن الله يزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه» فإذا لم يمنع زيادة الكافر عذاباً بفعل غيره مع كونه مخالفاً لظاهر الآية لم يمنع ذلك في حق المسلم، إن الله سبحانه كما لا يظلم عبده المسلم لا يظلم الكافر، والله أعلم.

فصل: ولا تحتاج هذه الأحاديث إلى شيء من هذه التكلفات، وليس فيها بحمد الله إشكال، ولا مخالفة لظاهر القرآن، ولا لقاعدة من قواعد الشرع، ولا تتضمن عقوبة الإنسان بذنب غيره، فإن النبي ﷺ لم يقل إن الميت يعاقب ببكاء أهله عليه ونوحهم، وإنما قال يعذب بذلك، ولا ريب أن ذلك يؤلمه ويعذبه، والعذاب هو الألم الذي يحصل له، وهو أعم من العقاب، والأعم لا يستلزم الأخص، وقد قال ﷺ: «السفر قطعة من العذاب» وهذا العذاب يحصل للمؤمن والكافر، حتى أن الميت ليتألم بمن يعاقب في قبره في جواره، ويتأذّى بذلك كما يتأذى الإنسان في الدنيا بما يشاهده من عقوبة جاره، فإذا بكى أهل الميت عليه البكاء المحرم، وهو البكاء الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، والبكاء على الميت عندهم اسم لذلك، وهو معروف في نظمهم ونثرهم؛ تألم الميت بذلك في قبره، فهذا

التألم هو عذابه بالبكاء عليه، وهذه طريقة شيخنا في هذه الأحاديث، وبالله التوفيق.

الباب التاسع عشر
في أن الصبر نصف الإيمان

والإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر، قال غير واحد من السلف: الصبر نصف الإيمان. وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر» ولهذا جمع الله سبحانه بين الصبر والشكر في قوله: ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لكلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ في سورة إبراهيم، وفي سورة حم عسق[1]، وفي سورة سبأ، وفي سورة لقمان، وقد ذكر لهذا التنصيف اعتبارات:

أحدها: إن الإيمان اسم لمجموع القول والعمل والنية، وهي ترجع إلى شطرين، فعل وترك، فالفعل هو العمل بطاعة الله وهو حقيقة الشكر، والترك هو الصبر عن المعصية، والدين كله في هذين الشيئين، فعل المأمور وترك المحظور.

الاعتبار الثاني: إن الإيمان مبني على ركنين: يقين وصبر، وهما الركنان المذكوران في قوله تعالى: ﴿وجعلناهم أئمةً يَهْدونَ بأمرنا لَمَّا صَبَرُوا وكانوا بآياتِنا يُوقنون﴾ [السجدة: ٢٤] فباليقين يعلم حقيقة الأمر والنهي والثواب والعقاب، وبالصبر ينفذ ما أمر به ويكف نفسه عما نهي عنه، ولا يحصل له التصديق بالأمر والنهي أنه من عند الله وبالثواب والعقاب إلا باليقين، ولا يمكنه الدوام على فعل المأمور وكف النفس عن المحظور إلا بالصبر، فصار الصبر نصف الإيمان، والنصف الثاني الشكر بفعل ما أمر به وبترك ما نهي عنه.

---
(١) هي سورة الشورى.

الاعتبار الثالث: إن الإيمان قول وعمل، والقول قول القلب واللسان والعمل عمل القلب والجوارح، وبيان ذلك أن من عرف الله بقلبه ولم يقر بلسانه لم يكن مؤمناً، كما قال عن قوم فرعون: ﴿وجَحَدُوا بها واسْتَيقنَتْها أنفسُهم﴾ [النمل: ١٤]، وكما قال عن قوم عاد وقوم صالح: ﴿وعاداً وثمودَ وقد تبينَ لكم من مساكِنِهم وزيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم فصدَّهُم عن السبيلِ وكانُوا مُستبصرين﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وقال موسى لفرعون: ﴿لقد علمتَ ما أنزلَ هؤلاء إلا ربُّ السمواتِ والأرضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. فحصل قول القلب لهؤلاء وهو المعرفة والعلم، ولم يكونوا بذلك مؤمنين. وكذلك من قال بلسانه ما ليس في قلبه لم يكن بذلك مؤمناً بل كان من المنافقين، وكذلك من عرف بقلبه وأقر بلسانه لم يكن بمجرد ذلك مؤمناً حتى يأتي بعمل القلب من الحب والبغض والموالاة والمعاداة، فيحب الله ورسوله ويوالي أولياء الله ويعادي أعداءه، ويستسلم بقلبه لله وحده، وينقاد لمتابعة رسوله وطاعته والتزام شريعته ظاهراً وباطناً، وإذا فعل ذلك لم يكف في كمال إيمانه حتى يفعل ما أمر به.

فهذه الأركان الأربعة هي أركان الإيمان التي قام عليها بناؤه، وهي ترجع إلى علم وعمل، ويدخل في العمل كفُّ النفس الذي هو متعلق النهي، وكلاهما لا يحصل إلا بالصبر؛ فصار الإيمان نصفين: أحدهما الصبر والثاني متولد عنه من العلم والعمل.

الاعتبار الرابع: إن النفس لها قوتان: قوة الإقدام وقوة الإحجام، وهي دائماً تتردد بين أحكام هاتين القوتين فتقدم على ما تحبه وتحجم عما تكرهه. والدين كله إقدام وإحجام، إقدام على طاعة وإحجام عن معاصي الله، وكل منهما لا يمكن حصوله إلا بالصبر.

الاعتبار الخامس: إن الدين كله رغبة ورهبة، فالمؤمن هو الراغب الراهب قال تعالى: ﴿إنَّهم كانُوا يُسارعونَ في الخيراتِ ويَدْعُونَنا رَغَباً ورَهَباً﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وفي الدعاء عند النوم الذي رواه البخاري في

صحيحه «اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك» فلا تجد المؤمن أبداً إلا راغباً وراهباً، والرغبة والرهبة لا تقومان إلا على ساق الصبر، فرهبته تحمله على الصبر ورغبته تقوده إلى الشكر.

الاعتبار السادس: إن جميع ما يباشره العبد في هذه الدار لا يخرج عما ينفعه في الدنيا والآخرة، أو يضره في الدنيا والآخرة، أو ينفعه في أحد الدارين ويضره في الأخرى، وأشرف الأقسام أن يفعل ما ينفعه في الآخرة ويترك ما يضره فيها وهو حقيقة الإيمان، ففعل ما ينفعه هو الشكر، وترك ما يضره هو الصبر.

الاعتبار السابع: إن العبد لا ينفك عن أمر يفعله، ونهي يتركه، وقدر يجري عليه، وفرضه في الثلاثة الصبر والشكر، ففعل المأمور هو الشكر، وترك المحظور والصبر على المقدور هو الصبر.

الاعتبار الثامن: إن العبد فيه داعيان: داع يدعوه إلى الدنيا وشهواتها ولذاتها، وداعٍ يدعوه إلى الله والدار الآخرة وما أعد فيها لأوليائه من النعيم المقيم، فعصيان داعي الشهوة والهوى هو الصبر، وإجابة داعي الله والدار الآخرة هو الشكر.

الاعتبار التاسع: إن الدين مداره على أصلين: العزم والثبات، وهما الأصلان المذكوران في الحديث الذي رواه أحمد والنسائي عن النبي ﷺ: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد». وأصل الشكر صحة العزيمة، وأصل الصبر قوة الثبات، فمتى أُيِّدَ العبد بعزيمة وثبات فقد أُيِّدَ بالمعونة والتوفيق.

الاعتبار العاشر: إن الدين مبني على أصلين: الحق والصبر. وهما المذكوران في قوله تعالى ﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾، ولما كان المطلوب من العبد هو العمل بالحق في نفسه وتنفيذه في الناس، وكان هذا

هو حقيقة الشكر لم يمكنه ذلك إلا بالصبر عليه، فكان الصبر نصف الإيمان، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الباب العشرون

في بيان تنازع الناس في الأفضل من الصبر والشكر

حكى أبو الفرج بن الجوزي في ذلك ثلاثة أقوال: أحدها: إن الصبر أفضل. والثاني: إن الشكر أفضل. والثالث: إنهما سواء؛ كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيها ركبت».

ونحن نذكر ما احتجت به كل فرقة وما لها وعليها في احتجاجها بعون الله وتوفيقه.

فصل: قال الصابرون: قد أثنى الله سبحانه على الصبر وأهله، ومدحه وأمر به، وعلّق عليه خير الدنيا والآخرة، وقد ذكره الله في كتابه في نحو تسعين موضعاً، وقد تقدم من النصوص والأحاديث فيه وفي فضله ما يدل على أنه أفضل من الشكر، ويكفي في فضله قوله ﷺ: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر» فذكر ذلك في معرض تفضيل الصبر ورفع درجته على الشكر، فإنه ألحق الشاكر بالصابر وشبهه به، ورتبة المشبه به أعلى من رتبة المشبه، وهذا كقوله: «مدمنُ الخمر كعابد وثن» ونظائر ذلك.

قالوا: وإذا وازنّا بين النصوص الواردة في الصبر والواردة في الشكر وجدنا نصوص الصبر أضعافها، ولهذا لما كانت الصلاة والجهاد أفضل الأعمال كانت الأحاديث فيهما في سائر الأبواب، فلا تجد الأحاديث النبوية في باب أكثر منها في باب الصلاة والجهاد، قالوا وأيضاً فالصبر يدخل في كل باب، بل في كل مسألة من مسائل الدين، ولهذا كان من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

قالوا: وأيضاً فالله سبحانه وتعالى علّقَ على الشكر الزيادة فقال: ﴿وإذْ تأذّنَ ربُكم لئنْ شكرتُم لأزيدنَّكُم﴾ [إبراهيم: ٧]، وعلق على الصبر الجزاء بغير حساب، وأيضاً فإنه سبحانه أطلق جزاء الشاكرين فقال: ﴿وسيجزي اللّهُ الشاكرينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقيد جزاء الصابرين بالإحسان فقال: ﴿ولنجزينَّ الذين صَبَرُوا أجَرهم بأحسنَ ما كانُوا يعَملون﴾ [النحل: ٩٦].

قالوا: وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: يقول الله تعالى: «كلُّ عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به». وفي لفظ: «كل عمل ابن آدم يضاعف له الحسنة بعشر أمثالها، قال الله تعالى: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به». وما ذاك إلا لأنه صبر النفس ومنعها من شهواتها، كما في الحديث نفسه: يدع شهوته وطعامه وشرابه من أجلي، ولهذا قال النبي ﷺ لمن سأله عن أفضل الأعمال: «عليك بالصوم فإنه لا عدل له». ولما كان الصبر حبس النفس عن إجابة داعي الهوى، وكان هذا حقيقة الصوم فإنه حبس النفس عن إجابة داعي شهوة الطعام والشراب والجماع فسر الصبر في قوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصَّلاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] أنه الصوم، وسمي رمضان شهر الصبر، وقال بعض السلف: الصوم نصف الصبر، وذلك أن الصبر حبس النفس عن إجابة داعي الشهوة والغضب، فإن النفس تشتهي الشيء لحصول اللذة بإدراكه، وتغضب لنفرتها من المؤلم لها، والصوم صبر عن مقتضى الشهوة فقط، وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب، ولكن من تمام الصوم وكماله صبر النفس عن إجابة داعي الأمرين، وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ في الحديث الصحيح، وهو قوله: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يجهل ولا يصخب، فإنْ أحداً سابّه أو شاتمه فليقلْ: إني صائم». فأرشد ﷺ إلى تعديل قوى الشهوة والغضب، وأن الصائم ينبغي له أن يحتمي من إفسادهما لصومه، فهذه تفسد صومه، وهذه تحبط أجره، كما قال في الحديث الآخر: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه».

قالوا: ويكفي في فضل الصبر على الشكر قوله تعالى: ﴿إنِّي جزيتهم اليومَ بما صَبَرُوا أنَّهم هم الفائزون﴾ [المؤمنون: ١١١]، فجعل فوزهم جزاء صبرهم، وقال تعالى: ﴿والله مع الصابرين﴾ [البقرة: ٢٤٩]، لا شيء يعدل معيته لعبده، كما قال بعض العارفين: ذهب الصابرون بخير الدنيا والآخرة لأنهم نالوا معية الله، وقال تعالى: ﴿واصبرْ لحكم ربِّكَ فإنَّكَ بأعيُننا﴾ [الطور: ٤٨]، وهذا يتضمن الحراسة والكلاءة والحفظ للصبر لحكمه.

وقد وعد الصابرين بثلاثة أشياء كل واحد خير من الدنيا وما عليها، وهي صلواته تعالى عليهم ورحمته لهم، وتخصيصهم بالهداية في قوله تعالى: ﴿أولئك عليهم صلواتٌ من ربِّهم ورحمةٌ وأولئكَ هم المُهتدون﴾ [البقرة: ١٥٧]، وهذا مفهم لحصر الهدى فيهم، وأخبر أن الصبر من عزم الأمور في آيتين من كتابه، وأمر رسوله أن يتشبه بصبر أولي العزم من الرسل وقد تقدم ذكر ذلك.

قالوا: وقد دلَّ الدليل على أن الزهد في الدنيا والتقلل منها مهما أمكن أفضل من الاستكثار منها، والزهدُ فيها حالُ الصابر، والاستكثار منها حال الشاكر.

قالوا: وقد سُئل المسيح صلوات الله وسلامه عليه عن رجلين مرا بكنز، فتخطاه أحدهما ولم يلتفت إليه، وأخذه الآخر وأنفقه في طاعة الله تعالى، أيهما أفضل؟ فقال: الذي لم يلتفت إليه وأعرض عنه أفضل عند الله.

قالوا: ويدل على صحة هذا أن النبي ﷺ عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فلم يأخذها، وقال: بل أجوع يوماً وأشبع يوماً، ولو أخذها لأنفقها في مرضاة الله وطاعته، فآثر مقام الصبر عنها والزهد فيها.

قالوا: وقد علم أن الكمال الإنساني في ثلاثة أمور: علوم يعرفها،

وأعمال يعمل بها، وأحوال ترتب له على علومه وأعماله، وأفضل العلم والعمل والحال: العلم بالله وأسمائه وصفـاته وأفعاله، والعمل بمرضاته وانجذاب القلب إليه بالحب والخوف والرجاء، فهذا أشرف ما في الدنيا، وجزاؤه أشرف ما في الآخرة، وأجلُّ المقاصد معرفـة الله ومحبته والأنس بقربه، والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره، وهذا أجلُّ سعادة الدنيا والآخرة، وهذا هو الغاية التي تطلب لذاتها، وإنما يشعر العبد تمام الشعور بأن ذلك عين السعادة إذا انكشف له الغطاء وفارق الدنيا ودخل الآخرة، وإلا فهو في الـدنيا، وإن شعـر بذلـك بعض الشعور فليس شعـوره بـه كـامـلاً للمعارضات التي عليه، والمحن التي امتحن بها، وإلا فليست السعادة في الحقيقة سوى ذلك، وكل العلوم والمعارف تبع لهذه المعرفة، مرادة لأجلها، وتفاوت العلوم في فضلها بحسب إفضائها إلى هذه المعرفة وبُعْدِها، فكل علم كان أقرب إفضاءً إلى العلم بالله وأسمائه وصفاته فهو أعلى مما دونه، وكذلك حال القلب فكل حال كان أقرب إلى المقصود الذي خلق له فهو أشرف مما دونه، وكذلك الأعمال، فكل عمل كان أقرب إلى تحصيل هذا المقصود كان أفضل من غيره ولهذا كانت الصلاة والجهاد من أفضل الأعمال وأفضلها لقـرب إفضائها إلى المقصود. وهكذا يجب أن يكون، فإن كل ما كان الشيء أقرب إلى الغاية كان أفضل من البعيد عنها، فالعمل المعد للقلب المهيء له لمعرفة الله وأسمائه وصفاته ومحبته وخوفه ورجائه أفضل مما ليس كذلك، وإذا اشتركت عدة أعمال في هذا الإفضاء فأفضلها أقربها إلى هذا المفضي، ولهذا اشتركت الطاعات في هذا الإفضاء فكانت مطلوبة لله، واشتركت المعاصي في حجب القلب وقطعه عن هذه الغاية فكانت منهياً عنها، وتأثير الطاعات والمعاصي بحسب درجاتها.

وهاهنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أنه قد يكون العمل المعين أفضل منه في حق غيره، فالغني الذي بلغ له مال كثير ونفسه لا تسمح ببذل شيء منه، فصدقته وإيثاره أفضل له من قيام الليل وصيام النهار نافلة، والشجاع الشديد الذي يهاب العدو سطوته وقوفه في الصف ساعة وجهاده أعداء الله

أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع، والعالم الذي قد عرف السنة والحلال والحرام وطرق الخير والشر مخالطته للناس وتعليمهم ونصحهم في دينهم أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح، وولي الأمر الذي قد نصبه الله للحكم بين عباده، جلوسه ساعة للنظر في المظالم وإنصاف المظلوم من الظالم وإقامة الحدود ونصر المُحِقّ وقمع المُبْطِل أفضل من عبادة سنين من غيره، ومن غلبت عليه شهوة النساء فصومه له أنفع وأفضل من ذكر غيره وصدقته، وتأمّل تولية النبي ﷺ لعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما من أمرائه وعماله وترك تولية أبي ذر، بل قال له: «إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي: لا تُؤمّرن على اثنين ولا تُولينّ مال يتيم». وأمَرَهُ وغيره بالصيام وقال: «عليك بالصوم فإنه لا عدل له». وأمر آخر بأن لا يغضب، وأمر ثالثاً بأن لا يزال لسانه رطباً من ذكر الله، ومتى أراد الله بالعبد كمالاً وفَّقه لاستفراغ وسعه فيما هو مستعد له، قابل له قد هيّيء له، فإذا استفرغ وسعه بَزَّ على غيره وفاق الناس فيه، كما قيل:

ما زالَ يسبقُ حتى قال حاسدُه ... هذا طريقٌ إلى العلياء مختصرُ

وهذا كالمريض الذي يشكو وجع البطن مثلاً إذا استعمل دواء ذلك الداء انتفع به، وإذا استعمل دواء وجع الرأس لم يصادف داءه، فالشح المُطاع مثلاً من المهلكات ولا يزيله صيام مائة عام ولا قيام ليلها، وكذلك داء اتباع الهوى والإعجاب بالنفس لا يلائمه كثرة قراءة القرآن واستفراغ الوسع في العلم والذكر والزهد وإنما يزيله إخراجه من القلب بضده، ولو قيل أيهما أفضل: الخبز أو الماء؟ لكان الجواب: إن هذا في موضعه أفضل، وهذا في موضعه أفضل.

وإذا عرفت هذه القاعدة فالشكر ببذل المال عمل صالح يحصل به للقلب حال، وهو زوال البخل والشح بسبب خروج الدنيا منه، فتهيّأ لمعرفة الله ومحبته، فهو دواء للداء الذي في القلب يمنعه من المقصود، وأما

الفقير الزاهد فقد استراح من هذا الداء والدواء، وتوفرت قوته على استفراغ الوسع في حصول المقصود.

ثم أوردوا على أنفسهم سؤالاً فقالوا: فإن قيل فقد حث الشرع على الأعمال وانفصلوا عنه، بأن قالوا: الطبيب إذا أثنى على الدواء لم يدل على أن الدواء يراد لعينه ولا أنه أفضل من الشفاء الحاصل به، ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب، ومرض القلوب مما لا يُشعر به غالباً، فوقع الحث على العمل المقصود وهو شفاء القلب، فالفقير الآخذ لصدقتك يستخرج منك داء البخل كالحجَّام يستخرج منك الدم المهلك.

قالوا: وإذا عُرف هذا عرف أن حال الصابر حال المحافظ على الصحة والقوة، وحال الشاكر حال المتداوي بأنواع الأدوية لإزالة مواد السقم.

فصل: قال الشاكرون: لقد تعديتم طوركم، وفضلتم مقاماً غيرُه أفضل منه، وقدمتم الوسيلة على الغاية، والمطلوب لغيره على المطلوب لنفسه، والعمل الكامل على الأكمل، والفاضل على الأفضل، ولم تعرفوا للشكر حقه، ولا وفيتموه مرتبته، وقد قرن تعالى ذكره الذي هو المراد من الخلق بذكره وكلاهما هو المراد بالخلق والأمر، والصبر خادم لهما ووسيلة إليهما وعوناً عليهما، قال تعالى: ﴿اذكروني أذكرْكُم واشْكُروا لي ولا تَكْفُرون﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقرن سبحانه الشكر بالإيمان وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به فقال: ﴿ما يفعلُ اللَّهُ بعذابِكم إنْ شكرْتُم وآمنتُم﴾ [النساء: ١٤٧]، أي إن وفيتم ما خلقتم له وهو الشكر والإيمان فما أصنع بعذابكم؟.

هذا وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده فقال: ﴿وكذلك فتنا بعضَهم ببعضٍ ليقولوا أهؤلاءِ مَنَّ اللَّهُ

عليهم من بيننا؟ أليس اللّهُ بأعلمَ بالشاكرين﴾ [الأنعام: ٥٣]. وقسم الناس إلى شكور وكفور، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله، قال تعالى في الإنسان: ﴿إنَّا هديناهُ السبيلَ إمَّا شاكراً وإمَّا كفوراً﴾ [الإنسان: ٣].

وقال نبيه سليمان: ﴿هذا من فضل ربِّي ليبلوني أأشكرُ أم أكفرُ ومَنْ شكرَ فإنما يشكرُ لنفسه ومَنْ كفرَ فإنَّ ربِّي غنيٌّ كريم﴾ [النمل: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وإذ تأذَّن ربُّكم لئن شَكرتُم لأزيدنَّكم ولئن كفرتُم إنَّ عذابي لشديد﴾ [إبراهيم: ٧]. وقال تعالى: ﴿إنْ تكفروا فإنَّ اللّهَ غنيٌّ عنكم ولا يرضى لعباده الكفرَ وإنْ تشكروا يرضَهُ لكم﴾ [الزمر: ٧]. وهذا كثير في القرآن، يقابل سبحانه بين الشكر والكفر فهو ضده، قال تعالى: ﴿وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلتْ من قبله الرسل أفإن ماتَ أو قُتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلبْ على عقبيه فلن يضرَّ اللّهَ شيئاً وسيجزي اللّهُ الشاكرين﴾ [آل عمران: ١٤٤]، والشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الإيمان فلم ينقلبوا على أعقابهم، وعلَّق سبحانه المزيد بالشكر، والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره. وقد وقف سبحانه كثيراً من الجزاء على المشيئة كقوله: ﴿فسوف يغنيكُم اللّهُ من فضلهِ إنْ شاءَ﴾ [التوبة: ٢٨]، وقوله في الإجابة: ﴿فيكشفُ ما تَدْعُونَ إليه إنْ شاءَ﴾ [الأنعام: ٤١]، وقوله في الرزق: ﴿يرزقُ مَنْ يشاء﴾ [البقرة: ٢١٢]، وفي المغفرة: ﴿يغفرُ لمَنْ يشاء﴾ [آل عمران: ١٢٩]، والتوبة: ﴿ويتوبُ اللّهُ على من يشاء﴾ [التوبة: ٥١]، وأطلق جزاء الشكر إطلاقاً حيث ذكر، كقوله: ﴿وسنجزي الشاكرين﴾ [آل عمران: ١٤٥]، ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر وأنه من أجل المقامات وأعلاها، جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه فقال: ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شَمائِلهم ولا تجدُ أكثرَهم شاكرين﴾ [الأعراف: ١٧]، ووصف الله سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده فقال تعالى: ﴿وقليلٌ من عبادي الشكور﴾ [سبأ: ١٣].

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأنه سمع رجلاً يقول: اللهمَّ اجعلني من الأقلين! فقال: ما هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن الله قال: ﴿وما آمنَ معه إلا قليل﴾ [هود: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وقليلٌ من عبادي الشكور﴾ [سبأ: ١٣] وقال: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وقليلٌ ما هم﴾ [ص: ٢٤] فقال عمر: صدقت. وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر، فقال: ﴿ذريةَ من حملنا مع نوح إنَّه كانَ عبداً شكوراً﴾ [الإسراء: ٣] وفي تخصيص نوح ها هنا بالذكر وخطاب العباد بأنَّهم ذريته إشارة إلى الاقتداء به فإنه أبوهم الثاني، فإنَّ الله تعالى لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلاً إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وجعلنا ذُرِّيَّتَهُ هُم الباقين﴾ [الصافات: ٧٧] فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر فإنه كان عبداً شكوراً.

وقد أخبر سبحانه إنما يعبده من شكره، فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته فقال: ﴿واشكرُوا لله إنْ كُنتم إيَّاه تَعْبُدون﴾ [البقرة: ١٧٢] وأمر عبده موسى أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر، فقال تعالى: ﴿يا موسى إني اصطفيتُك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذْ ما آتيتُك وكنْ من الشاكرين﴾ [الأعراف: ١٤٤] وأول وصية وصَّى بها الإنسان بعدما عقل عنه بالشكر له وللوالدين، فقال: ﴿ووصينا الإنسانَ بوالديْهِ حملتْهُ أمُّه وَهْناً على وَهْن وفصالُه في عامين أن اشكر لي ولوالديْكَ إليَّ المصير﴾ [لقمان: ١٤].

وأخبر أن رضاه في شكره فقال تعالى: ﴿وإنْ تشكروا يَرْضَهُ لكم﴾ [الزمر: ٧] وأثنى سبحانه على خليله إبراهيم بشكر نعمه فقال: ﴿إن إبراهيمَ كان أمَّةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين، شاكراً لأنعمه اجتباهُ وهداه إلى صراطٍ مستقيم﴾ [النحل: ١٢١] فأخبر عنه سبحانه بأنه أمة، أي قدوة يؤتم به في الخير، وأنه قانتاً لله، والقانت هو المطيع المقيم على طاعته، والحنيف هو المقبل على الله، المعرض عما سواه، ثم ختم له بهذه

الصفات بأنه شاكر لأنعمه، فجعل الشكر غاية خليله.

وأخبر سبحانه أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره، بل هو الغاية التي خلق عبيده لأجلها ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتِكم لا تعلمونَ شيئاً وجعلَ لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ لعلَّكم تشكـرون﴾ [النحل: ٧٨] فهذه غاية الخلق، وأما غاية الأمر فقال: ﴿ولقد نصرَكم الله ببدرٍ وأنتم أذلّة فاتقوا الله لعلَّكم تشكرون﴾ [آل عمران: ٢٣] ويجـوز أن يكون قـوله ﴿لعلَّكُم تَشكرون﴾ تعليلاً لقضائه لهم بالنصر ولأمره لهم بالتقوى ولهما معاً، وهو الظاهر، فالشكر غاية الخلق والأمر، وقد صرح سبحانه بأنه غاية أمره وإرساله الرسول في قوله تعالى: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتِنا ويزكِّيكم ويعلِّمُكُم الكتابَ والحكمةَ ويعلِّمُكُم ما لم تَكونوا تَعلمون، فاذكروني أذكرْكُم واشكروا لي ولا تَكْفُرون﴾ [البقرة: ١٥٢]، قالوا: فالشكر مراد لنفسه، والصبر مراد لغيره، والصبر إنما حمد لإفضائه وإيصاله إلى الشكر، فهو خادم الشكر.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قام حتى تفطرت قدماه، فقيل له أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً». وثبت في المسند والترمذي أن النبي ﷺ قال لمعاذ: «والله إني لأحبُك فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة: «اللهمَّ أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا أبو معاوية وجعفر بن عون، عن هشام بن عروة، قال: كان من دعاء النبي: «اللهمَّ أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك». قال: وحدثنا محمود بن غيلان، حدثنا المؤمل بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة حدثنا حميد الطويل عن طلق بن حبيب عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أربع من أُعطيهن فقد أُعطي خير الدنيا والآخرة: قلباً شاكراً، ولساناً

ذاكراً، وبدناً على البلاء صابراً، وزوجةً لا تبغيه خوناً في نفسها ولا في ماله» وذكر أيضاً من حديث القاسم بن محمد، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «ما أنعم الله على عبدٍ نعمة فعلم أنها من عند الله إلا كتب الله له شكرها، وما علم الله من عبد ندامةً على ذنب إلا غفر الله له قبل أن يستغفره، وإن الرجل يشتري الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد الله فما يبلغ ركبتيه حتى يغفر له».

وقد ثبت في صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»، فكان هذا الجزاء العظيم الذي هو أكبر أنواع الجزاء، كما قال تعالى: ﴿ورضوانٌ من الله أكبرُ﴾ [التوبة: ٧٢] في مقابلة شكره بالحمد، وذكر ابن أبي الدنيا من حديث عبدالله بن صالح: حدثنا أبو زهير يحيى بن عطارد القرشي عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرزق الله عبداً الشكر فيحرمه الزيادة»، لأن الله تعالى يقول: ﴿لئنْ شكرتُم لأزيدنَّكُم﴾ [إبراهيم: ٧] وقال الحسن البصري: «إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء، فإذا لم يشكر عليها قلَبَها عذاباً»، ولهذا كانوا يسمون الشكر «الحافظ» لأنه يحفظ النعم الموجودة، و «الجالب» لأنه يجلب النعم المفقودة، وذكر ابن أبي الدنيا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال لرجل من همذان: «إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد».

وقال عمر بن عبد العزيز: «قيدوا نعم الله بشكر الله» وكان يقال «الشكر قيد النعم» وقال مطرف بن عبدالله: «لأن أعافى فأشكر أحب إلي من أن أبتلى فأصبر»، وقال الحسن: «أكثروا من ذكر هذه النعم فإن ذكرها شكر» وقد أمر الله تعالى نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال: ﴿وأمَّا بنعمةِ ربِّك فحدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، والله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته، فإن ذلك شكرها بلسان الحال، وقال علي بن الجعدي: سمعت

سفيان الثوري يقول: إن داود عليه الصلاة والسلام قال: الحمد لله حمداً كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله، فأوحى الله إليه: يا دواد أتعبتَ الملائكة.

وقال شعبة: حدثنا المفضل بن فضالة، عن أبي رجاء العطاردي قال: خرج علينا عمران بن الحصين وعليه مطرف خزٍ لم نره عليه قبل ولا بعد، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا أنعم الله على عبد نعمة يُحب أن يرى أثر نعمته على عبده»، وفي صحيفة عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «كلوا واشربوا وتصدقوا في غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

وذكر شعبة عن أبي إسحاق الأحوص، عن أبيه، قال: «أتيتُ رسول الله ﷺ وأنا قَشِفُ[1] الهيئة، فقال: هل لك من مال؟ قال: قلت: نعم، قال: من أي المال؟ قلت: من كل المال، قد آتاني الله من الإبل والخيل والرقيق والغنم، قال: فإذا آتاك الله مالاً فليُرَ عليك».

وفي بعض المراسيل: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده في مأكله ومشربه». وروى عبدالله بن يزيد المقري، عن أبي معمر، عن بكير بن عبد الله، رفعه: «من أُعطي خيراً فرؤي عليه سُمِّي حبيب الله محدثاً بنعمة الله، ومن أعطي خيراً ولم ير عليه سُمِّي بغيض الله معادياً لنعمة الله». وقال فضيل بن عياض كان يقال: من عرف نعمة الله بقلبه وحمده بلسانه لم يستتم ذلك حتى يرى الزيادة، لقول الله تعالى: ﴿لئن شكرتُم لأزيدنَّكُم﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال: من شكر النعمة أن يحدِّث بها. وقد قال تعالى في الحديث القدسي: «يا ابن آدم إذا كنت تتقلب في نعمتي وأنت تتقلب في معصيتي فاحذرني لأصرعك بين معاصي، يا ابن آدم اتقني ونم حيث شئت».

---

(١) قَشِفُ الهيئة: تارك للتنظف والغَسْل، يُقال: رجل متقشِّفٌ: إذا ترك النظافة والترفّه.

وقال الشعبي: الشكر نصف الإيمان،ة واليقين الإيمان كله، وقال أبو قلابة: لا تضركم دنيا شكرتموها. وقال الحسن: إذا أنعم الله على قوم سألهم الشكر، فإذا شكروه كان قادراً على أن يزيدهم، وإذا كفروه كان قادراً على أن يبعث نعمته عليهم عذاباً، وقد ذم الله سبحانه الكنود، وهو الذي لا يشكر نعمه. قال الحسن: «إن الإنسان لربه لكنود، يعد المصائب وينسى النعم» وقد أخبر النبي ﷺ أن النساء أكثر أهل النار بهذا السبب، قال: «لو أحسنت إلى إحداهنَّ الدهرَ ثم رأتْ منك شيئاً قالت: ما رأيتُ منكَ خيراً قط». فإذا كان هذا بترك شكر نعمة الزوج، وهي في الحقيقة من الله، فكيف بمن ترك شكر نعمة الله؟!.

يـا أيُّهـا الـظالم في فـعـله والـظلمُ مردودٌ عـلى من ظَلَم
إلى مـتى أنـتَ وحـتى مـتى تشكـو المصيباتِ وتنسى النعم

ذكر ابن أبي الدنيا من حديث أبي عبد الرحمن السلمي عن الشعبي عن النعمان بـن بشير قال: قال النبي ﷺ: «التحدث بالنعمة شكر وتركها كفر، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله، والجماعة بركة، والفرقة عذاب». وقال مطرف بن عبدالله: نظرت في العافية والشكر فوجدت فيهما خير الدنيا والآخرة، ولأن أعافى فأشكر، أحب إلي من أن أبتلى فأصبر، ورأى بكر بن عبدالله المزني حمالاً عليه حمله وهو يقول: الحمد لله، أستغفر الله، قال: فانتظرته حتى وضع ما على ظهره وقلت له: أما تحسن غير هذا؟ قال: بلى أحسن خيراً كثيراً، أقرأ كتاب الله، غير أن العبد بين نعمة وذنب، فأحمد الله على نعمه السابغة، وأستغفره لذنوبي، فقلت: الحمَّالُ أفقهُ من بكر.

وذكر الترمذي من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: «خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسنَ رداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فبأيِّ آلاءِ ربِّكُما تُكَذِّبَان﴾ قالوا: «لا بشيء من

نعمك ربنا نكذب فلك الحمد». وقال معشر: لما قيل لآل داود: ﴿اعملوا آلَ داودَ شكراً﴾ لم يأت على القوم ساعة إلا وفيهم مصلٍ.

وقال عون بن عبدالله: قال بعض الفقهاء إني رأيت في أمري، لم أر خيراً إلا شر معه إلا المعافاة والشكر، فرب شاكر في بلائه ورُب معافىً غير شاكر، فإذا سألتم الله فاسألوهما جميعاً، وقال أبو معاوية: لبس عمر بن الخطاب قميصاً، فلما بلغ ترقوته قال: الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي، وأتجمل به في حياتي، ثم مدَّ يديه فنظر شيئاً يزيد على يديه فقطعه، ثم أنشأ يحدث، قال: سمعت رسول الله يقول: «من لبس ثوباً ـ أحسبه جديداً ـ فقال حين يبلغ ترقوته، أو قال قبل أن يبلغ ركبتيه مثل ذلك، ثم عمد إلى ثوبه الخَلِقَ فكسا به مسكيناً لم يزل في جوار الله، وفي ذمة الله، وفي كنف الله، حيّاً وميتاً ما بقي من ذلك الثوب سلك».

وقال عون بن عبد الله: لبس رجل قميصاً جديداً فحمد الله فغفر له، فقال رجل: ارجع حتى أشتري قميصاً فألبسه وأحمد الله. وقال شريح: ما أصيب عبد بمصيبة إلاّ كان لله فيها ثلاثة نعم: ألا تكون كانت في دينه، وألا تكون أعظم مما كانت، وأنها لا بد كائنة فقد كانت.

وقال عبدالله بن عمر بن عبد العزيز: ما قلَّبَ عمر بن عبد العزيز بصره إلى نعمة أنعم الله بها عليه إلا قال: اللهم إني أعوذ بك أن أبدل نعمتك كفراً. وأن أكْفرها بعد أن عرفتُها، وأن أنساها ولا أثني بها، وقال روح بن القاسم: تنسَّكَ رجل فقال: لا آكل الخبيص، لا أقوم بشكره، فقال الحسن: هذا أحمق، وهل يقوم بشكر الماء البارد؟!

وفي بعض الآثار الإلْهية يقول الله عز وجل: «ابن آدم، خيري إليك نازل، وشرُّك إلي صاعد، أتحبب إليك بالنعم، وتتبغض إلي بالمعاصي، ولا يزال ملك كريم قد عرج إلي منك بعمل قبيح».

قال ابن أبي الدنيا حدثني أبو علي قال: كنت أسمع جاراً لي يقول في

الليل «يا إلهي خيرك عليَّ نازل وشري إليك صاعد، كم من ملك كريم قد صعد إليك مني بعمل قبيح، وأنت مع غناك عني تتحبب إليَّ بالنِّعم، وأنا مع فقري إليك وفاقتي أتمقت إليك بالمعاصي، وأنت في ذلك تجبرني وتسترني وترزقني. وكان أبو المغيرة إذا قيل له كيف أصبحت يا أبا محمد؟ قال: أصبحنا مغرَقين في النعم عاجزين عن الشكر يتحبّب إلينا ربنا وهو غني عنَّا ونتمقت إليه ونحن إليه محتاجون: وقال عبدالله بن ثعلبة: «إلهي من كرمك أنك تطاع ولا تُعصى، ومن حلمك أنك تُعصى وكأنَّك لا ترى، وأي زمن لم يعصك فيه سكان أرضك وأنت بالخير عواد. وكان معاوية بن قرة إذا لبس ثوباً جديداً قال بسم الله والحمد لله. وقال أنس بن مالك: «ما من عبد توكل بعبادة الله إلا عزم الله السموات والأرض تعبر رزقه، فجعله في أيدي بني آدم يعملونه حتى يدفع عنه إليه، فإن العبد قبله أوجب عليه الشكر، وإن أباه وجد الغني الحميد عباداً فقراء يأخذون رزقه ويشكرون له».

وقال يونس بن عبيد: «قال رجل لأبي تميمة: كيف أصبحت؟ قال أصبحت بين نعمتين لا أدري أيتهما أفضل، ذنوب سترها الله فلا يستطيع أن يعيرني بها أحد، ومودة قذفها الله في قلوب العباد لا يبلغها عملي».

وروى ابن أبي الدنيا عن سعيد المقبري عن أبيه عن عبدالله بن سلام أن موسى عليه السلام قال: «يا رب ما الشكر الذي ينبغي لك؟ قال: لا يزال لسانك رطباً من ذكري»، وروى سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ فانطلقنا معه، فلما طعم وغسل يديه قال: الحمد لله الذي يُطْعِم ولا يُطْعَم، منّ علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا، وكلّ بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مُوَدَّعٍ ربي ولا مُكافأ ولا مكفور ولا مستغنى عنه، الحمد لله الذي أطعم من الطعام، وسقى من الشراب، وكسى من العري، وهدى من الضلالة، وبَصَّر من العمى، وفضل على كثير من خلقه تفضيلاً، الحمد لله رب العالمين».

وفي مسند الحسن بن الصلاح من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل ولا مال أو ولد فيقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فَيُرى فيه آفة دون الموت، ويذكر عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فرأى كسرة ملقاة فمسحها وقال: يا عائشة أحسني جوار نعم الله فإنها قلَّما نفرت عن أهل بيت فكادت أن ترجع إليهم، ذكره ابن أبي الدنيا.

وقال الإمام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا صالح عن أبي عمران الجوني عن أبي الخلد قال: قرأت في مسألة داود أنه قال: «يا رب كيف لي أن أشكر وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمك»، قال فأتاه الوحي: «يا داود أليس تعلم أن الذي بك من النعم مني؟ قال: بلى يا رب، قال: فإني أرضى بذلك منك شكراً».

وقال عبدالله بن أحمد حدثنا أبو موسى الأنصاري حدثنا أبو الوليد عن سعيد بن عبد العزيز قال: كان من دعاء داود: سبحان مستخرج الشكر بالعطاء، ومستخرج الدعاء بالبلاء. وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثني الأعمش عن المنهال عن عبدالله بن الحارث قال: أوحى الله إلى داود: «أحبني وأحب عبادتي وحببني إلى عبادي، قال يا رب هذا حبك وحب عبادتك فكيف أحببك إلى عبادك؟ قال: تذكرني عندهم فإنهم لا يذكرون مني إلا الحسن، فجل جلال ربنا وتبارك اسمه وتعالى جده وتقدست أسماؤه وجلّ ثناؤه ولا إله غيره.

وقال أحمد حدثنا عبد الرزاق بن عمران قال: سمعت وهباً يقول: «وجدت في كتاب آل داود: بعزّتي إن من اعتصم بي فإن كادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن فإني أجعل له من بين ذلك مخرجاً، ومن لم يعتصم بي فإني أقطع يديه من أسباب السماء وأخسف به من تحت قدميه الأرض فأجعله في الهواء ثم أَكِلُهُ إلى نفسه، كفى بي لعبدي مالاً، إذا كان

عبدي في طاعتي أعطيته قبل أن يسألني. وَأَجَبْتُه قبل أن يدعوني، وإني أعلم بحاجته التي ترفق به من نفسه.

وقال أحمد حدثنا يسار حدثنا حفص حدثنا ثابت قال: كان داود عليه السلام قد جزأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم يكن ساعةً من ليل أو نهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي فيها، قال: فعمهم تبارك وتعالى في هذه الآية ﴿اعملوا آل داود شكراً، وقليلٌ من عبادي الشكور﴾.

قال أحمد وحدثنا جابر بن زيد عن المغيرة بن عيينة، قال داود، يا رب هل بات أحد من خلقك الليلة أطول ذكراً لك مني؟ فأوحى الله إليه: نعم الضفدع، وأنزل الله عليه: ﴿اعملوا آلَ داودَ شكراً وقليلٌ من عبادي الشَّكُور﴾ قال يا رب: كيف أطيق شكرك وأنت الذي تنعم عليَّ، ثم ترزقني على النعمة الشكر ثم تزيدني نعمة بعد نعمة فالنعم منك والشكر منك، فكيف أطيق شكرك؟ قال: الآن عرفتني يا داود. قال أحمد وحدّثنا عبد الربيع بن صبيح عن الحسن قال نبي الله داود: «إلٰهي لو أن لكل شعرة مني لسانين يسبحانك الليل والنهار والدهر ما وفيت حق نعمة واحدة».

وذكر ابن أبي الدنيا عن أبي عمران الجوني عن أبي الخلد قال: قال موسى يا رب كيف لي أن أشكرك وأصغر نعمة وضعتها عندي من نعمك لا يجازي بها عملي كله، قال فأتاه الوحي: يا موسى الآن شكرتني.

قال بكر بن عبدالله: ما قال عبد قط الحمد لله إلا وجبت عليه نعمة بقوله الحمد لله فجزاء تلك النعمة أن يقول: الحمد لله، فجاءت نعمة أخرى فلا تنفد نعم الله، وقال الحسن سمع نبي الله رجلاً يقول: «الحمد لله بالإسلام، فقال: إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة، وقال خالد بن معدان: سمعت عبد الملك بن مروان يقول: «ما قال عبد كلمة أحب إلى الله وأبلغ في الشكر عنده من أن يقول: الحمد لله الذي أنعم علينا وهدانا للإسلام».

وقال سليمان التيمي: إن الله سبحانه أنعم على عبده على قدره وكلفهم الشكر على قدرتهم، وكان الحسن إذا ابتدأ حديثه يقول: الحمد لله، اللهم ربنا لك الحمد بما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وعلمتنا وأنقذتنا وفرجت عنا، لك الحمد بالإسلام والقرآن، ولك الحمد بالأهل والمال والمعافاة، كَبَتَّ عدونا وبسطت رزقنا، وأظهرت أمننا وجمعت فرقتنا، وأحسنت معافاتنا، ومن كل ما سألناك ربنا أعطيتنا، فلك الحمد على ذلك حمداً كثيراً، لك الحمد بكل نعمة أنعمت بها علينا في قديم أو حديث أو سراً أو علانية أو خاصة أو عامة، أو حي أو ميت أو شاهد أو غائب، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت.

وقال الحسن: قال موسى: يا رب كيف يستطيع آدم أن يؤدي شكر ما صنعت إليه، خلقته بيدك ونفخت فيه من روحك، وأسكنته جنّتك، وأمرت الملائكة فسجدوا له؟ فقال: يا موسى علم أن ذلك مني فحمدني عليه، فكان ذلك شكر ما صنعت إليه. وقال سعد بن مسعود الثقفي إنما سمي نوح عبداً شكوراً لأنه لم يلبس جديداً ولم يأكل طعاماً إلا حَمَدَ الله. وكان علي بن أبي طالب إذا خرج من الخلاء مسح بطنه بيده وقال: يا لها من نعمة لو يعلم العباد شكرها.

وقال مخلد بن الحسين كان يقال: الشكر ترك المعاصي، وقال أبو حازم: كل نعمة لا تقرِّب من الله فهي بلية. وقال سليمان: ذكر النعم يورث الحب لله. وقال حماد بن زيد: حدَّثنا ليث عن أبي بردة قال: قدمت المدينة فلقيت عبدالله بن سلام فقال لي أَلَا تدخل بيتاً دخله النبي ﷺ ونطعمك سويقاً وتمراً؟ ثم قال: إن الله إذا جمع الناس غداً ذكّرهم بما أنعم عليهم، فيقول العبد ما آية ذلك فيقول: آية ذلك أنك كنت في كربة كذا وكذا قد دعوتني فكشفتها، وآية ذلك أنك كنت في سفر كذا وكذا فاستصحبتني فصحبتك، قال: يذكره حتى يذكر، فيقول: آية ذلك أنك خطبت فلانة بنت فلان وخطبها معك خُطَّاب فزوجتك ورددتهم، يقف

عبده بين يديه فيعدد عليه نعمه فبكى ثم بكى ثم قال: إني لأرجو الله أن لا يقعد الله عبداً بين يديه فيعذبه.

وروى ليث بن أبي سليم عن عثمان عن ابن سيرين عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ يؤتى بالنعم يوم القيامة والحسنات والسيئات فيقول الله عز وجل لنعمة من نعمه: «خـذي حقك من حسناته فما تترك له من حسنة إلا ذهبت بها».

وقال بكر بن عبدالله المزني: ينزل بالعبد الأمر فيدعو الله فيُصرف عنه، فيأتيه الشيطان فيضعف شكره، يقول: إن الأمر كان أيسر مما تذهب إليه، قال: أو لا يقول العبد كان الأمر أشد مما أذهب إليه، ولكن الله صرفه عني. وذكر ابن أبي الدنيا عن صدقة بن يسار قال: بينا داود عليـه السلام في محرابه إذ مرت به ذرة فنظر إليها وفكر في خلقها وعجب منها، وقال ما يعبؤ الله بهذه؟ فأنطقها الله فقالت: يا داود أتعجبك نفسُك؟ فوالذي (نفسي) بيده لأنا على ما آتاني الله من فضله أشكر منك على ما آتاك الله من فضله.

وقال أيوب: إن من أعظم نِعَـم الله على عبده أن يكون مأموناً على ما جاء به النبي ﷺ. وقال سفيان الثوري: كان يقال ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة. وقال زازان: مما يجب لله على ذي النعمة بحق نعمته أن لا يتوصل بها إلى معصية. قال ابن أبي الدنيا أنشدني محمود الوراق:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... عليَّ له في مثلهـا يجبُ الشكرُ
فكيف وقوعُ الشكر إلا بفضلهِ ... وإن طالتِ الأيَّامُ واتَّصَل العمرُ
إذا مسَّ بالسَّرَّاءِ عمَّ سـرورُها ... وإن مسَّ بالضرَّاءِ أعقَبها الأجرُ
ومـا منهـا إلا لـــه فيـه مِنّـــةٌ ... تضيقُ بها الأوهامُ والبَرُّ والبحرُ

وقد روى الدراوردي عن عمرو بن أبي عمرو عن سعيد المقبري عن أبي

هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يعني قال الله عز وجل: أن المؤمن عندي بمنزلة كل خير، يحمدني وأنا أنزع نفسه من بين جنبيه. ومر محمد بـن المنكدر بشاب يغامز امرأة فقال: يا فتى ما هذا جزاء نعم الله عليك. وقال حماد بن سلمة عن ثابت قال: قال أبو العالية: إني لأرجو أن لا يهلك عبد بين اثنتين: نعمة يحمد الله عليها وذنب يستغفر منه.

وكتب ابن السماك إلى محمد بن الحسن حين ولي القضاء بالرقة (أما بعد) فلتكن التقوى من بالك على كل حال، وخف الله من كل نعمة أنعم بها عليك من قلة الشكر عليها مع المعصية بها، فإن في النعم حجة وفيها تبعة، فأما الحجة بها فالمعصية بها، وأما التبعة فيها فقلة الشكر عليها، فعفى الله عنك كلما ضيعت من شكر أو ركبت من ذنب أو قصرت من حق. ومر الربيع بن أبي راشد برجل به زمانة فجلس يحمد الله ويبكي، قيل له ما يبكيك؟ قال: ذكرت أهل الجنة وأهل النار فشبهت أهل الجنة بأهل العافية وأهل النار بأهل البلاء، فذلك الذي أبكاني.

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ إذا أحب أحدكم أن يرى قدر نعمة الله عليه فلينظر إلى من تحته ولا ينظر إلى من فوقه، قال عبدالله بن المبارك: أخبرني يحيى بن عبدالله قال: سمعت أبي قال: سمعت أبي هريرة فذكره.

وقال ابن المبارك حدثنا يزيد بن إبراهيم عن الحسن قال: قال أبو الدرداء من لم يعرف نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قل عمله و حضـر عذابه. قال ابن المبـارك: أخبرنـا مالـك بن أنس عن إسحق بن عبدالله بن أبي طلحة عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه سلَّم على رجل فرد عليه السلام فقال عمر للرجل: كيف أنت؟ قال الرجل: أحمد إليك الله، قال: هذا ما أردت منك. قال ابن المبارك: وأخبرنا مسعود عن علقمة بن مرقد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لعلنا نلتقي في اليوم مراراً يسأل بعضنا عن بعض ولم يرد بذلك إلا

ليحمد الله عز وجل. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنةً﴾ [لقمان: ٢٠] قال: لا إلّه إلا الله. وقال ابن عيينة: ما أنعم الله على العباد نعمة أفضل من أن عرفهم لا إلّه إلا الله، قال: وإن لا إلّه إلا الله لهم في الآخرة كالماء في الدنيا.

وقال بعض السلف في خطبته يوم عيد: أصبحتم زهراً وأصبح الناس غبراً، أصبح الناس ينسجون وأنتم تلبسون، وأصبح الناس يُعطون وأنتم تأخذون، وأصبح الناس ينتجون وأنتم تركبون، وأصبح الناس يزرعون وأنتم تأكلون، فبكى وأبكاهم.

وقال عبدالله بن قرط الأزدي ـ وكان من الصحابة ـ على المنبر وكان يوم أضحى ورأى على الناس ألوان الثياب: يا لها من نعمة ما أشبعها، ومن كرامة ما أظهرها، ما زال عن قوم شيئاً أشد من نعمة لا يستطيعون ردها، وإنما تثبت النعمة بشكر المُنْعَم عليه للمنعِم.

وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: أن رجلاً بُسط له من الدنيا فانْتُزع ما في يديه فجعل يحمد الله ويثني عليه حتى لم يكن له فراش إلا بارية، قال: فجعل يحمد الله ويثني عليه، وبسط لآخر من الدنيا فقال لصاحب البارية: أرأيتك أنت على ما تحمد الله؟ قال: أحمده على ما لو أعطيت به ما أعطي الخلق لم أعطهم إياه. قال: وما ذاك؟ قال: أرأيتك بصرك، أرأيتك لسانك، أرأيتك يديك، أرأيتك رجليك. وجاء رجل إلى يونس بن عبيد يشكو ضيق حاله فقال له يونس: أيسرك ببصرك هذه مائة ألف درهم؟ قال الرجل: لا، قال: فبيديك مائة ألف؟ قال: لا، فبرجليك مائة ألف؟ قال: لا، قال: فذكره نعم الله عليه، فقال يونس: أرى عندك مئين الألوف وأنت تشكو الحاجة، وكان أبو الدرداء يقول: الصحة: الملك.

وقال جعفر بن محمد رضي الله عنه: فَقَد أبي بغلةً له فقال: إنْ ردَّها الله لأحمدنه بمحامد يرضاها فما لبث أن أتي بسرجها ولجامها، فركبها فلما

استوى عليها وضم إليه ثيابه رفع رأسه إلى السماء فقال: الحمد لله لم يزد عليها، فقيل له في ذلك، فقال: هل تركت وأبقيت شيئاً جعلت الحمد كله لله.

وروى ابن أبي الدنيا من حديث سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة عن أبيه عن جده قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً من الأنصار وقال: إن سلَّمهم الله وغَنِمهم فإن لله عليَّ في ذلك شكراً، قال: فلم يلبثوا أن غنموا وسلموا، فقال بعض أصحابه: سمعناك تقول: إن سلمهم الله وغنمهم فإن لله عليَّ في ذلك شكراً؟ قال: قد فعلت «اللهم لك الحمد شكراً ولك المن فضلاً».

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال محمد بن المنكدر لأبي حازم: يا أبا حازم ما أكثر من يلقاني فيدعو لي بالخير، ما أعرفهم وما صنعت إليهم خيراً قط؟ فقال أبو حازم لا تظن أن ذلك من قبلك، ولكن انظر إلى الذي ذلك من قَبلِه فاشكره، وقرأ أبو عبد الرحمن ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدّاً﴾ [مريم: ٩٦]. وقال علي بن الجعد حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون حدثني من أصدقه، أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يقول في دعائه: أسألك تمام النعمة في الأشياء كلها، والشكر لك عليها حتى ترضى وبعد الرضا، والخيرة في جميع ما تكون فيه الخيرة بجميع ميسور الأمور كلها لا معسورها يا كريم.

وقال الحسن: ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله إلا كان ما أعطي أكثر مما أخذ، قال ابن أبي الدنيا: وبلغني عن سفيان بن عيينة أنه قال: هذا خطأ لا يكون فعل العبد أفضل من فعل الله، ثم قال: وقال بعض أهل العلم إنما تفسير هذا أن الرجل إذا أنعم الله عليه نعمة وهو ممن يجب عليه أن يحمده عرفه ما صنع به فيشكر الله كما ينبغي له أن يشكره، فكان الحمد له أفضل.

قلت: لا يلزم الحسن ما ذُكر عن ابن عيينة، فإن قوله الحمد لله

نعمة من نعم الله، والنعمة التي حمد الله عليها أيضاً نعمة من نعم الله، وبعض النعم أجل من بعض، فنعمة الشكر أجلُّ من نعمة المال والجاه والولد والزوجة ونحوها والله أعلم. وهذا لا يستلزم أن يكون فعل العبد أفضل من فعل الله وإن دل على أن فعل العبد للشكر قد يكون أفضل من بعض مفعول الله، وفعل العبد هو مفعول الله، ولا ريب أن بعض مفعولاته أفضل من بعض.

وقال بعض أهل العلم: لنعم الله علينا فيما رُوي عنا من الدنيا أفضل من نعمه علينا فيما بسط لنا منها، وذلك أن الله لم يرض لنبيه الدنيا، فإن أكون فيما رضي الله لنبيه وأَحَبَّ له أحبُّ إليَّ من أن أكون فيما كره له وسخطه.

وقال ابن أبي الدنيا بلغني عن بعض العلماء أنه قال: ينبغي للعالم أن يحمد الله على ما زُوِي عنه من شهوات الدنيا كما يحمده على ما أعطاه، وأين يقع ما أعطاه الله، والحساب يأتي عليه، إلى ما عافاه الله ولم يبتله به فيشغل قلبه ويتعب جوارحه، فيشكر الله على سكون قلبه وجمع همه.

وحدَّث عن ابن أبي الحواري قال: جلس فضيل بن عياض وسفيان بن عيينة ليلةً إلى الصباح يتذاكران النعم، فجعل سفيان يقول: «أنعم الله علينا في كذا وكذا، أنعم الله علينا في كذا فعل بنا كذا»، وحدثنا عبدالله بن داود عن سفيان في قوله: ﴿سنستدرجُهم من حيثُ لا يَعلمون﴾ [القلم: ٤٤] قال: يسبغ عليهم النعم ويمنعهم الشكر. وقال غير سفيان: كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة. وسُئل ثابت البناني عن الاستدراج فقال: ذلك مكر الله بالعباد المضيِّعين، وقال يونس في تفسيرها: أن العبد إذا كانت له عند الله منزلة فحفظها وبقي عليها ثم شكر الله بما أعطاه، أعطاه أشرف منها، وإذا هو ضيع الشكر استدرجه الله، وكان تضييعه الشكر استدراجاً. وقال أبو حازم: نعمة الله فيما زُوِي عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما أعطاني منها، إني رأيته أعطاها أقواماً فهلكوا،

وكل نعمة لا تقرب من الله فهي بلية، وإذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره.

وذكر كاتب الليث عن هقل عن الأوزاعي أنه وعظهم فقال في موعظته: أيها الناس تقووا بهذه النعم التي أصبحتم فيها، على الهرب من نار الله الموقدة التي تتطلع على الأفئدة فإنكم في دار، الثوى فيها قليل وأنتم فيها مرجون خلائف من بعد القرون الذين استقبلوا من الدنيا أنفعها وزهرتها، فهم كانوا أطول منكم أعماراً وأمد أجساماً وأعظم آثاراً، فقطعوا الجبال، وجابوا الصخور، ونقبوا في البلاد مؤيدين ببطش شديد وأجسام كالعماد، فما لبثت الأيام والليالي أن طوت مددهم وعفت آثارهم وأخوت منازلهم وأنست ذكرهم فما تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزاً، كانوا يلهون آمنين لبيات قوم غافلين أو لصباح قوم نادمين، ثم إنكم قد علمتم الذي نزل بساحتهم بياتاً من عقوبة الله، فأصبح كثير منهم في دارهم جاثمين، وأصبح الباقون ينظرون في آثارهم نقمة وزوال نعمة ومساكن خاوية، فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم وعبرة لمن يخشى، وأصبحتم من بعدهم في أجل منقوص، ودنيا مقبوضة، وزمان قد ولى عفوه، وذهب رخاؤه، فلم يبق منه إلا حماة شر وصبابة كدر وأهاويل عبر وعقوبات غير وإرسال فتن وتتابع زلازل ورذلة خلف، بهم ظهر الفساد في البر والبحر، ولا تكونوا أشباهاً لمن خدعه الأمل وغره طول الأجل وتبلّغ بطول الأماني، نسألُ الله أن يجعلنا وإياكم ممن وعى إنذاره وعقل بشراه فمهد لنفسه.

وكان يقال: الشكر ترك المعصية، وقال ابن المبارك: قال سفيان ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة. وكان مروان بن الحكم إذ ذكر الإسلام قال: بنعمة ربي وصلت إليه لا بما قدمت يدي ولا بإرادتي إني كنت خاطئاً.

وكمْ من مدخل لو مِتُّ فيه لكنتُ فيه نكالاً في العشيرة
وُقيتُ السوءَ والمكروه فيه وظفرتُ بنعمة منه كبيرة

وكـم من نـعـمـةٍ لله تُمـسـي وتُصبح في العيان وفي السريرة

ودعي عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى قوم على ريبة فـانطلق ليأخذهم فتفرقوا قبل أن يبلغهم فأعتق رقبة شكراً لله أن لا يكون جرى على يديه خزي مسلم. قال يزيد بن هرون: أخبرنا أصبـغ بن يزيـد أن نوحاً ﷺ كان إذا خرج من الخلاء قال: الحمد لله الذي أذاقني لذته وأبقي منفعته في جسدي وأذهب عني أذاه، فسمي عبداً شكوراً. وقال ابن أبي الدنيا: حدثني العباس بن جعفر عن الحارث بن شبل قال: حدثتنا أم النعمان أن عائشة حدثتها عن النبي ﷺ أنه لم يقم عن خلاء قط إلا قاله.
وقال رجل لأبي حازم: ما شكر العينين يا أبا حازم؟ قال: إن رأيت بهما خيراً أعلنته وإن رأيت بهما شراً سترته، قال: فما شكر الأذنين؟ قال: إن سمعت بهما خيراً وعيته، وإن سمعت بهما شراً دفعته، قال: فما شكـر اليدين؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما ولا تمنع حقاً لله هو فيهما، قال: فما شكر البطن؟ قال: أن يكون أسفله طعاماً وأعلاه علماً، قال: فما شكر الفرج؟ قال: قال الله: ﴿والذينَ هم لفروجِهم حافظونَ إلاَّ على أزواجَهَم أو ما ملكتْ أيمانُهم فإنَّهم غيرُ ملومينَ، فمنِ ابْتغى وراءَ ذلك فأولئكَ هم العَادُون﴾ [المؤمنون: ٧] قال: فما شكر الرجلين؟ قـال إن علمت ميتاً تغبطه استعملت بهما عمله، وإن مقته رغبت عن عمله وأنت شاكر لله.

وأما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه، فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه فما ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر.

وذكر عبدالله بن المبارك أن النجاشي أرسـل ذات يوم إلى جعفـر وأصحابه فدخلوا عليه وهو في بيت عليه خلمان جالس على التراب، قـال جعفر: فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال، فلما رأى ما في وجوهنا قال: إني أبشركم بما يسركم إنه جاءني من نحو أرضكم عين لي فأخبرني أن الله قد نصر نبيه ﷺ وأهلك عدوه وأسر فلان وفلان وقتل فلان وفلان، التقوا بواد يقال له بدر كثير الأراك كأني أنظر إليه كنت أرعى به لسيدي رجل من

بني ضمرة، فقال له جعفر: «ما بالك جالساً على التراب ليس تحتك بساط وعليك هذه الأخلاق ، قال: إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى ﷺ أن حقاً على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعاً عندما أحدث الله لهم من نعمه، فلما أحدث الله لي نصر نبيّه أحدثت لله هذا التواضع.

وقال حبيب بن عبيد: ما ابتلى الله عبداً ببلاء إلا كان له عليه فيه نعمة ألَّا يكون أشد منه. وقال عبد الملك بن إسحاق: ما من الناس إلا مبتلى بعافية لينظر كيف شكره، أو بلية لينظر كيف صبره.

وقال سفيان الثوري: لقد أنعم الله على عبد في حاجة أكثر من تضرعه إليه فيها وكان رسول الله ﷺ إذا جاءه أمر يُسِرُّهُ خر لله ساجداً شاكراً له عز وجل. ذكره أحمد. وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: «خرج علينا النبي ﷺ فتوجه نحو صدقته فدخل فاستقبل القبلة فخر ساجداً فأطال السجود، فقلت يا رسول الله: سجدت سجدة حسبت أن يكون الله قد قبض نفسك فيها، فقال: «إن جبريل أتاني فبشرني أن الله عز وجل يقول لك: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه فسجدت لله شكراً» ذكره أحمد.

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ من مكة نريد المدينة، فلما كنا قريباً من عزور، نزل ثم رفع يديه ودعا الله ساعةً ثم خر ساجداً، فمكث طويلاً، ثم قام، فرفع يديه ساعةً ثم خر ساجداً ـ فعله ثلاثاً ـ وقال: إني سألت ربي وشفعت لأمتي فأعطاني ثلث أمتي فخررت ساجداً شكراً لربي، ثم رفعت رأسي فسألت ربي لأمتي فأعطاني ثلث أمتي، فخررت ساجداً لربي ثم رفعت رأسي فسألت ربي فأعطاني الثلث الآخر فخررت ساجداً لربي. رواه أبو داود.

وذكر محمد بن إسحاق في كتاب الفتوح قال: لما جاء المبشِّر يوم بدر بقتل أبي جهل استحلفه رسول الله ﷺ ثلاثة أيمان بالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيته قتيلاً، فحلف له فخرَّ رسول الله ﷺ ساجداً.

وذكر سعيد بن منصور أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سجد حين جاءه قتل مسيلمة. وذكر أحمد أن علياً رضي الله عنه سجد حين وجد ذا الثدية في الخوارج، وسجد كعب بن مالك في عهد النبي ﷺ لما بشر بتوبة الله عليه، والقصة في الصحيحين.

فإن قيل فنعم الله دائماً مستمرة على العبد فما الذي اقتضى تخصيص النعمة الحادثة بالشكر دون الدائمة، وقد تكون المستدامة أعظم، قيل الجواب من وجوه: أحدها أن النعمة المتجددة تُذَكِّر بالمستدامة، والإنسان موكل بالأدنى.

الثاني: أن هذه النعمة المتجددة تستدعي عبودية مجددة وكان أسهلها على الإنسان وأحبُّها إلى الله السجود شكراً له.

الثالث: أن المتجددة لها وقع في النفوس، والقلوب بها أعلق، ولهذا يُهَنَّى بها ويُعَزَّى بفقدها.

الرابع: أن حدوث النعم توجب فرح النفس وانبساطها، وكثيراً ما يجر ذلك إلى الأشر والبطر، والسجود ذل لله وعبودية وخضوع، فإذا تلقى به نعمته لسروره وفرح النفس وانبساطها فكان جديراً بدوام تلك النعمة، وإذا تلقاها بالفرح الذي لا يحبه الله والأشر والبطر كما يفعله الجهال عندما يحدث الله لهم من النعم كانت سريعة الزوال وشيكة الانتقال وانقلبت نقمة، وعادت استدارجاً. وقد تقدم أمر النجاشي، فإن الله إذا أحدث لعبده نعمةً أحب أن يحدث لها تواضعاً، وقال العلاء بن المغيرة: بشَّرتُ الحسنَ بموت الحجاج وهو مختف، فخر لله ساجداً.

فصل: ومن دقيق نعم الله على العبد التي لا يكاد يُفطن لها أنه يغلق عليه بابه فيرسل الله إليه من يطرق عليه الباب يسأله شيئاً من القوت ليعرِّفه نعمته عليه.

وقال سلام بن أبي مطيع: دخلتُ على مريضٍ أعوده فإذا هو يئن،

فقلت له: اذكر المطروحين على الطريق، اذكر الذين لا مأوى لهم ولا لهم من يخدمهم، قال: ثم دخلت عليه بعد ذلك، فسمعته يقول لنفسه: اذكري المطروحين في الطريق، اذكري من لا مأوى له ولا له من يخدمه.

وقال عبد الله بن أبي نوح: قال لي رجل على بعض السواحل: كم عاملته تبارك اسمه بما يكره فعاملك بما تحب؟ قلت: ما أحصي ذلك كثرةً، قال: فهل قصدت إليه في أمر كربك فخذلك؟ قلت: لا والله. ولكنه أحسن إليَّ وأعانني. قال: فهل سألته شيئاً فلم يعطكه؟ قلت: وهل منعني شيئاً سألته؟ ما سألته شيئاً قط إلا أعطاني، ولا استعنت به إلا أعانني. قال: أرأيت لو أنَّ بعض بني آدم فعل بك بعض هذه الخلال ما كان جزاؤه عندك؟ قلت: ما كنت أقدر له مكافأة ولا جزاء. قال: فربُّك أحق وأحرى أن تدأب نفسك له في أداء شكره، وهو المحسن قديماً وحديثاً إليك، والله لشكره أيسر من مكافأة عباده، إنه تبارك وتعالى رضي من العباد بالحمد شكراً. وقال سفيان الثوري: ما كان الله لينعم على عبد في الدنيا فيفضحه في الآخرة، ويحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه.

وقال ابن أبي الحواري، قلت لأبي معاوية: ما أعظم النعمة علينا في التوحيد نسأل الله أن لا يسلبنا إياه. قال: يحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه، والله أكرم من أن ينعم بنعمة إلا أتمها، ويستعمل بعمل إلا قبله. وقال ابن أبي الحواري قالت لي امرأة: أنا في بيتي أمرٌ قد شغل قلبي. قلت: وما هو؟ قالت: أريد أن أعرف نعم الله عليَّ في طرفة عين، أو أعرف تقصيري عن شكر النعمة عليَّ في طرفة عين قلت تريدين ما لا تهتدي إليه عقولنا.

وقال ابن زيد: إنه ليكون في المجلس الرجل الواحد يحمد الله عز وجل فيقضي لذلك المجلس حوائجهم كلهم، قال: وفي بعض الكتب التي أنزلها الله تعالى أنه قال: «سَـرّوا عبدي المؤمن، فكان لا يأتيه شيء إلا قال الحمد لله ما شاء الله، قال روِّعوا عبدي المؤمن، فكان لا يطلع عليه طليعة

من طلائع المكروه إلا قال الحمد لله، الحمد لله، فقال الله تبارك وتعالى: إن عبدي يحمدني حين روعته كما يحمدني حين سررته، أدخلوا عبدي دار عزي كما يحمدني على كل حالاته».

وقال وهب: عبدالله عابد خمسين عاماً فأوحى الله إليه إني قد غفرت لك، قال: أي رب وما تغفر لي ولم أذنب؟ فأذن الله لعرق في عنقه يضرب عليه فلم ينم ولم يصل ثم سكن فنام، ثم أتاه ملك فشكا إليه فقال: ما لقيت من ضربان العرق، فقال الملك: إن ربك يقول: إن عبادتك خمسين سنة تعدل سكون العرق.

وذكر ابن أبي الدنيا أن داود قال: يا رب أخبرني ما أدنى نعمك عليَّ فأوحى الله إليه يا داود تنفس فتنفس، قال هذا أدنى نعمي عليك.

فصل: وبهذا يتبين معنى الحديث الذي رواه أبو داود من حديث زيد بن ثابت وابن عباس: «إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم». والحديث الذي في الصحيح: «لن يُنجي أحداً منكم عملُه، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل، فإن أعمال العبد لا تُوافي نعمة من نعم الله عليه».

أما قول بعض الفقهاء أن من حلف أن يحمد الله بأفضل أنواع الحمد كان بر بيمينه أن يقول الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافىء مزيده فهذا ليس بحديث عن رسول الله ﷺ ولا عن أحد من الصحابة وإنما هو إسرائيلي عن آدم، وأصح منه الحمد لله غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا، ولا يمكن حمد العبد وشكره أن يوافي نعمة من نعم الله فضلاً عن موافاته جميع نعمه، ولا يكون فعل العبد وحمده مكافئاً للمزيد، ولكن يحمل على وجه يصح، وهو أن الذي يستحقه الله سبحانه من الحمد حمداً يكون موافياً لنعمه ومكافئاً لمزيده وإن لم يقدر العبد أن يأتي به كما إذا قال الحمد لله ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء

بعد وعدد الرمال والتراب والحصى والقَطْر، وعدد أنفاس الخلائق وعدد ما خلق الله وما هو خالق، فهذا إخبار عما يستحقه من الحمد لا عما يقع من العبد من الحمد.

فصل: وقال أبو المليح قال موسى «يا رب ما أفضل الشكر؟ قال: أن تشكرني على كل حال، وقال بكر بن عبدالله قلت لأخ لي أوصني، فقال: ما أدري ما أقول غير أنه ينبغي لهذا العبد أن لا يفتر من الحمد والاستغفار، فإن ابن آدم بين نعمة وذنب ولا تصلح النعمة إلا بالحمد والشكر، ولا يصلح بالذنب إلا بالتوبة والاستغفار فأوسعني علماً ما شئت.

وقال عبد العزيز بن داود: رأيت في يد محمد بن واسع قرحة فكأنه رأى ما شق عليَّ منها، فقال لي: أتدري ماذا لله عليَّ في هذه القرحة من نعمة حين لم يجعلها في حدقتي ولا طرف لساني ولا على طرف ذاكرتي، فهانت علي قرحته.

وروى الجويري عن أبي الورد عن الجلاح عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول ﷺ أتى على رجل وهو يقول: اللهمَّ إني أسألك تمام النعمة، فقال ابن آدم: هل تدري ما تمام النعمة؟ قال: يا رسول الله دعوت دعوة أرجو بها الخير، فقال: إن تمام النعمة فوز من النار ودخول في الجنة.

وقال سهم بن سلمة: حدثت أن الرجل إذا ذكر اسم الله على أول طعامه وحمده على آخره لم يُسأل عن نعيم ذلك الطعام.

فصل: ويدل على فضل الشكر على الصبر أن الله يحب أن يُسأل العافية وما يسأل شيئاً أحب إليه من العافية كما في المسند عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام أبو بكر رضي الله عنه على المنبر ثم قال: «سلوا الله العافية فإنه لم يعط عبداً بعد اليقين خيراً من العافية».

وفي حديث آخر إن الناس لم يعطوا في هذه الدنيا شيئاً أفضل من

العفو والعافية فسلوهما الله عز وجل، وقال لعمه العباس: يا عم أكثر من الدعاء بالعافية. وفي الترمذي قلت يا رسول الله علمني شيئاً أسأله الله؟ قال: سل الله العافية، فمكثت أياماً ثم جئت فقلت: علمني شيئاً أسأله الله؟ فقال لي: يا عباس يا عم رسول الله ﷺ سل الله العافية في الدنيا والآخرة. وقال في دعائه يوم الطائف: إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي، فلاذ بعافيته، كما استعاذ بها في قوله: أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك.

وفي حديث آخر «سلوا الله العفو والعافية والمعافاة» وهذا السؤال يتضمن العفو عما مضى والعافية في الحال والمعافاة في المستقبل بدوام العافية واستمرارها، وكان عبد الأعلى التيمي يقول: «أكثروا من سؤال الله العافية فإن المبتلى وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافى الذي لا يأمن البلاء، وما المبتلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس، وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم، ولو كان البلاء يجر إلى خير ما كنا من رجال البلاء، إنه رب بلاء قد أجهد في الدنيا وأخزى في الآخرة فما يؤمن من أطال المقام على معصية الله أن يكون قد بقي له في بقية عمره من البلاء ما يجهده في الدنيا ويفضحه في الآخرة، ثم يقول بعد ذلك: الحمد لله الذي إن نعد نعمه لا نحصيها وإن ندأب له عملاً لا نجزيها وإن نعمر فيها لا نبليها. ومر رسول الله ﷺ برجل يسأل الله الصبر، فقال: لقد سألت البلاء فاسأل العافية، وفي صحيح مسلم أنه ﷺ عاد رجلاً قد هفت ـ أي هزل ـ فصار مثل الفرخ، فقال ﷺ: هل كنت تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟ قال: نعم كنت أقول اللهمَّ ما كنت معاقبني به في الآخرة فعجّله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: سبحانه لا تطيقه ولا تستطيعه، أفلا قلت: اللهمَّ آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، فدعا الله له فشفاه. وفي الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: دعاء حفظته من رسول الله لا أدعه «اللهمَّ اجعلني أعظم شكرك، وأكثر ذكرك، وأتبع نصيحتك، وأحفظ وصيتك».

وقال شيبان: كان الحسن إذا جلس مجلساً يقول: «لك الحمد بالإسلام، ولك الحمد بالقرآن ولك الحمد بالأهل والمال، بسطت رزقنا وأظهرت أمننا وأحسنت معافاتنا ومن كل ما سألناك أعطيتنا، فلك الحمد كثيراً كما تنعم كثيراً، أعطيت خيراً كثيراً، وصرفت شراً كثيراً، فلوجهك الجليل الباقي الدايم الحمد»، وكان بعض السلف يقول: «اللهمَّ ما أصبح بنا من نعمة أو عافية أو كرامة في دين أو دنيا جرت علينا فيما مضى وهي جارية علينا فيما بقي فإنها منك وحدك لا شريك لك فلك الحمد بذلك علينا، ولك المن ولك الفضل، ولك الحمد عدد ما أنعمت به علينا وعلى جميع خلقك لا إله إلا أنت».

وقال مجاهد: إذا كان ابن عمر في سفر فطلع الفجر رفع صوته ونادى: سمع سامع بحمد الله ونعمه وحسن بلائه علينا، ثلاثاً، اللهمَّ صاحبنا فأفضل علينا عائذ بالله من النار ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثلاثاً.

وذكر الإمام أحمد أن الله سبحانه أوحى إلى موسى بن عمران عليه السلام: يا موسى كن يقظان مرتاداً لنفسك أخداناً وكل خدن لا يواتيك على مسرتي فلا تصحبه فإنه عدو لك وهو يقسي قلبك، وأكثر من ذكري حتى تستوجب الشكر وتستكمل المزيد، وقال الحسن: خلق الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى، فدبوا على وجه الأرض منهم الأعمى والأصم المبتلى، فقال آدم: يا رب ألا سويت بين ولدي؟ قال: يا آدم إني أريد أن أشكر.

وفي السنن عنه ﷺ من قال حين يصبح: اللهمَّ ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر، إلا أدى شكر ذلك اليوم، ومن قال ذلك حين يمسي فقد أدَّى شكر ليلته. ويذكر عن النبي ﷺ من ابتلي فصبر وأُعطي فشكر وظُلِم فغفر وظَلَم فاستغفر، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون، ويذكر عنه ﷺ أنه أوصى رجلاً بثلاث فقال: أكثر من ذكر الموت يشغلك عما سواه، وعليك بالدعاء

فإنك لا تدري متى يستجاب لك، وعليك بالشكر فإن الشكر زيادة.

ويذكر عنه ﷺ أنه كان إذا أكل قال: الحمد لله الذي أطعمني وسقاني وهداني وكل بلاء حسن أبلاني الحمدلله الرازق ذي القوة المتين، اللهمَّ لا تنزع منا صالحاً أعطيتنا ولا صالحاً رزقتنا واجعلنا لك من الشاكرين.

ويذكر عنه ﷺ أنه إذا أكل قال: «الحمد لله الذي أطعم وسقى وسوّغه وجعل له مخرجاً»، وكان عروة بن الزبير إذا أُتي بطعام لم يزل مخمراً حتى يقول هذه الكلمات: «الحمد لله الذي هدانا وأطعمنا وسقانا ونعّمنا، الله أكبر، اللهمَّ ألفتنا نعمتك ونحن بكل شر فأصبحنا وأمسينا بخير نسألك تمامها وشكرها لا خير إلا خيرك ولا إلّه غيرك إلّه الصالحين ورب العالمين، الحمد لله لا إلّه إلّا الله ما شاء الله لا قوة إلّا بالله اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار».

وقال وهب بن منبّه: رؤوس النعم ثلاثة: فأولها نعمة الإسلام التي لا تتم نعمة بها، والثانية نعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها، والثالثة نعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا به.

وقدم سعيد الجريري من الحج فجعل يقول: «أنعم الله علينا في سفرنا بكذا وكذا ثم قال: تعداد النعم من الشكر» ومر وهب بمُبتلى أعمى مجذوم مقعد عريان به وضح وهو يقول: «الحمد لله على نعمه، فقال رجل كان مع وهب: أي شيء بقي عليك من النعمة تحمد الله عليها؟ فقال له المُبْتَلى: ارم ببصرك إلى أهل المدينة فانظر إلى كثرة أهلها أفلا أحمد الله أنه ليس فيها أحد يعرفه غيري».

ويذكر عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أنعم الله على عبد نعمة فحمده عندها فقد أدّى شكرها»، وذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن بُختنصر أتى بدانيال فأمر به فحبس في جب وأضرى أسدين ثم خلّى بينهما

وبينه ثم فتح عليه بعد خمسة أيام فوجده قائماً يصلي والأسدان في ناحية الجب لم يعرضا له، فقال له ما قلت حتى دفع عنك؟ قال قلت: «الحمد لله الذي لا ينسى من ذَكَرَهُ والحمد لله الذي لا يخيب من رجاه، والحمد لله الذي لا يكل من توكل عليه إلى غيره، والحمد لله الذي هو ثقتنا حين تنقطع عنا الحيل، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين يسوء ظننا بأعمالنا، والحمد لله الذي يكشف عنا ضرنا بعد كربتنا، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً، والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة.

ويذكر عنه ﷺ أنه كان إذا نظر في المرآة قال: الحمدلله الذي أحسن خَلْقي وخُلُقي وزان مني ما شان من غيري.

وقال ابن سيرين: «كان ابن عمر يكثر النظر في المرآة وتكون معه في الأسفار فقلت له: ولِم؟ قال: انظر فما كان في وجهي زين فهو في وجه غيري شين أحمد الله عليه» وسئل أبو بكر بن أبي مريم ما تمام النعمة؟ قال: أن تضع رجلاً على الصراط ورجلاً في الجنة، وقال بكر بن عبدالله: يا ابن آدم إن أردت أن تعرف قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك.

وقال مقاتل في قوله: ﴿وأسبغَ عليكُم نِعَمَهُ ظاهرةً وباطنةً﴾ [لقمان: ٢٠] قال: أما الظاهرة فالإسلام وأما الباطنة فستره عليكم بالمعاصي.

وقال ابن شوذب قال عبدالله ـ يعني ابن مسعود رضي الله عنه: ـ إن لله على أهل النار مِنّة لو شاء أن يعذبهم بأشد من النار لعذبهم.

وقال أبو سليمان الداراني: جلساء الرحمن يوم القيامة من جعل فيهم خصالاً: الكرم والسخاء والحلم والرأفة والرحمة والشكر والبر والصبر، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: من رأى صاحب بلاء فقال الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضلني عليك وعلى جميع خلقه تفضيلاً فقد أدّى شكر تلك النعمة، وقال عبدالله بن وهب سمعت عبد الرحمن بن زيد يقول: الشكر يأخذ بجذم الحمد وأصله وفرعه قال: ينظر في نعم الله، في بدنه

وسمعه وبصره ويديه ورجليه وغير ذلك، ليس من هذا شيء إلا فيه نعمة من الله، حق على العبد أن يعمل في النعمة التي هي في بدنه لله في طاعته ونعمة أخرى في الرزق، وحق عليه أن يعمل لله فيما أنعم عليه به من الرزق بطاعته، فمن عمل بهذا كان قد أخذ بجذم الشكر وأصله وفرعه.

وقال كعب: «ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع له بها درجة في الأخرى، وما أنعم الله على عبد نعمة في الدنيا، فلم يشكرها لله ولم يتواضع بها إلا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقات من النار يعذبه إن شاء أو يتجاوز عنه».

وقال الحسن: من لا يرى لله عليه نعمة إلا في مطعم أو مشرب أو لباس فقد قَصُر علمه وحَضَر عذابه. وقال الحسن يوماً لبكر المزني: هات يا أبا عبدالله دعوات لإخوانك، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبي ﷺ ثم قال: والله ما أدري أي النعمتين أفضل عليَّ وعليكم، أنعمة المسلك أم نعمة المخرج إذا أخرجه منا، قال الحسن: إنها نعمة الطعام.

وقالت عائشة رضي الله عنها: «ما من عبد يشرب الماء القراح فيدخل بغير أذى ويخرج الأذى إلا وجب عليه الشكر، قال الحسن: يا لها من نعمة تدخل كل لذة وتخرج مسرحاً، لقد كان ملك من ملوك هذه القرية يرى الغلام من غلمانه يأتي الجبَّ فيكتال منه ثم يجرجر قائماً، فيقول: يا ليتني مثلك ما يشرب حتى يقطع عنه العطش، فإذا شرب كان له في تلك الشربة موتات، يا لها من نعمة.

وكتب بعض العلماء إلى أخ له، أما بعد: فقد أصبح بنا من نعم الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه فما ندري أيهما نشكر أجميل ما يستر أم قبيح ما ستر، وقيل للحسن: ها هنا رجل لا يجالس الناس، فجاء إليه فسأله عن ذلك فقال: إني أمسي وأصبح بين ذنب ونعمة فرأيت أن أشغل نفسي عن الناس بالاستغفار من الذنب والشكر لله على النعمة، فقال له الحسن: أنت

عندي يا عبدالله أفقه من الحسن فالزم ما أنت عليه. وقال ابن المبارك سمعت علياً بن صالح يقول في قوله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ [إبراهيم: ٧]، قال: أي من طاعتي، والتحقيق أن الزيادة من النعم، وطاعته من أجلّ نعمه. وذكر ابن أبي الدنيا أن محارب بن دثار كان يقوم بالليل ويرفع صوته أحياناً: أنا الصغير الذي ربيته فلك الحمد، وأنا الضعيف الذي قويته فلك الحمد، وأنا الفقير الذي أغنيته فلك الحمد، وأنا الصعلوك الذي مولته فلك الحمد، وأنا العزب الذي زوجته فلك الحمد، وأنا الساغب الذي أشبعته فلك الحمد، وأنا العاري الذي كسوته فلك الحمد، وأنا المسافر الذي صاحبته فلك الحمد، وأنا الغائب الذي رددته فلك الحمد، وأنا الراجل الذي حملته فلك الحمد. وأنا المريض الذي شفيته فلك الحمد، وأنا السائل الذي أعطيته فلك الحمد، وأنا الداعي الذي أجبته فلك الحمد، ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً.

وكان بعض الخطباء يقول في خطبته: اختطّ لك الأنف فأقامه، وأتمه فأحسن تمامه، ثم أدار منك الحدقة فجعلها بجفون مطبقة؛ وبأشفار معلقة، ونقلك من طبقة إلى طبقة، وحنن عليك قلب الوالدين برقة ومقة. فنعمه عليك مورقة وأياديه بك محدقة.

وكان بعض العلماء يقول في قوله تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [إبراهيم: ٣٤] سبحان من لم يجعل لأحد معرفة نعمه إلا العلم بالتقصير عن معرفتها كما لم يجعل لأحد إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدرك، فجعل معرفة نعمه بالتقصير عن معرفتها شكراً كما شكر علم العالمين أنهم لا يدركونه فجعله إيماناً، علماً منه أن العباد لا يتجاوزون ذلك.

وقال عبدالله بن المبارك أخبرنا مثنى بن الصباح عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: خصلتان من كانتا فيه كتبه الله صابراً شاكراً، ومن لم يكونا فيه لم يكتبه الله صابراً شاكراً؛ من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به، ومن نظر في دنياه إلى من هو دونه

فحمد الله على ما فضله به عليه، كتبه الله صابراً شاكراً، ومن نظر في دينه إلى من هو دونه ونظر في دنياه إلى من هو فوقه فأسف على ما فاته منه لم يكتبه الله صابراً شاكراً، وبهذا الإسناد عن عبدالله بن عمرو موقوفاً عليه: أربع خصال من كن فيه بنى الله له بيتاً في الجنة «من كان عصمة أمره لا إلّه إلا الله، وإذا أصابته مصيبة قال إنا لله وإنا إليه راجعون، وإذا أعطي شيئاً قال الحمد لله، وإذا أذنب قال أستغفر الله».

وقال ابن المبارك عن شبل عن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿إنَّه كانَ عبداً شكوراً﴾ [الإسراء: ٣] قال: لم يأكل شيئاً إلا حمد الله عليه، ولم يشرب شراباً قط إلا حمد الله عليه، ولم يبطش بشيء قط إلا حمد الله عليه، فأثنى الله عليه أنه كان عبداً شكوراً. وقال محمد بن كعب: كان نوح إذا أكل قال الحمد لله، وإذا شرب قال الحمد لله، وإذا لبس قال الحمد لله، وإذا ركب قال الحمد لله فسماه الله عبداً شكوراً. وقال ابن أبي الدنيا بلغني عن بعض الحكماء قال: «لو لم يعذب الله على معصيته لكان ينبغي أن لا يُعصى لشكر نعمته.

فصل: ولله تبارك وتعالى على عبده نوعان من الحقوق لا ينفك عنهما: أحدهما أمره ونهيه اللذين هما محض حقه عليه، والثاني شكر نعمه التي أنعم بها عليه فهو سبحانه يطالبه بشكر نعمه وبالقيام بأمره، فمشهد الواجب عليه لا يزال يشهده تقصيره وتفريطه أنه محتاج إلى عفو الله ومغفرته، فإن لم يداركه بذلك هلك، وكلما كان أفقه في دين الله كان شهوده للواجب عليه أتم وشهوده لتقصيره أعظم، وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله، وأكثر الديانين لا يعبؤون منها إلا بما شاركهم فيه عموم الناس.

وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لله ورسوله وعباده، ونصرة الله ورسوله. ودينه وكتابه، فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم فضلاً عن أن يريدوا فعلها، وفضلاً عن أن يفعلوها، وأقل الناس ديناً

وأمقتهم إلى الله من ترك هذه الواجبات وإن زهد في الدنيا جميعها، وقلَّ أن ترى منهم من يحمر وجهه ويمعره لله ويغضب لحرماته، ويبذل عرضه في نصرة دينه، وأصحاب الكبائر أحسن حالاً عند الله من هؤلاء. وقد ذكر أبو عمر وغيره أن الله تعالى أمر ملكاً من الملائكة أن يخسف بقرية، فقال يا رب إن فيهم فلاناً العابد الزاهد، قال: به فابدأ وأسمعني صوته، إنه لم يتمعر وجهُه فيَّ في يوم قط.

فصل: وأما شهود النعمة فإنه لا يدع له رؤية حسنة من حسناته أصلاً، ولو عمل أعمال الثقلين، فإن نعم الله سبحانه أكثر من أعماله، وأدنى نعمة من نعمه تستنفد عمله، فينبغي للعبد ألا يزال ينظر في حق الله عليه.

قال الإمام أحمد حدثنا حجاج حدثنا جرير بن حازم عن وهب قال: بلغني أن نبي الله موسى عليه السلام مر برجل يدعو ويتضرع، فقال: يا رب ارحمه فإني قد رحمته، فأوحى الله إليه: لو دعاني حتى تنقطع قواه ما استجبت له حتى ينظر في حقي عليه.

فمشاهدة العبد النعمة والواجب لا تدع له حسنة يراها؛ ولا يزال مزرياً على نفسه ذامّاً لها؛ وما أقرّ به من الرحمة إذا أعطى هذين المشهدين حقهما. والله المستعان.

الباب الحادي والعشرون

في الحكم بين الفريقين، والفصل بين الطائفتين

فنقول: كل أمرين طلبت الموازنة بينهما ومعرفة الراجح منهما على المرجوح فإن ذلك لا يمكن إلا بعد معرفة كل منهما، وقد ذكرنا حقيقة الصبر وأقسامه وأنواعه، ونذكر حقيقة الشكر وماهيته.

وقال في الصحاح: الشكر الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف،

يقال شكرته وشكرت له، واللام أفصح. وقوله تعالى: ﴿لا نُريدُ منكم جزاءً ولا شكوراً﴾ [الإنسان: ٩] يحتمل أن يكون مصدراً كالعقود وأن يكون جمعاً كالبرود والكفور، والشكران خلاف الكفران، وتشكرت له مثل شكرت له، والشكور من الدواب ما يكفيه العلف القليل، واشتكرت السماء اشتد وقع مطرها، واشتكر الضرع امتلأ لبناً، تقول منه شكرت الناقة بالكسر تشكر شكراً فهي شكرة، وشكرت الشجرة تشكر شكراً إذا خرج منها الشكير وهو ما ينبت حول الشجرة من أصلها.

فتأمل هذا الاشتقاق وطابق بينه وبين الشكر المأمور به، وبين الشكر الذي هو جزاء الرب الشكور، كيف نجد في الجميع معنى الزيادة والنماء، ويقال أيضاً دابة شكور إذا ظهرت من السمن فوق ما تُعطى من العلف.

وشكر العبد يدور على ثلاثة أركان لا يكون شكوراً إلا بمجموعها، أحدها: اعترافه بنعمة الله عليه، والثاني: الثناء عليه بها، والثالث: الاستعانة بها على مرضاته.

وأما قول الناس في الشكر، فقالت طائفة: هو الاعتراف بنعمة المنعِم على وجه الخضوع، وقيل الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه إليه، فشكر العبد ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه. وقيل شكر النعمة مشاهدة المنة وحفظ الحرمة والقيام بالخدمة، وقيل شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيلياً، وقيل الشكر معرفة العجز عن الشكر، ويقال الشكر على الشكر أتم من الشكر، وذلك أن ترى شكرك بتوفيقه، وذلك التوفيق من أجل النعم عليك، تشكر على الشكر ثم تشكره على الشكر، ألَّا ترى نفسك للنعمة أهلاً، وقيل الشكر استفراغ الطاقة في الطاعة، وقيل الشاكر الذي يشكر على الموجود، والشكور الذي يشكر على المفقود، وقيل الشاكر الذي يشكر على الرفد[1]، والشكور الذي يشكر على الرد، وقيل الشاكر الذي

---

(١) الرفد: الإعانة.

يشكر على النفع، والشكور الذي يشكر على المنع، وقيل الشاكر الذي يشكر على العطاء، والشكور الذي يشكر على البلاء.

وقال الجنيد: كنت بين يدي السري ألعب وأنا ابن سبع سنين، وبينا جماعة يتكلمون في الشكر، فقال لي: يا غلام ما الشكر؟ فقلت: ألَّا تعصي الله بنعمه، فقال: يوشك أن يكون حظك من الله لسانك، فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السري. وقال الشبلي: الشكر رؤية المنعِم لا رؤية النعم. وهذا ليس بجيد بل من تمام الشكر أن تشهد النعمة من المنعم. وقيل: الشكر قيد الموجود وصيد المفقود. وقال أبو عثمان: شكر العامة على المطعم والملبس، وشكر الخواص على ما يرد على قلوبهم من المعاني.

وحبس السلطان رجلاً فأرسل إليه صاحبه: اشكر الله! فَضُرب فأرسل إليه: اشكر الله، فجيء بمحبوس مجوسي مبطون، فقيد وجعل حلقة من قيده في رجله وحلقة في الرجل المذكور، فكان المجوسي يقوم بالليل مرات فيحتاج الرجل أن يقف على رأسه حتى يفرغ. فكتب إليه صاحبه اشكر الله! فقال له: إلى متى تقول اشكر الله وأي بلاء فوق هذا؟ فقال: ولو وضع الزنار الذي في وسطه في وسطك كما وضع القيد الذي في رجله في رجلك ماذا كنت تصنع؟ فاشكر الله. ودخل رجل على سهل بن عبدالله فقال: اللص دخل داري وأخذ متاعي، فقال: اشكر الله فلو دخل اللص قلبك ـ وهو الشيطان ـ وأفسد عليك التوحيد ماذا كنت تصنع؟.

وقيل: الشكر التلذذ بثنائه على ما لم يستوجبه من عطائه، وقيل: إذا قصرت يدك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر، وقيل: أربعة لا ثمرة لهم: مشاورة الأصم، ووضع النعمة عند من لا يشكرها، والبذر في السباخ، والسراج في الشمس.

والشكر يتعلق بالقلب واللسان والجوارح، فالقلب للمعرفة والمحبة،

واللسان للثناء والحمد، والجوارح لاستعمالها في طاعة المشكور وكفها عن معاصيه، وقال الشاعر:

أفـادتْكم النعـماءُ مني ثـلاثـةً　　　يدي ولساني والضمـيرَ المُحَجَّبَا

والشكر أخص بالأفعال، والحمد أخص بالأقوال. وسبب الحمد أعم من سبب الشكر، ومتعلق الشكر وما به الشكر أعم مما به الحمد، فما يحمد الرب تعالى عليه أعم مما يشكر عليه، فإنه يحمد على أسمائه وصفاته وأفعاله ونعمه، ويشكر على نعمه، وما يحمد به أخص مما يشكر به، فإنه يشكر بالقلب واللسان والجوارح ويحمد بالقلب واللسان.

فصل: إذا عرف هذا فكل من الصبر والشكر داخل في حقيقة الآخر لا يمكن وجوده إلا به، وإنما يعبر عن أحدهما باسمه الخاص به باعتبار الأغلب عليه والأظهر منه، وإلا فحقيقة الشكر إنما يلتئم من الصبر والإرادة والفعل، فإن الشكر هو العمل بطاعة الله وترك معصيته والصبر أصل ذلك، فالصبر على الطاعة وعن المعصية هو عين الشكر، وإذا كان الصبر مأموراً به فأداؤه هو الشكر.

فإن قيل: فهذا يفهم منه اتحاد الصبر والشكر، وإنهما اسمان لمسمى واحد وهذا محال عقلاً ولغةً وعرفاً، وقد فرَّق الله سبحانه بينهما.

قيل: بل هما معنيان متغايران، وإنما بيَّنا تلازمهما وافتقار كل واحد منهما في وجود ماهيته إلى الآخر، ومتى تجرد الشكر عن الصبر بطل كونه شكراً، وإذا تجرد الشكر عن الصبر بطل كونه صبراً، أما الأول فظاهر، وأما الثاني إذا تجرد عن الشكر كان كفوراً، ومنافاة الكفور للصبر أعظم من منافاة السخوط.

فإن قيل: بل ها هنا قسم آخر وهو أن لا يكون كفوراً ولا شكوراً، بل صابراً على مضض وكراهة شديدة فلم يأتِ بحقيقة الشكر ولم يخرج عن ماهية الصبر.

قيل: كلامنا في الصبر المأمور به الذي هو طاعة لا في الصبر الذي هو تجلد كصبر البهائم، وصبر الطاعة لا يأتي به إلا شاكر، ولكن اندرج شكره في صبره فكان الحكم للصبر، كما اندرج صبر الشكور في شكره فكان الحكم للشكر. فمقامات الإيمان لا تعدم بالتنقل فيها بل تندرج وينطوي الأدنى في الأعلى كما يندرج الإيمان في الإحسان، وكما يندرج الصبر في مقامات الرضا، لا أن الصبر يزول ويندرج الرضا في التفويض، ويندرج الخوف والرجاء في الحب لا أنهما يزولان. فالمقدور الواحد يتعلَّق به الشكر والصبر سواء كان محبوباً أو مكروهاً، فالفقر مثلاً يتعلق به الصبر وهو أخص به لما فيه من الكراهة ويتعلق به الشكر لما فيه من النعمة، فمن غلب شهود نعمته وتلذذ به واستراح واطمأن إليه عدَّه نعمة يشكر عليها، ومن غلب شهود ما فيه من الابتلاء والضيق والحاجة عده بلية يصبر عليها، وعكسه الغنى.

على أن الله سبحانه ابتلى العباد بالنعم كما ابتلاهم بالمصائب وعدَّ ذلك كله ابتلاء، فقال: ﴿ونبلوَكُم بالشرِّ والخيرِ فِتنةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقال: ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعَّمه فيقول ربي أكرمن، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهاننِ﴾ [الفجر: ١٦] وقال: ﴿إنَّا جعلنا ما على الأرضِ زينةً لها لنبلوَهُم أيُّهم أحسنُ عملاً﴾ [الكهف: ٧] وقال: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ [الملك: ٢] وقال: ﴿وهو الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ في ستة أيام وكان عرشُه على الماء ليبلوَكُم أيُّكم أحسنُ عملاً﴾ [هود: ٧] فأخبر سبحانه أنه خلق العالم العلوي والسفلي وقدر أجل الخلق وخلق ما على الأرض للابتلاء والاختبار، وهذا الابتلاء إنما هو ابتلاء صبر العباد وشكرهم في الخير والشر والسراء والضَّرَّاء، فالابتلاء من النعم من الغنى والعافية والجاه والمقدرة، وتأتي الأسباب أعظم الابتلائين، والصبر على طاعة الله أشق الصبرين، كما قال الصحابة رضي الله عنهم: ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر، والنعمة بالفقر والمرض وقبض الدنيا وأسبابها، وأذى الخلق قد يكون

أعظم النعمتين، وفرض الشكر عليها أوجب من الشكر على أضدادها، فالرب تعالى يبتلي بنعمه وينعم بابتلائه؛ غير أن الصبر والشكر حالتان لازمتان للعبد في أمر الرب ونهيه وقضائه وقدره لا يستغني عنهما طرفة عين، والسؤال عن أيهما أفضل، كالسؤال عن الحس والحركة أيهما أفضل، وعن الطعام والشراب أيهما أفضل، وعن خوف العبد ورجائه أيهما أفضل، فالمأمور لا يؤدَّى إلا بصبر وشكر، والمحظور لا يُترك إلا بصبر وشكر، وأما المقدور الذي يُقدر على العبد من المصائب، فمتى صبر عليه اندرج شكره في صبره كما يندرج صبر الشاكر في شكره.

ومما يوضح هذا أن الله سبحانه امتحن العبد بنفسه وهواه وأوجب عليه جهادهما في الله، فهو في كل وقت في مجاهدة نفسه حتى يأتي بالشكر المأمور به ويصبر عن الهوى الملهي عن طاعته فلا ينفك العبد عنهما أغنياً كان أو فقيراً، معافىً أو مبتلىً. وهذه هي مسألة الغني الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل، وللناس فيها ثلاثة أقوال، وهي التي حكاها أبو الفرج بن الجوزي وغيره في عموم الصبر والشكر أيهما أفضل، وقد احتجت كل فرقة بحجج وأدلة على قولها.

والتحقيق أن يقال: أفضلهما أتقاهما لله تعالى، فإن فرض استوائهما في التقوى استويا في الفضل، فإن الله سبحانه لم يفضل بالفقر والغنى كما لم يفضل بالعافية والبلاء، وإنما فضَّل بالتقوى، كما قال تعالى: ﴿إنَّ أكرَمكُم عند الله أتقاكُم﴾ [الحجرات: ١٣] وقد قال ﷺ: «لا فضل لعربي على عجمي، ولا فضل لعجمي على عربي إلا لتقوى، الناس من آدم وآدم من تراب». والتقوى مبنية على أصلين: الصبر والشكر، وكل من الغني والفقير لا بد له منهما، فمن كان صبره وشكره أتم كان أفضل.

فإن قيل: فإذا كان صبر الفقير أتم وشكر الغني أتم، فأيهما أفضل؟.

قيل: أتقاهما لله في وظيفته ومقتضى حاله، ولا يصح التفضيل بغير

هذا البتة، فإن الغني قد يكون أتقى لله في شكره من الفقير في صبره، وقد يكون الفقير أتقى لله في صبره من الغني فـي شكره، فلا يصح أن يقال هذا بغناه أفضل ولا هذا بفقره أفضل، ولا يصح أن يقال هذا بالشكر أفضل من هذا بالصبر ولا بالعكس؛ لأنهما مطيتان للإيمان لا بد منهما، بل الواجب أن يقال أقومهما بالواجب والمندوب هو الأفضل، فإن التفضيل تابع لهذين الأمرين، كما قال تعالى في الأثر الإلّهي: «مـا تقرب إليَّ عبدي بمثل مداومة ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبـه» فأي الرجلين كان أقوم بالواجبات وأكثر نوافل كان أفضل.

فإن قيل: فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وذلك خمسمائة عام»، قيل: هذا لا يدل على فضلهم على الأغنياء في الدرجة وعلو المنزلة وإن سبقوهم بالدخول، فقد يتأخر الغني والسلطان العادل في الدخول لحسابه، فإذا دخل كانت درجته أعلى ومنزلته أرفع كسبق الفقير القفل في المضائق وغيرها، ويتأخر صاحب الأحمال بعده، فإن قيل: فقد قال النبي ﷺ للفقراء لما شكوا إليه زيادة عمل الأغنياء عليهم بالعتق والصدقة: «ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه أدركتم به من سبقكم» فدلهم على التسبيح والتحميد والتكبير عقب كل صلاة، فلما سمع الأغنياء ذلك عملوا به فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وهذا يدل على ترجيح حال الغني الشاكر. قيل: هذا حجة للقول الذي نصرناه وهو أن أفضلهما أكثرهما نوافل، فإن استويا استويا، وها هنا قد ساوى الأغنياء الفقراء في أعمالهم المفروضة والنافلة، وزادوا عليهم بنوافل العتق والصدقة وفضلوهم بذلك فساووهم في صبرهم على الجهاد والأذى في الله والصبر عـلى المقدور، وزادوا عليهم بالشكر بنوافل المال، فلو كان للفقراء بصبرهم نوافل تزيد على نوافـل الأغنياء لفضلوهم بها.

فإن قيل: إن النبي ﷺ عرضت عليه مفاتيح كنوز الدنيا فردها،

وقال: «بل أشبع يوماً وأجوع يوماً». وقال هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز البرومات ودرعه مرهونة عند يهودي على طعام أخذه لأهله[1]».

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن عبادة بن القعقاع، عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ اجعل رزق آل محمد قوتاً»، وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل بن محمد، حدثنا عباد بن عباد، حدثنا مجالد بن سعيد، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت عليَّ امرأة من الأنصار فرأت فراش النبي ﷺ عباءة مثنية فرجعت إلى منزلها فبعثت إليَّ بفراش حشوه الصوف، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا؟ فقلت: فلانة الأنصارية دخلت عليَّ فرأت فراشك فبعثت إليَّ بهذا، فقال: رديه. فلم أرده، وأعجبني أن يكون في بيتي حتى قال لي ذلك ثلاث مرات، فقال: يا عائشة رديه، فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة، فرددته»، ولم يكن الله سبحانه ليختار لرسوله إلا الأفضل، هذا مع أنه لو أخذ الدنيا لأنفقها كلها في مرضاة الله ولكان شكره بها فوق شكر جميع العالمين.

قيل: احتج بحال رسول الله ﷺ كل واحدة من الطائفتين، والتحقيق أن الله سبحانه وتعالى جمع له بين كليهما على أتم الوجوه، وكان سيد الأغنياء الشاكرين وسيد الفقراء الصابرين، فحصل له الصبر على الفقر ما لم يحصل لأحد سواه، ومن الشكر على الغنى ما لم يحصل لغني سواه، فمن تأمل سيرته وجد الأمر كذلك، فكان ﷺ أصبر الخلق في مواطن الصبر، وأشكر الخلق في مواطن الشكر، وربه تعالى كمل له مراتب الكمال فجعله في أعلى رتب الأغنياء الشاكرين، وفي أعلى مراتب الفقراء الصابرين، قال

---

(١) كان ﷺ يعطي أهله قوت سنتهم مما يخصه من خيبر، ولكن كانوا يكثرون من الصدقة فينفد القوت فيحتاج إلى ما ذكر.

تعالى: ﴿ووجدكَ عائلاً فأغنى﴾ [الضحى: ٨] وأجمع المفسرون أن العائل هو الفقير، يقال: عال الرجل يعيل إذا افتقر، وأعال يعيل إذا صار ذا عيال، مثل لبن وأثمر وأثرى إذا صار ذا لبن وثمر وثروة، وعال يعول إذا جار، ومنه قوله تعالى: ﴿ذلك أدنى أنْ لا تَعُولوا﴾ [النساء: ٣] وقيل: المعنى ألاَّ تكثر عيالكم، والقول هو الأول لوجوه:

(أحدها) أنه لا يعرف في اللغة عال يعول إذا كثر عياله، وإنما المعروف في ذلك عال يعيل، وأما عال يعول فهو بمعنى الجور ليس إلا، هذا الذي ذكره أهل اللغة قاطبة.

(الثاني) أنه سبحانه قابل ذلك بالعدل الذي نقلهم عند خوفهم من فقده إلى الواحدة والتسري بما شاؤوا من ملك أيمانهم، ولا يحسن هنا التعليل بعدم العيال.

يوضحه الوجه (الثالث) أنه سبحانه نقلهم عند الخوف من عدم القسط في نكاح اليتامى إلى من سواهن من النساء لئلا يقعوا في ظلم أزواجهم اليتامى وجوز لهم نكاح الواحدة وما فوقها إلى الأربع، ثم نقلهم عند خوف الجور وعدم العدل في القسمة إلى الواحدة أو النوع الذي لا قسمة عليهم في الاستمتاع بهن - وهن الإماء - فانتظمت الآية ببيان الجائز من نكاح اليتامى والبوالغ، والأولى من ذينك القسمين عند خوف العدل فما لكثرة العيال مدخل ها هنا البتة.

يوضحه الوجه (الرابع): أنه لو كان المحذور كثرة العيال لما نقلهم إلى ما شاؤوا من كثرة الإماء بلا عدد، فإن العيال كما يكونون من الزوجات يكونون من الإماء ولا فرق، فإنه لم ينقلهم إلى إماء الاستخدام بل إلى إماء الاستفراش.

يوضحه الوجه (الخامس): أن كثرة العيال ليس أمراً محذوراً مكروهاً للرب تعالى كيف وخير هذه الأمة أكثرها نساء، وقد قال النبي ﷺ:

«تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم» فأمر بنكاح الولود ليحصل منها ما يكاثر به الأمم يوم القيامة.

والمقصود أنه سبحانه جعل نبيه غنياً شاكراً بعد أن كان فقيراً صابراً، فلا تحتج به طائفة لحالها إلا كان للطائفة الأخرى أن تحتج به أيضاً لحالها.

فإن قيل: فقد كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه من الشاكرين، وقد قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا عمارة، عن ثابت، عن أنس رضي الله عنه قال: بينما عائشة في بيتها سمعت صوتاً في المدينة فقالت: ما هذا؟ فقالوا: عير لعبد الرحمن قدمت من الشام تحمل من كل شيء، قال: وقد كانت سبعمائة بعير، فارتجت المدينة من الصوت، فقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبواً»، فبلغ ذلك عبد الرحمن فقال: إن استطعت لأدخلنها قائماً، فجعلها بأحمالها وأقتابها كلها في سبيل الله.

قيل: قد قال الإمام أحمد: هذا الحديث كذب منكر. قالوا وعمارة يروي أحاديث مناكير، وقال أبو حاتم الرازي: عمارة بن زاذان لا يحتج به.

قال أبو الفرج وقد روى الجراح بن منهال بإسناده، عن عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ قال له: «يا ابن عوف إنك من الأغنياء، وإنك لا تدخل الجنة إلا زحفاً، فأقرض ربك يطلق قدميك»، قال أبو عبد الرحمن النسائي: هذا حديث موضوع، والجراح متروك الحديث، وقال يحيى: ليس حديث الجراح بشيء، وقال ابن المديني: لا يكتب حديثه. وقال ابن حيان: كان يكذب، وقال الدارقطني: متروك.

فإن قيل: فما تصنعون بالحديث الذي رواه البيهقي من حديث أحمد بن علي بن إسماعيل بن محمد: حدثنا سليمان بن عبد الرحمن، أخبرني خالد بن يزيد بن أبي مالك عن أبيه، عن عطاء بن أبي رباح، عن

إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يا ابن عوف إنك من الأغنياء، ولن تدخل الجنة إلا زحفاً، فأقرض الله يطلق قدميك. قال: وما الذي أقرض يا رسول الله؟ قال: تتبرأ مما أمسيت فيه، قال: أمن كله أجمع يا رسول الله؟ قال: نعم، فخرج وهو يهتم بذلك، فأتاه جبريل فقال: مر ابن عوف فليضف الضيف، وليطعم المساكين، وليبدأ بمن يعول، وليعط السائل، فإذا فعل ذلك كان تزكية ما هو فيه».

قيل: هذا حديث باطل لا يصح عن رسول الله ﷺ فإن أحد رواته خالد بن يزيد بن أبي مالك، قال الإمام أحمد: ليش بشيء، وقال ابن معين: واهٍ. وقال النسائي: غير ثقة، وقال الدارقطني: ضعيف. وقال يحيى بن معين: لم يـرضَ أن يكذب على أبيه حتى كذب على الصحابة.

فإن قيل: فما تصنعون بالحديث الذي قاله الإمام أحمد: حدثنا الهذيل بن ميمون عن مطرح بن يزيد عن عبيدالله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة فسمعت خشفة بين يدي، قلت: ما هذا؟ قال: بلال، فمضيت فإذا أكثر أهل الجنة فقراء المهاجرين وذراري المسلمين، ولم أر فيها أحداً أقل من الأغنياء والنساء! قيل لي: أما الأغنياء فهم في الباب يحاسبون ويمحصون، وأما النساء فألهاهن الأحمران: الذهب والحرير، ثم خرجنا من أحد أبواب الجنة الثمانية، فلما كنت عند الباب أتيت بكفة فوضعت فيها ووضعت أمتي في كفة فرُجحت بها، ثم أتي بأبي بكر فوضع في كفة، وجيء بجميع أمتي فوُضعوا في كفة فرجح أبو بكر، ثم أتي بعمر فوضع في كفة ووضع أمتي في كفة، فرجح عمر، وعرضت عليَّ أمتي رجلاً رجلاً فجعلوا يمرون واستبطأت عبد الرحمن بن عوف، ثم جاء بعد الإياس فقلت: عبد الرحمن، فقال: بأبي وأمي يا رسول الله، والذي بعثك بالحق ما خلصت إليك حتى ظننت إني لا أصل إليك إلا بعد المشيبات، قلت: وما ذاك؟ قال: من كثرة مالي أحاسب فأمحص».

قيل: هذا حديث لا يحتج بإسناده، وقد أدخله أبو الفرج هو والذي قبله في كتاب الموضوعات، وقال: أما عبيد بن زحر فقال يحيى: ليس بشيء وعلي بن يزيد متروك، وقال ابن حيان: عبيدالله يروي الموضوعات عن الأثبات وإذا روى عن علي بن يزيد أتى بالطامات، وإذا اجتمع في إسناد خبر عبيدالله بن زحر وعلي بن يزيد والقاسم بن عبد الرحمن لم يكن متن ذلك الخبر إلا مما عملته أيديهم.

قال أبو الفرج: وبمثل هذا الحديث الباطل يتعلق جملة المتزهدين، ويرون أنَّ المال مانعٌ من السبق إلى الخير، ويقولون إذا كان ابن عوف يدخل الجنة زحفاً لأجل ماله، كفى ذلك في ذم المال. والحديث لا يصح، وحاشا عبد الرحمن المشهود له بالجنة أن يمنعه ماله من السبق؛ لأن جمع المال مباح وإنما المذموم كسبه من غير وجهه ومنع الحق الواجب فيه، وعبد الرحمن منزه عن الحالين؛ وقد خلف طلحة ثلاثمائة حمل من الذهب؛ وخلف الزبير وغيره؛ ولو علموا أن ذلك مذموم لأخرجوا الكل، وكم قاص يتسوف بمثل هذا الحديث يحث على الفقر ويذم الغنى، فلله در العلماء الذين يعرفون الصحيح ويفهمون الأصول اهـ.

قلت: وقد بالغ في رد الحديث وتجاوز الحد في إدخاله في الأحاديث الموضوعة المختلفة على رسول الله ﷺ، وكأنه استعظم احتباس عبد الرحمن بن عوف وهو أحد السابقين الأولين المشهود لهم عن السبق إليها، ودخول الجنة حبواً ورأى ذلك مناقضاً لسبقه ومنزلته التي أعدها الله له في الجنة، وهذا وهم منه رحمه الله.

وهب أنه وجد السبيل إلى الطعن في هذين الخبرين أفيجد سبيلاً إلى القدح في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام». قال الترمذي حديث حسن صحيح، وفي حديث ابن عمر الذي رواه مسلم في

صحيحه عن النبي ﷺ: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفاً».

وفي مسند الإمام أحمد عنه عن النبي ﷺ: «هل يدرون أول من يدخل الجنة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فقراء المهاجرين الذين يتقى بهم المكاره، يموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء».

وفي جامع الترمذي من حديث جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفاً». فهذا الحديث وأمثاله صحيح صريح في سبق فقراء الصحابة إلى الجنة لأغنيائهم وهم في السبق متفاوتون، فمنهم من يسبق خمسمائة عام، ومنهم من يسبق بأربعين عاماً، ولا يقدح ذلك في منزلة المتأخرين في الدخول فإنهم قد يكونون أرفع منزلة ممن سبقهم إلى الدخول وإن تأخروا بعدهم للحساب فإن الإمام العادل يوقف للحساب ويسبقه من لم يل شيئاً من أمور المسلمين إلى الجنة، فإذا دخل الإمام العادل بعده كانت منزلته أعلى من منزلة الفقير، بل يكون أقرب الناس من الله منزلة، كما في صحيح مسلم عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»، وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً إمام جائر».

فالإمام العادل والغني قد يتأخر دخول كل منهم للحساب، ويكون بعد الدخول أرفع منزلة من الفقير السابق، ولا يلزم من احتباس عبد الرحمن بن عوف لكثرة ماله حتى يحاسبه عليه، ثم يلحق برسوله ﷺ وأصحابه غضاضة عليه، ولا نقص من مرتبته، ولا يضاد ذلك سبقه وكونه مشهوداً له بالجنة، وأما حديث دخوله الجنة زحفاً فالأمر كما قال فيه الإمام أحمد رحمه الله: إنه كذب منكر، وكما قال النسائي إنه موضوع، ومقامات عبد

الرحمن وجهاده ونفقاته العظيمة وصدقاته تقتضي دخوله مع المارين كالبرق أو كالطرف أو كأجاويد الخيل، ولا يدعه يدخلها زحفاً.

فصل: والله سبحانه كما هو خالق الخلق فهو خالق ما به غناهم وفقرهم فخلق الغنى والفقر ليبتلي بهما عباده أيهم أحسن عملًا، وجعلهما سبباً للطاعة والمعصية والثواب والعقاب قال تعالى: ﴿ونبلوكُم بالشرِّ والخيرِ فتنةً وإلينا تُرجعون﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر والحلال والحرام، وكلها بلاء.

وقال ابن يزيد: نبلوكم بما تحبون وما تكرهون لننظر كيف صبركم وشكركم فيما تحبون وما تكرهون، وقال الكلبي: بالشر، بالفقر، والبلاء، والخير بالمال، والولد، فأخبر سبحانه أن الغنى والفقر مطيَّتا الابتلاء والامتحان، وقال تعالى: ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقَه فيقولُ ربِّي أهَانَن، كلاَّ﴾ [الفجر: ١٦] فأخبر سبحانه أنه يبتلي عبده بإكرامه له وبتنعيمه له، وبسط الرزق عليه، كما يبتليه بتضييق الرزق وتقديره عليه وأن كليهما ابتلاء منه وامتحان، ثم أنكر سبحانه على من زعم أن بسط الرزق وتوسعته إكرام من الله لعبده وإن تضييقه عليه إهانة منه له. فقال: كلا، أي ليس الأمر كما يقول الإنسان: بل قد أبتلي بنعمتي وأنعم ببلائي.

وإذا تأملت ألفاظ الآية وجدت هذا المعنى يلوح على صفحاتها ظاهراً للمتأمل، وقال تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقال تعالى: ﴿إنَّا جعلنا ما على الأرضِ زينةً لها لنبلوَهم أيُّهم أحسنُ عملاً﴾ [الكهف: ٧] فأخبر سبحانه أنه زين الأرض بما عليها من المال وغيره للابتلاء والامتحان، كما أخبر أنه خلق الموت والحياة لذلك، وخلق السموات والأرض لهذا الابتلاء أيضاً.

فهذه ثلاثة مواضع في القرآن يخبر فيها سبحانه أنه خلق العالم العلوي والسفلي وما بينهما وأجل العالم وأجل أهله وأسباب معائشهم التي جعلها زينة للأرض من الذهب والفضة والمساكن والملابس والمراكب والزروع والثمار والحيوان والنساء والبنين وغير ذلك، كل ذلك خلقه للابتلاء والامتحان ليختبر خلقه أيهم أطوع له وأرضى فهو الأحسن عملاً.

وهذا هو الحق الذي خلق به وله السموات والأرض وما بينهما وغايته الثواب والعقاب وفواته وتعطيله هو العبث الذي نزه نفسه وأخبر أنه يتعالى عنه، وأن ملكه الحق وتفرده بالإلّهية وحده وبربوبية كل شيء ينفي هذا الظن الباطل والحساب الكاذب كما قال تعالى: ﴿أفحسبتُم أنما خلقنَاكم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرجعون فتعالَى الله الملكُ الحقُّ لا إلّه إلا هو ربُّ العرشِ الكريم﴾ [المؤمنون: ١١٥] فنزه سبحانه نفسه عن ذلك كما نزهها عن الشريك والولد والصاحبة وسائر العيوب والنقائض من السِّنَة والنوم واللغوب والحاجة واكتراثه بحفظ السموات والأرض، وتقدم الشفعاء بين يديه بدون إذنه كما يظنه أعداؤه المشركون يخرجون عن علمه جزئيات العالم أو شيئاً منها، فكما أن كماله المقدس وكمال أسمائه وصفاته يأبى ذلك ويمنع منه فكذلك يبطل خلقه لعباده عبثاً وتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يردهم إليه فيثيب محسنهم بإحسانه ومسيئهم بإساءته، ويعرف المبطلون منهم أنهم كانوا كاذبين ويشهدهم أن رسله وأتباعهم كانوا أولى بالصدق والحق منهم، فمن أنكر ذلك فقد أنكر إلّهيته وربوبيته وملكه الحق وذلك عين الجحود والكفر به سبحانه، كما قال المؤمن لصاحبه الذي حاوره في المعاد وأنكره ﴿أكفرتَ بالذي خلقكَ من ترابٍ ثم من نطفةٍ ثم سوَّاكَ رجلاً﴾ [الكهف: ٣٧] فأخبر أن إنكاره للمعاد كفر بذات الرب سبحانه، وقال تعالى: ﴿وإنْ تعجبْ فعجبٌ قولُهم أإذا كُنَّا تراباً أإنا لفي خلقٍ جديدٍ، أولئكَ الذين كفروا بربِّهم﴾ [الرعد: ٥] وذلك أن إنكار المعاد يتضمن إنكار قدرة الرب وعلمه وحكمته وملكه الحق وربوبيته وإلّهيته، كما أن تكذيب رسله وجحد رسالتهم يتضمن ذلك أيضاً، فمن كذب رسله وجحد

المعاد فقد أنكر ربوبيته سبحانه ونفى أن يكون رب العالمين.

والمقصود أنه سبحانه وتعالى خلق الغنى والفقر مطيتين للابتلاء والامتحان ولم ينزل المال لمجرد الاستمتاع به، كما في المسند عنه ﷺ قال: يقول الله تعالى: «إنا نزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولو كان لابن آدم واد من مال لابتغى إليه ثانياً، ولو كان له ثان لابتغى له ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب»، فأخبر سبحانه أنه أنزل المال ليستعان به على إقامة حقه بالصلاة وإقامة حق عباده بالزكاة لا للاستمتاع والتلذذ كما تأكل الأنعام، فإذا زاد المال عن ذلك أو خرج عن هذين المقصودين فإن الغرض والحكمة التي أنزل لها كان التراب أولى به، فرجع هو والجوف الذي امتلأ به بما خلق له من الإيمان والعلم والحكمة فإنه خلق لأن يكون وعاء لمعرفة ربه وخالقه والإيمان به ومحبته وذكره، وأنزل عليه من المال ما يستعين به على ذلك، فعطل الجاهل بالله وبأمر الله وبتوحيد الله وبأسمائه وصفاته جوفه عما خلق له وملأه بمحبة المال الفاني الذاهب الذي هو ذاهب عن صاحبه أو بالعكس وجمعه والاستكثار منه، ومع ذلك فلم يمتلىء بل ازداد فقراً وحرصاً إلى أن امتلأ جوفه بالتراب الذي خلق منه فرجع إلى مادته الترابية التي خلق منها هو وماله، ولم تتكمل مادته بامتلاء جوفه من العلم والإيمان الذي بهما كماله وفلاحه وسعادته في معاشه ومعاده، فالمال إن لم ينفع صاحبه ضره ولا بد، وكذلك العلم والملك والقدرة، كل ذلك إن لم ينفعه ضره، فإن هذه الأمور وسائل لمقاصد يتوسل بها إليها في الخير والشر، فإن عطلت عن التوسل بها إلى المقاصد والغايات المحمودة توسل بها إلى أضدادها.

فأربح الناس من جعلها وسائل إلى الله والدار الآخرة، وذلك الذي ينفعه في معاشه ومعاده، وأخسر الناس من توسل بها إلى هواه ونيل شهواته وأغراضه العاجلة فخسر الدنيا والآخرة، فهذا لم يجعل الوسائل مقاصد ولو جعلها كذلك لكان خاسراً لكنه جعلها وسائل إلى ضد ما جعلت له، فهو

بمثابة من توسل بأسباب اللذة إلى أعظم الآلام وأدوائها.

فالأقسام أربعة لا خامس لها: أحدها: معطل الأسباب معرض عنها. الثاني: مكب عليها واقف مع جمعها وتحصيلها. الثالث: متوصل بها إلى ما يضره ولا ينفعه في معاشه ومعاده، فهؤلاء الثلاثة في الخسران. الرابع: متوصل بها إلى ما ينفعه في معاشه ومعاده وهو الرابح. قال تعالى: ﴿من كانَ يُريد الحياةَ الدنيا وزينتها نُوَفِّ إليهم أعمالَهم فيها وهم فيها لا يُبْخَسُون، أولئكَ الذين ليس لهم في الآخرة إلا النَّار وحَبِطَ ما صَنعُوا فيها وباطلٌ ما كانُوا يَعْمَلُون﴾ [هود: ١٦].

وقد أشكل فهم هذه الآية على كثير من الناس حيث فهموا منها أن من كانت له إرادة في الدنيا وزينتها فله هذا الوعيد، ثم اختلفوا في معناها، فقالت طائفة منهم ابن عباس: من كان يريد تعجيل الدنيا فلا يؤمن بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب، قالوا: والآية في الكفار خاصة على قول ابن عباس.

وقال قتادة: من كانت الدنيا همه وسدمه ونبته وطلبه جازاه الله في الدنيا بحسناته ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يجازى بها، وأما المؤمن فيجزى في الدنيا بحسناته ويثاب عليها في الآخرة، قال هؤلاء: فالآية في الكفار بدليل قوله: ﴿أولئكَ الذين ليس لهم في الآخرة إلا النَّارُ وحبطَ ما صَنعوا فيها وباطلٌ ما كانوا يَعملون﴾ قالوا: المؤمن من يريد الدنيا والآخرة، فأما من كانت إرادته مقصورة على الدنيا فليس بمؤمن.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أبي صالح عنه: نزلت في أهل القبلة. قال مجاهد: هم أهل الرياء. وقال الضحاك: من عمل صالحاً من أهل الإيمان من غير تقوى عجل له ثواب عمله في الدنيا، واختار الفراء هذا القول وقال: من أراد بعمله من أهل القبلة ثواب الدنيا عجل له ثوابه ولم يبخس، وهذا القول أرجح. ومعنى الآية على هذا: من كان يريد بعمله

الحياة الدنيا وزينتها، وهذا لا يكون مؤمناً، فإن العاصي والفاسق ولو بالغا في المعصية والفسق فإيمانهما يحملهما على أن يعملا أعمال البر لله فيريدان بأعمال البر وجه الله وإن عملا بمعصيته.

فأما من لم يرد بعمله وجه الله وإنما أراد به الدنيا وزينتها، فهذا لا يدخل في دائرة أهل الإيمان، وهذا هو الذي فهمه معاوية من الآية واستشهد بها على حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم في صحيحه في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة: القارىء الذي قرأ القرآن ليقال فلان قارىء، والمتصدق الذي أنفق أمواله ليقال فلان جواد، والغازي الذي قتل في الجهاد ليقال هو جريء.

وكما أن خيار خلق الله هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون فشرار الخلق من تشبه بهم وليس منهم، فمن تشبه بأهل الصدق والإخلاص وهو مراء كمن تشبه بالأنبياء وهو كاذب.

وقال ابن أبي الدنيا حدثني محمد بن إدريس، قال: أخبرني عبد الحميد بن صالح حدثنا قطن بن الحباب عن عبد الوارث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة صارت أمتي ثلاث فرق: فرقة يعبدون الله عز وجل للدنيا، وفرقة يعبدونه رياء وسمعة، وفرقة يعبدونه لوجهه ولداره، فيقول للذين كانوا يعبدونه للدنيا: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون: بعزتك وجلالك ومكانك؛ الدنيا، فيقول: إني لم أقبل من ذلك شيئاً، اذهبوا بهم إلى النار، ويقول للذين كانوا يعبدون رياء وسمعة: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون: بعزتك وجلالك ومكانك؛ رياء وسمعة، فيقول: إني لم أقبل من ذلك شيئاً، اذهبوا بهم إلى النار، ويقول للذين كانوا يعبدونه لوجهه وداره: بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون: بعزتك وجلالَكَ؛ وجْهَك ودارَك، فيقول: صدقتم. اذهبوا بهم إلى الجنة»، هذا حديث غني عن الإسناد، فالقرآن والسنة شاهدان بصدقه، ويدل على

صحة هذا القول في الآية قوله تعالى: ﴿نُوَفِّ إليهم أعمالَهم فيها﴾ وذلك على أنها في قوم لهم أعمال لم يريدوا بها وجه الله، وإنما أرادوا بها الدنيا ولها عملوا فوفاهم الله ثواب أعمالهم فيها من غير بخس، وأفضوا إلى الآخرة بغير عمل يستحقون عليه الثواب، وهذا لا يقع ممن يؤمن بالآخرة إلا كما يقع منه كبائر الأعمال وقوعاً عارضاً يتوب منه ويراجع التوحيد.

وقال ابن الأنباري: فعلى هذا القول المعنى في قوم من أهل الإسلام يعملون العمل الحسن لتستقيم به دنياهم غير متفكرين في الآخرة كان جزاؤهم عليها النار إذا لم يريدوا بها وجه الله ولم يقصدوا التماس ثوابه وأجره.

ثم أورد صاحب هذا القول على أنفسهم سؤالاً! قالوا: فإن قيل: الآية الثانية على هذا القول توجب تخليد المؤمن المريد بعمله الدنيا في النار؟ وأجابوا عنه بأن ظاهر الآية يدل على أن من راءى بعمله ولم يلتمس به ثواب الآخرة بل كانت نيته الدنيا فإن الله يبطل إيمانه عند الموافاة فلا يوافي ربه بالإيمان. قالوا: ويدل عليه قوله: ﴿وحَبِطَ ما صَنعوا فِيها وباطلٌ ما كانُوا يعمَلون﴾ [هود: ١٦] وهذا يتناول أصل الإيمان وفروعه.

وأجابت فرقة أخرى بأن الآية لا تقتضي الخلود الأبدي في النار، وإنما تقتضي أن الذي يستحقونه في الآخرة النار، وأنهم ليس لهم عمل صالح يرجون به النجاة، فإذا كان مع أحدهم عمود التوحيد فإنه يخرج به من النار مع من يخرج من أصحاب الكبائر الموحدين، وهذا هو جواب ابن الأنباري وغيره.

والآية بحمد الله لا إشكال فيها، والله سبحانه ذكر جزاء من يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها وهو النار، وأخبر بحبوط عمله وبطلانه، فإذا أحبط ما ينجو به وبطل لم يبق معه ما ينجيه، فإن كان معه إيمان لم يرد به الدنيا وزينتها بل أراد الله به والدار الآخرة، لم يدخل هذا الإيمان في العمل الذي حبط وبطل وأنجاه إيمانه من الخلود في النار، وإن دخلها بحبوط

عمله الذي به النجاة المطلقة. والإيمان إيمانان: إيمان يمنع من دخول النار، وهو الإيمان الباعث على أن تكون الأعمال لله يبتغي بها وجهه وثوابه، وإيمان يمنع الخلود في النار وإن كان مع المرائي شيء منه وإلا كان من أهل الخلود، فالآية لها حكم نظائرها من آيات الوعيد والله الموفق. وذلك قوله: ﴿مَنْ كان يُريد حَرْثَ الآخرة نزدْ له في حرثِهِ ومَنْ كانَ يريدُ حَرْثَ الدنيا نؤتِهِ منها وما له في الآخرة مِن نَصيب﴾ [الشورى: ٢٠] ومنه قوله: ﴿مَنْ كانَ يُريد العاجلةَ عَجَّلْنَا له فيها ما نشاءُ لمن نُريد ثم جعلنا له جهنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومَاً مَدْحُوراً، ومن أرادَ الآخرةَ وسعى لها سَعْيَها وهو مؤمنٌ فأولئكَ كان سعيُهم مَشكوراً﴾ [الإسرء: ١٨].

فهذه ثلاثة مواضع من القرآن يشبه بعضها بعضاً ويصدق بعضها بعضاً وتجتمع على معنى واحد، وهو أن من كانت الدنيا مراده ولها يعمل في غاية سعيه لم يكن له في الآخرة نصيب، ومن كانت الآخرة مراده ولها عمل وهي غاية سعيه فهي له.

بقي أن يقال: فما حكم من يريد الدنيا والآخرة، فإنه داخل تحت حكم الإرادتين فبأيهما يلحق؟ قيل: من ها هنا نشأ الإشكال، وظن من ظن من المفسرين أن الآية في حق الكافر، فإنه هو الذي يريد الدنيا دون الآخرة، وهذا غير لازم طرداً ولا عكساً، فإن بعض الكفار قد يريد الآخرة، وبعض المسلمين قد لا يكون مراده إلا الدنيا، والله تعالى قد علّق السعادة بإرادة الآخرة، والشقاوة بإرادة الدنيا فإذا تجردت الإرادتان تجرَّد موجبها ومقتضاهما، وإن اجتمعتا فحكم اجتماعهما حكم اجتماع البر والفجور، والطاعة والمعصية، والإيمان والشرك في العبد، وقد قال تعالى لخير الخلق بعد الرسل: ﴿ منكم من يُريد الدنيا ومنكم من يُريد الآخرة ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وهذا خطاب للذين شهدوا معه الوقعة ولم يكن فيهم منافق، ولهذا قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ما شعرت أنَّ أحدَ أصحاب رسول الله ﷺ يُريد الدنيا، حتى كان يوم أحد ونزلت هذه الآية،

والذين أريدوا في هذه الآية هم الذين أخلوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه، وهم من خيار المسلمين، ولكن هذه إرادة عارضة حملتهم على ترك المركز، والإقبال على كسب الغنائم، بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها، فهذه الإرادة لون، وإرادة هؤلاء لون.

وها هنا أمر يجب التنبيه له، وهو أنه لا يمكن إرادة الدنيا وعاجلها بأعمال البر دون الآخرة مع الإيمان بالله ورسوله ولقائه أبداً، فإن الإيمان بالله والدار الآخرة يستلزم إرادة العبد لرحمة الله والدار الآخرة بأعماله، فحيث كان مراده بها الدنيا فهذا لا يجامع الإيمان أبداً وإن جامع الإقرار والعلم فالإيمان وراء ذلك، والإقرار والمعرفة حاصلان لمن شهد الله سبحانه له بالكفر مع هذه المعرفة؛ كفرعون وثمود واليهود الذين شاهدوا رسول الله ﷺ وعرفوه كما عرفوا أبناءهم وهم من أكفر الخلق، فإرادة الدنيا وعاجلها بالأعمال قد تجامع هذه المعرفة والعلم، ولكن الإيمان الذي هو وراء ذلك لا بد أن يريد صاحبه بأعماله الله والدار الآخرة. والله المستعان.

فصل: والمقصود أنه سبحانه جعل الغنى والفقر ابتلاء وامتحاناً للشكر والصبر، والصدق والكذب والإخلاص والشرك، قال تعالى: ﴿ ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ [الأنعام: ١٦٥]. وقال تعالى: ﴿ آلم. أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنَّ الله الذين صدقوا وليعلمنَّ الكاذبين ﴾ [العنكبوت: ٢] وقال تعالى: ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة واللَّهُ عنده أجرٌ عظيم ﴾ [التغابن: ١٥]، فجعل الدنيا عَرَضَاً عاجلاً ومتاعَ غرور، وجعل الآخرة دار جزاء وثواب، وحفَّ الدنيا بالشهوات وزينها بها كما قال تعالى: ﴿ زُين للناس حبُّ الشهوات من النساء والبنينَ والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث، ذلك متاعُ الحياة الدنيا والله عنده حُسْنُ المآب ﴾ [آل عمران: ١٤]. فأخبر سبحانه أن هذا الذي زين به الدنيا

من ملاذها وشهواتها، وما هو غاية أماني طلابها ومؤثريها على الآخرة، وهو سبعة أشياء: النساء اللاتي هن أعظم زينتها وشهواتها وأعظمها فتنة، والبنين الذين بهم كمال الرجل وفخره وكرمه وعزه، والذهب والفضة اللذين هما مادة الشهوات على اختلاف أجناسها وأنواعها، والخيل المسومة التي هي عزُّ أصحابها وفخرهم وحصونهم، وآلة قهرهم لأعدائهم في طلبهم وهربهم، والأنعام التي منها ركوبهم وطعامهم ولباسهم وأثاثهم وأمتعتهم، وغير ذلك من مصالحهم. والحرث الذي هو مادة قوتهم وقوت أنعامهم ودوابهم وفاكهتهم وأدويتهم، وغير ذلك.

ثم أخبر سبحانه أن ذلك كله متاع الحياة الدنيا، ثم شوَّق عباده إلى متاع الآخرة وأعلمهم أنه خير من هذا المتاع وأبقى فقال: ﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنَّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواجٌ مطهَّرة ورضوانٌ من الله والله بصيرٌ بالعباد ﴾ [آل عمران: ١٥].

ثم ذكر سبحانه من يستحق هذا المتاع ومن هم أهله الذين هم أولى به فقال: ﴿ الذين يقولون ربَّنا إننا آمنا فاغفرْ لنا ذنوبَنا وقِنا عذابَ النار، الصابرينَ والصادقينَ والقانتينَ والمُنفقينَ والمستغفرينَ بالأسحار ﴾ [آل عمران: ١٦]، فأخبر سبحانه أن ما أعدَّ لأوليائه المتقين من متاع الآخرة خير من متاع الدنيا، وهو نوعان: ثواب يتمتعون به وأكبر منه، وهو رضوانه عليهم، قال تعالى: ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموال والأولاد كمثل غَيْثٍ أعجبَ الكفارَ نباتُه ثم يهيجُ فتراه مصفَّراً ثم يكون حُطاماً ﴾ [الحديد: ٢٠]. فأخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعله مشاهداً لأولي البصائر، وأنها لعب ولهو تلهو بها النفوس وتلعب بها الأبدان واللعب واللهو لا حقيقة لهما، وأنهما مشغلة للنفس، مضيعة للوقت، يقطع بها الجاهلون العمر فيذهب ضائعاً في غير شيء، ثم أخبر أنها زينة زينت للعيون وللنفوس، فأخذت بالعيون

والنفوس استحساناً ومحبة، ولـو باشـرت القلوب معرفـة حقيقتها ومآلها ومصيرها لأبغضتها ولآثرت عليها الآخرة، ولما آثرتها على الآجل الدائم الذي هو خير وأبقى.

قال الإمام: حدّثنا وكيع، وحدّثنا المسعودي، عن عمرو بن مرّة عن إبراهيم عن علقمة عن عبدالله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مالي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قَالَ[1] في ظل شجرة، في يوم صائف، ثم راح وتركها».

وفي جامع الترمذي من حديث سهل بن سعد قال: قـال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء». قال الترمذي: حديث صحيح. وفي صحيح مسلم من حديث المستورد بن شداد، قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع، وأشار بالسبابة».

وفي الترمذي من حديثه قال: «كنتُ مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة، فقال رسول الله ﷺ: أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها؟ قالوا: ومن هوانها ألقوها يا رسول الله. قال: فالدنيا أهونُ على الله من هذه على أهلها». وفي الترمذي أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالماً أو متعلماً». والحديثان حسنان، قال الإمام أحمد: حدثنا هيثم بن خارجة أنبأنا إسماعيل بن عياش بن عبدالله بن دينار النهراني قال: قال عيسى عليه السلام للحواريين: بحق أقول لكم إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وإن عباد الله ليسوا بالمنعمين، بحق أقول لكم إن شركم عملاً عالم يحب الدنيا ويؤثرها على الآخرة، إنه لو يستطيع جعل الناس كلهم في عمله مثله.

---

(١) من قال يقيل قيلولة، وهي النوم في الظهيرة.

وقال أحمد: حدثنا يحيى بن إسحق؛ قال أخبرني سعيد بن عبد العزيز عن مكحول قال: قال عيسى بن مريم عليه السلام: يا معشر الحواريين! أيكم يستطيع أن يبني على موج البحر داراً؟ قالوا: يا روح الله! ومن يقدر على ذلك؟ قال: إياكم والدنيا فلا تتخذوها قراراً. وفي كتاب الزهد لأحمد أن عيسى بن مريم عليه السلام كان يقول: بحق أقول لكم إن أكل الخبز وشرب الماء العذب ونوماً على المزابل مع الكلاب كثير لمن يريد أن يرث الفردوس.

وفي المسند، عنه ﷺ: «إن الله ضرب طعام ابن آدم مثلاً للدنيا وإن قزحه وملحه[1] فلينظر إلى ماذا يصير».

فصل: ثم أخبر سبحانه وتعالى عنها أنها يفاخر بعضنا بعضاً بها فيطلبها ليفخر بها على صاحبه، وهذا حال كل من طلب شيئاً للمفاخرة من مال أو جاه أو قوة أو علم أو زهد، والمفاخرة نوعان: مذمومة ومحمودة، فالمذمومة مفاخرة أهل الدنيا بها، والمحمودة أن يطلب المفاخرة في الآخرة، فهذه من جنس المنافسة المأمور بها، وهي أن الرجل ينفس على غيره بالشيء ويغار أن يناله دونه ويأنف من ذلك، ويحمي أنفة له، يقال: نفست عليه الشيء أنفسه نفاسة إذا ضننت به ولم تحب أن يصير إليه دونك، والتنافس تفاعل من ذلك، كأن كل واحد من المتنافسين يريد أن يسبق صاحبه إليه، وحقيقة المنافسة الرغبة التامة والمبادرة والمسابقة إلى الشيء النفيس.

فصل: ثم أخبر تعالى عنها أنها تكاثر في الأموال والأولاد فيحب كل واحد أن يكاثر بني جنسه في ذلك، ويفرح بأن يرى نفسه أكثر من غيره

---

(١) قال ابن الأثير: قزحه وملحه: أي توابله، من القزح: وهو التابل الذي يطرح في القدر كالكمون والكزبرة، أي أن الطعام وإن تكلف الإنسان التنويق في صنعته وتطييبه فإنه عائد إلى حال يكره ويستقذر، فكذلك الدنيا والحرص على عمارتها راجعة إلى خراب وإدبار.

مالاً وولداً، وأن يقال فيه ذلك، وهذا من أعظم ما يلهي النفوس عن الله والدار الآخرة كما قال تعالى: ﴿ألهاكُم التكاثرُ حتى زُرتمُ المقابرَ، كلاَّ سوفَ تعلمونَ، ثم كَلاَّ سوفَ تَعلمون﴾ [التكاثر: ١] والتكاثر في كل شيء، فكل من شغله وألهاه التكاثر بأمر من الأمور عن الله والدار الآخرة فهو داخل في حكم هذه الآية، فمن الناس من يلهيه التكاثر بالمال، ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه أو بالعلم فيجمعه تكاثراً وتفاخراً، وهذا أسوأ حالاً عند الله ممن يكاثر بالمال والجاه، فإنه جعل أسباب الآخرة للدنيا، وصاحب المال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابها.

فصل: ثم أخبر سبحانه عن مصير الدنيا وحقيقتها، وأنها بمنزلة غيث أعجب الكفار نباته، والصحيح إن شاء الله أن الكفار هم الكفار بالله، وذلك عرف القرآن حيث ذكروا بهذا النعت في كل موضع، ولو أراد الزراع لذكرهم باسمهم الذي يعرفون به كما ذكرهم به في قوله يعجب الزراع، وإنما خص الكفار به لأنهم أشد إعجاباً بالدنيا فإنها دارهم التي لها يعملون ويكدحون، فهم أشد إعجاباً بزينتها وما فيها من المؤمنين.

ثم ذكر سبحانه عاقبة هذا النبات وهو اصفراره ويبسه، وهذا آخر الدنيا ومصيرها، ولو ملكها العبد من أولها إلى آخرها فنهايتها ذلك، فإذا كانت الآخرة انقلبت الدنيا واستحالت إلى عذاب شديد أو مغفرة من الله وحسن ثوابه وجزائه، كما قال علي بن أبي طالب: الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ومطلب نجح لمن سالم، فيها مساجد أنبياء الله، ومهبط وحيه، ومصلى ملائكته، ومتجر أوليائه، فيها اكتسبوا الرحمة، وربحوا فيها العافية، فمن ذا يذمها وقد آذنت ببينها، ونعت نفسها وأهلها، فتمثلت ببلائها، وشوقت بسرورها إلى السرور تخويفاً وتحذيراً وترغيباً، فذمها قوم غداة الندامة، وحمدها آخرون ذكّرتهم فذكروا ووعظتهم فاتّعظوا؛ فيا أيها الذام للدنيا المغتر بتغريرها متى استذمت إليك بل متى غرتك! أبمنازل آبائك في الثرى، أم بمضاجع أمهاتك في البلى، كم رأيت

موروثاً؟ كم عللت بكفيك عليلاً، كم مرضت مريضاً بيديك تبتغي له الشفاء وتستوصف له الأطباء ثم لم تنفعه شفاعتك ولم تسعفه طلبتك؟ مثلت لك الدنيا غداة مصرعه مصرعك ومضجعه مضجعك، ثم التفت إلى المقابر فقال: يا هل الغربة! ويا أهل التربة! أما الدور فسكنت، وأما الأموال فقسمت، وأما الأزواج فنكحت فهذا خبر ما عندنا فهاتوا خبر ما عندكم. ثم التفت إلينا فقال: أما لو أذن لهم لأخبروكم أن خير الزاد التقوى.

فالدنيا في الحقيقة لا تذم، وإنما يتوجه الذم إلى فعل العبد فيها، وهي قنطرة أو معبر إلى الجنة أو إلى النار، ولكن لما غلبت عليها الشهوات والحظوظ والغفلة والإعراض عن الله والدار الآخرة، فصار هذا هو الغالب على أهلها وما فيها، وهو الغالب على اسمها، صار لها اسم الذم عند الإطلاق، وإلا فهي مبنى الآخرة ومزرعتها، ومنها زاد الجنة وفيها اكتسبت النفوس الإيمان ومعرفة الله ومحبته وذكره ابتغاء مرضاته، وخير عيش ناله أهل الجنة في الجنة إنما كان بما زرعوه فيها، وكفى بها مدحاً وفضلاً لأولياء الله فيها من قرة العيون وسرور القلوب وبهجة النفوس ولذة الأرواح، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم بذكره ومعرفته ومحبته وعبادته، والتوكل عليه والإنابة إليه والأنس به والفرح بقربه والتذلل له، ولذة مناجاته والإقبال عليه والاشتغال به عمن سواه، وفيها كلامه ووحيه وهداه وروحه الذي ألقاه من أمره، فأخبر به من شاء من عباده، ولهذا فضل ابن عقيل وغيره هذا على نعيم الجنة، وقالوا هذا حق الله عليهم وذاك حظهم ونعيمهم، وحقه أفضل من حقهم، قالوا: والإيمان والطاعة أفضل من جزائه. والتحقيق أنه لا يصح التفضيل بين أمرين في دارين مختلفين، ولو أمكن اجتماعهما في دار واحدة لأمكن طلب التفضيل، والإيمان والطاعة في هذه الدار أفضل ما فيها، ودخول الجنة والنظر إلى وجه الله جل جلاله وسماع كلامه والفوز برضاه أفضل ما في الآخرة، فهذا أفضل ما في هذه الدار، وهذا أفضل ما في الدار الأخرى. ولا يصح أن يقال: فأي الأمرين أفضل؟ فهذا أفضل الأسباب، وهذا أفضل الغايات، وبالله التوفيق.

فصل: ولما وصف سبحانه حقيقة الدنيا وبيَّن غايتها ونهايتها وانقلابها في الآخرة إلى عذاب شديد ومغفرة من الله وثواب أمر عباده بالمسابقة والمبادرة إلى ما هو خير وأبقى، وأن يؤثروه على الفاني المنقطع المشوب بالإنكاد والتنغيص، ثم أخبر أن ذلك فضله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وقال تعالى: ﴿واضربْ لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلطَ به نباتُ الأرض فأصبحَ هشيماً تذروه الرياحُ وكانَ اللّهُ على كلِّ شيءٍ مُقتدراً﴾ [الكهف: ٤٥].

ثم ذكر سبحانه أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا وأن الباقيات الصالحات وهي الأعمال والأقوال الصالحة التي يبقى ثوابها ويدوم جزاؤها خير ما يؤمله العبد ويرجو ثوابه، وقال تعالى: ﴿إنما مثلُ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلطَ به نباتُ الأرضِ مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذتِ الأرضُ زخرفَها وازيَّنتْ وظنَّ أهلُها أنهم قادرون عليها، أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حَصيداً كأنْ لم تغنَ بالأمس، كذلك نُفَصِّلُ الآياتِ لقومٍ يتفكرون﴾ [يونس: ٢٤].

ولما أخبر عباده عن آفات هذه الدار دعا عباده إلى دار السلام التي سلمت من التغير والاستحالة والزوال والفناء، وعمَّ عباده بالدعوة إليها عدلاً، وخصَّ من شاء بالهداية إلى طريقها فضلاً.

وأخبر سبحانه أن الأموال والأولاد لا تقرب الخلق إليه، وإنما يقربهم إليه تقوى الله ومعاملته فيهم، وحذر سبحانه عباده أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، وأخبر أن من فعل ذلك فهو الخاسر حقيقة، لا من قلَّ ماله وولده في الدنيا، ونهى نبيه ﷺ أن يمد عينيه إلى ما متع به أهل الدنيا فيها فتنة لهم واختباراً، وأخبر أن رزقه الذي أعده له في الآخرة خير وأبقى من هذا الذي مُتِّعوا به.

وأخبر سبحانه أنه آتاه السبع المثاني والقرآن العظيم، وذلك خير وأفضل مما متع به أهل الدنيا في دنياهم، وجعل ما آتاه مانعاً له من مد

عينيه إلى ذلك. فهذا العطاء في الدنيا وما ادخر له من رزق الآخرة خير مما متع به أهل الدنيا، فلا تمدن عينيك.

فصل: وإذا عرف أن الغنى والفقر والبلاء والعافية فتنة وابتلاء من الله لعبده، يمتحن بها صبره وشكره، علم أن الصبر والشكر مطيتان للإيمان لا يحمل إلا عليهما، ولا بد لكل مؤمن منهما، وكل منهما في موضعه أفضل، فالصبر في مواطن الصبر أفضل، والشكر في مواضع الشكر أفضل، هذا إن صحَّ مفارقة كل واحد منهما للآخر، وأما إذا كان الصبر جزءاً مسمى الشكر، والشكر جزء مسمى الصبر، وكل منهما حقيقة مركبة من الأمرين معاً كما تقدم بيانه، فالتفضيل بينهما لا يصح إلا إذا جرد أحدهما عن الآخر، وذلك فرض ذهني يقدره الذهن ولا يوجد في الخارج، ولكن يصح على وجه، وهو أن العبد قد يغلب صبره على شكره الذي هو قدر زائد على مجرد الصبر من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فلا يبقى فيه اتساع لغير صبر النفس على ما هو فيه لقوة الوارد وضيق المحل، فتنصرف قواه كلها إلى كف النفس وحبسها لله، وقد يغلب شكره بالأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة على قوة كفه لنفسه وحبسها لله، فتكون قوة إرادته وعمله أقوى من قوة امتناعه وحبس نفسه.

واعتبر هذا بشخصين: أحدهما حاكم على نفسه متمكن من حبسها عن الشهوات، قليل التشكي للمصيبات وذلك جلّ عمله، وآخر كثير الإعطاء لفعل الخير: القاصر والمتعدي، سَمْحُ النفس ببذل المعروف، وآخر ضعيف النفس عن قوة الصبر، فللنفس قوتان: قوة الصبر والكف وإمساك النفس، وقوة البذل وفعل الخير والإقدام على فعل ما تكمل به، وكمالها باجتماع هاتين القوتين فيها، والناس في ذلك أربع طبقات، فأعلاهم من اجتمعت له القوتان، وسفلاهم من عدم القوتين، ومنهم من قوة صبره أكمل من قوة فعله وبذله، ومنهم من هو بالعكس في ذلك. فإذا فضل الشكر على الصبر؛ فإما أن يكون باعتبار ترجيح مقام على مقام، وإما أن

يكون باعتبار تجريد كل من الأمرين عن الآخر وقطع النظر عن اعتباره، وتمام إيضاح هذا بمسألة الغني الشاكر والفقير الصابر، فلنذكر لها باباً يخصها ويكشف عن الصواب فيها.

الباب الثاني والعشرون

في اختلاف الناس في الغني الشاكر والفقير الصابر، أيهما أفضل؟ وما هو الصواب في ذلك؟

هذه مسألة كثر فيها النزاع بين الأغنياء والفقراء، واحتجت كل طائفة على الأخرى بما لم يمكنها دفعه من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار، ولذلك يظهر للمتأمل تكافؤ الطائفتين، فإن كلاً منهما أدلت بحجج لا تدفع، والحق لا يعارض بعضه بعضاً، بل يجب اتباع موجب الدليل أين كان، وقد أكثر الناس في المسألة من الجانبين وصنفوا فيها من الطرفين، وتكلم الفقهاء والفقراء والأغنياء والصوفية وأهل الحديث والتفسير؛ لشمول معناها وحقيقتها للناس كلهم، وحكوا عن الإمام أحمد فيها روايتان ذكرهما أبو الحسين في كتاب التمام فقال: مسألة الفقير الصابر أفضل من الغني الشاكر في أصح الروايتين، وفيه رواية ثانية الغني الشاكر أفضل، وبها قال جماعة منهم ابن قتيبة، ووجه الأولى ـ واختارها أبو إسحاق بن شاقلا والوالد السعيد ـ قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥].

قال محمد بن علي بن الحسين: الغرفة: الجنة. بما صبروا: قال على الفقر في الدنيا، وعن أنس عن النبي ﷺ قال: «اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة. قالت عائشة: ولم يا رسول الله؟ قال: إنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفاً، يا عائشة! لا تردي المسكين ولو بشق تمرة. يا عائشة أحبي المساكين وقرّبيهم فإن الله يقرّبك يوم القيامة».

قلت: لا حجة له في واحدة من الحجتين، أما الآية فالصبر فيها

يتناول صبر الشاكر على طاعته وصبره عن معصيته، وصبر المبتلى بالفقر وغيره على بلائه. ولو كان المراد بها الصبر على الفقر وحده لم يدل رجحانه على الشكر، فإن القرآن كما دلَّ على جزاء الصابرين دلَّ على جزاء الشاكرين أيضاً، كما قال تعالى: ﴿وسنجزي الشاكرين﴾[آل عمران: ١٤٥] ﴿وسيجزي اللّهُ الشاكرين﴾ [آل عمران: ١٤٤] بل قد أخبر أن رضاه في الشكر، ورضاه أكبر من جزائه بالجنات وما فيها، وإذا جزى الله الصابرين الغرفة بما صبروا لم يدل ذلك على أنه لا يجزي الشاكرين الغرفة بما شكروا، وأما الحديث فلا حجة فيه لوجهين: أحدهما أنه لا يحتج بإسناده فإنه من رواية محمد بن ثابت الكوفي عن الحارث بن النعمان، والحارث هذا لم يحتج به أصحاب الصحيح، بل قال فيه البخاري: منكر الحديث، ولذلك لم يصحح الترمذي حديثه هذا ولا حسنه ولا سكت عنه، بل حكم بغرابته.

الجواب الثاني: إن الحديث لو صح لم يدل على مطلوبهم فإن المسكنة التي يحبها الله من عبده ليست مسكنة فقر المال، بل مسكنة القلب، وهي انكساره وذله وخشوعه وتواضعه لله، وهذه المسكنة لا تنافي الغنى ولا يشترط لها الفقر، فإن انكسار القلب لله ومسكنته لعظمته وجلاله وكبريائه وأسمائه وصفاته أفضل وأعلى من مسكنة عدم المال، كما أن صبر الواجد عن معاصي الله طوعاً واختياراً وخشية من الله ومحبة له أعلى من صبر الفقير العاجز، وقد آتى الله جماعة من أنبيائه ورسله الغنى والملك ولم يخرجهم ذلك عن المسكنة لله.

قال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هرون أنبأنا الجريري عن أبي السليل قال: كان داود النبي ﷺ يدخل فينظر أغمص حلقة من بني إسرائيل فيجلس إليهم ثم يقول: مسكين بين ظهراني مساكين، هذا مع ما آتاه الله من الملك والغنى والبسطة زيادة على النبوة.

قال أبو الحسين: وروى أبو برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن فقراء المسلمين ليدخلون الجنة قبل أغنيائهم بمقدار أربعين خريفاً حتى يتمنى أغنياء المسلمين يوم القيامة أنهم كانوا فقراء في الدنيا».

قلت هذا الحديث ثابت عن النبي ﷺ من رواية جماعة من الصحابة، منهم أبو هريرة وعبدالله بن عمر وجابر بن عبدالله، وروي عن أبي سعيد وأنس بن مالك، ولا يدل ذلك على علو درجتهم إذا دخلوا الجنة قبل الأغنياء، بل إنما يدل على السبق لعدم ما يحاسبون عليه، ولا ريب أن وليّ الأمر العادل يتأخر دخوله للحساب، وكذلك الغني الشاكر، ولا يلزم من تأخر دخولهما نزول درجتهما عن درجة الفقير كما تقدم، وإنما تمنّى الأغنياء أنهم كانوا في الدنيا فقراء، فإن صحت هذه اللفظة لم تدل على انحطاط درجتهم كما يتمنى القاضي العادل في بعض المواطن يوم القيامة إن لم يقض بين اثنين في تمرة؛ لما يرى من شدة الأمر، فمنزلة الفقر والخمول، ومنزلة السلامة، ومنزلة الغنى والولاية، ومنزلة الغنيمة أو العطب. قال أبو الحسن: وروى ابن عمر أن النبي ﷺ قام في أصحابه فقال: «أي الناس خير؟ فقال بعضهم: غني يعطي جلَّ نفسه وماله، فقال ﷺ: نعم الرجل هذا وليس به، ولكن خير الناس مؤمن فقير يعطي على جهد».

قلت: لم يذكر لهذا الحديث إسناد فينظر فيه، وحديث لا يعلم حاله لا يحتج به، ولو صحَّ لم يكن فيه دليل لأنه تضمن تفضيل فقير يتصدق من جهد فمعه فقر الصابرين وغنى الشاكرين، فقد جمع بين موجب التفضيل وسببه، ولا ريب أن هذا أفضل الأقسام الثلاثة ودرهمه الواحد يسبق مائة ألف درهم من غيره، كما قال النبي ﷺ: «سبق درهم مائة ألف درهم» قالوا: يا رسول الله! كيف سبق درهم مائة ألف درهم؟ قال رجل كان له درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به، وآخر له مال كثير فأخذ من عرضه مائة ألف فتصدق بها». رواه النسائي من حديث صفوان بن عيسى، حدثنا ابن عجلان عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وذكر البيهقي من حديث الثوري عن أبي إسحاق عن الحارث عن

علي رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة نفر إلى النبي ﷺ فقال أحدهم كانت لي مائة أوقية فتصدقت منها بعشر أواق؛ وقال الآخر: كانت لي مائة دينار فتصدقت منها بعشر دنانير، وقال الآخر: كان لي عشرة دنانير فتصدقت منها بدينار، فقال: كلكم في الأجر سواء؛ كلكم قد تصدق بعشر ماله.

وقال أبو سعيد بن الأعرابي حدثنا ابن أبي العوام حدثنا يزيد بن هرون حدثنا أبو الأشهب عن الحسن قال: قال رجل لعثمان بن عفان رضي الله عنه: ذهبتم يا أصحاب الأموال بالخير تتصدقون وتعتقون وتحجون وتنفقون، فقال عثمان وإنكم لتغبطوننا وإنا لنغبطكم، قال فوالله لدرهم ينفقه أحد من جهد خير من عشرة آلاف درهم غيض من فيض.

وفي سنن أبي داود من حديث الليث عن أبي الزبير عن يحيى بن جعدة عن أبي هريرة أنه قال يا رسول الله أي الصدقة أفضل؟ قال: جهد المقلّ وابدأ بمن تعول، وفي المسند وصحيح ابن حبان من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أي الصدقة أفضل؟ قال جهد من مقل، وفي سنن النسائي من حديث الأوزاعي عن عبيد بن عمير عن عبدالله بن حبشي أن النبي ﷺ سئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان لا شك فيه، وجهاد لا غلول فيه، وحجة مبرورة، قيل: فأيّ الصلاة أفضل؟ قال: طول القيام، قيل: فأي الصدقة أفضل؟ قال: جهد من مقل، قيل: فأي الهجرة أفضل؟ قال: من هجر ما حرم الله عليه، قيل: فأي الجهاد أفضل؟ قال: من أهريق دمه وعقر جواده.

وهذه الأحاديث كلها تدل على أن صدقة جهد المقل أفضل من صدقة كثير المال ببعض ماله الذي لا يتبين أثر نقصانه عليه وإن كان كثيراً، لأن الأعمال تتفاضل عند الله بتفاضل ما في القلوب لا بكثرتها وصورها، بل بقوة الداعي وصدق الفاعل وإخلاصه وإيثاره الله على نفسه، فأين

صدقة من آثر الله على نفسه برغيف هو قوته إلى صدقة من أخرج مائة ألف درهم من بعض ماله غيضاً من فيض، فرغيف هذا درهمه في الميزان أثقل من مائة ألف هذا. والله المستعان.

فصل: واحتجوا بما رواه ابن عدي من حديث سليمان بن عبد الرحمن حدثنا خالد بن يزيد عن أبيه عن عطاء سمع أبا سعيد الخدري يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم توفني فقيراً ولا توفني غنياً» وهذا الحديث لا يصح، فإن خالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن مالك الدمشقي أجمعوا على ضعفه وعدم الاحتجاج بحديثه، قال أحمد: ليس بشيء، وقال ابن معين: واه، ونسبه يحيى إلى الكذب وقد تقدم فيه، وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذه المسألة فقال: قد تنازع كثير من المتأخرين في الغني الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل، فرجح هذا طائفة من العلماء والعباد، ورجح هذا طائفة أخرى من العلماء والعباد، وحكى في ذلك عن الإمام أحمد روايتان، وأما الصحابة والتابعون رضي الله عنهم فلم ينقل عن أحد منهم تفضيل أحد الصنفين على الآخر، وقد قالت طائفة ثالثة ليس لأحدهما على الأخرى فضيلة إلا بالتقوى، فأيهما أعظم إيماناً وتقوى كان أفضل فإن استويا في ذلك استويا في الفضيلة، قال وهذا أصح الأقوال لأن نصوص الكتاب والسنة إنما تفضل بالإيمان والتقوى وقد قال تعالى: ﴿إنْ يَكُنْ غَنِيًّا أو فقيراً فاللّهُ أولـى بهما﴾ [النساء: ١٣٥] وقد كان في الأنبياء والسابقين الأولين من الأغنياء من هو أفضل من أكثر الفقراء، وكان فيهم من الفقراء من هو أفضل من أكثر الأغنياء، والكاملون يقومون بالمقامين، فيقومون بالشكر والصبر على التمام كحال نبينا ﷺ وحال أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

ولكن قد يكون الفقر لبعض الناس أنفع، والغنى لآخرين أنفع كما تكون الصحة لبعضهم أنفع والمرض لبعضهم أنفع، كما في الحديث الذي رواه البغوي وغيره عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: «إن

من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك، إني أدبر عبادي، إني بهم خبير بصير».

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل الأغنياء» وفي الحديث الآخر: «لما علم الفقراء الذكر عقب الصلاة سمع بذلك الأغنياء، فقالوا مثل ما قالوا؛ فذكر ذلك الفقراء للنبي ﷺ فقال: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» فالفقراء يتقدمون في دخول الجنة لخفة الحساب عليهم؛ والأغنياء يؤخرون لأجل الحساب عليهم، ثم إذا حوسب أحدهم فإن كانت حسناته أعظم من حسنات الفقير كانت درجته في الجنة فوقه، وإن تأخر في الدخول، كما أن السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ومنهم عكاشة بن محصن، قد يدخل الجنة من يكون أفضل من أحدهم في الدرجات، لكن أولئك استراحوا من تعب الحساب فهذا في الفقر المذكور في الكتاب والسنة وهو ضد الغنى؛ الذي يبيح أخذ الزكاة أو الذي لا يوجب الزكاة.

ثم قد صار في اصطلاح كثير من الناس أن الفقر عبارة عن الزهد والعبادة والأخلاق، ويسمون من اتصف بذلك فقيراً وإن كان ذا مال، ومن لم يتصف بذلك. قالوا: ليس بفقير وإن لم يكن له مال، وقد يسمى هذا المعنى تصوفاً، ومن الناس من يفرق بين مسمى الفقير الصوفي، ثم من هؤلاء من يجعل مسمى الفقير أفضل ومنهم من يجعل مسمى الصوفي أفضل، والتحقيق في هذا الباب أنه لا ينظر إلى الألفاظ المحدثة بل ينظر إلى ما جاء به الكتاب والسنة من الأسماء والمعاني، والله قد جعل وصف أوليائه الإيمان والتقوى، فمن كان نصيبه من ذلك أعظم كان أفضل، والأغنياء والفقراء هما سواءٌ في ذلك. والله أعلم.

الباب الثالث والعشرون

في ذكر ما احتجت به الفقراء
من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار

قالت الفقراء: لم يذكر الله سبحانه الغنى والمال في القرآن إلا على أحد وجوه: الأول على وجه الذم، كقوله تعالى: ﴿كلَّا إن الإنسانَ ليطغى أنْ رآهُ استغنى﴾ [العلق: ٦] وقوله: ﴿ولو بسطَ الله الرزقَ لعباده لبغوْا في الأرض﴾ [الشورى: ٢٧] وقوله: ﴿ولولا أن يكون الناس أمـةً واحدةً لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارجَ عليها يظهرون ولبيوتهم أبواباً وسُرُراً عليها يتكئون، وزخرفاً وإنْ كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾ [الزخرف: ٣٣] وقال تعالى: ﴿فلا تعجبك أموالُهم ولا أولادُهم إنما يُريدُ الله ليعذبَهم بها في الحياة الدنيا وتزهقَ أنفسُهم وهم كافرون﴾ [التوبة: ٥٥] وقال تعالى: ﴿المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدنيا﴾ [الكهف: ٤٦] وقال: ﴿زين للناس حبُّ الشهواتِ من النساء والبنينَ والقناطيرِ المقنطرة مِن الذهبِ والفضَة﴾ [آل عمران: ١٤] الآية ونظائر ذلك كثير.

الوجه الثاني: أن يذكره على وجه الابتلاء والامتحان، كما قال تعالى: ﴿إنما أموالُكم وأولادُكم فتنة﴾ [التغابن: ١٥] وقال تعالى: ﴿أيحسبون أنَّما نُمـدُّهُم به من مـالٍ وبنينَ نسـارعُ لهم في الخيراتِ بـل لا يَشعـرون﴾ [المؤمنون: ٥٥] وقال تعالى مخبراً عن ابتلائه بالغنى كما ابتلى بالفقر: ﴿فأمَّا الإنسانُ إذا ما ابتلاهُ ربُّه فأكرمَه ونعمَّه فيقولُ ربي أكرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥] الآية، وقال تعالى: ﴿ونَبْلُوكُم بالشرّ والخيرِ فتنةً وإلينا تُرجعون﴾ [الأنبياء: ٣٥].

الوجه الثالث: إخباره سبحانه وتعالى أن الأموال والأولاد لا تقرب إليه شيئاً، وإنما يقرب إليه الإيمان والعمل الصالح كما قال: ﴿وما أموالكم

ولا أولادُكم بالتي تُقرِّبُكم عندنا زُلفى إلا مَنْ آمَنَ وعملَ صالحاً فأولئكَ لهم جَزَاءُ الضِّعْفِ بما عَمِلوا وهم في الغُرُفَاتِ آمِنُون﴾ [سبأ: ٣٧].

الوجه الرابع: إخباره أن الدنيا والغنى والمال إنما جعلها متعة لمن لا نصيب له في الآخرة، وأن الآخرة جعلها للمتقين فقال تعالى: ﴿ولا تَمُدَّنَّ عينيْكَ إلى مَا متَّعْنَا به أزواجاً منهم زهرةَ الحياةِ الدنيا لِنفتنَهم فيه، ورزقُ ربِّك خيرٌ وأبقى﴾ [طه: ١٣١] وقال تعالى: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾ [الأحقاف: ٢٠] وإلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ بقوله لعمر: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة» وسيأتي الحديث.

الوجه الخامس: أنه سبحانه لم يذكر المترفين وأصحاب الثروة إلا بالذم كقوله: ﴿إنهم كانوا قبل ذلك مترفين﴾ [الواقعة: ٤٥] وقوله: ﴿وإذا أردنا أنْ نُهلكَ قريةً أمرنَا مُترفيها ففسقوا فيها﴾ [الإسراء: ١٦] وقوله تعالى: ﴿لا تركُضوا وارجِعُوا إلى ما أُترفْتُم فيه ومَساكِنِكُم لعلَّكُم تُسألون﴾ [الأنبياء: ١٣].

الوجه السادس: أنه سبحانه ذم محب المال فقال: ﴿وتأكلون التراثَ أكلاً لماً وتُحبون المالَ حُبّاً جَمّاً﴾ [الفجر: ٢٠]، فذمهم بحب المال وعيرهم به.

الوجه السابع: أنه سبحانه ذم متمني الدنيا والغنى والسعة فيها، ومدح من أنكر عليهم وخالفهم فقال تعالى عن أغنى أهل زمانه: ﴿فخرجَ على قومه في زينته قال الذين يُريدون الحياةَ الدنيا يا ليتَ لنا مثلَ ما أوتي قارونَ إنَّه لذو حَظٍّ عظيم وقال الذينَ أُوتوا العلمَ ويلَكُم ثوابُ اللّهِ خيرٌ لمن آمنَ وعملَ صالحاً ولا يُلَقَّاهَا إلا الصابرون﴾ [القصص: ٨٠] فأخبروا أن ما عند الله خير من الدنيا لمن آمن وعمل صالحاً، ولا يلقى هذه الوصية وهي الكلمة التي تكلم بها الذين أوتوا العلم أو المثوبة والجنة التي دل عليها قوله ثواب الله خير، والسيرة والطريقة التي دل عليها قوله: لمن آمن وعمل

صالحاً، وعلى كل حال لا يلقى ذلك إلا الصابرون على الفقر وعن الدنيا وشهواتها وما أترف فيه الأغنياء، وقد شهد الله سبحانه لهم أنهم من أهل العلم دون الذين تمنوا الدنيا وزينتها.

الوجه الثامن: أنه سبحانه أنكر على من ظن أن التفضيل يكون بالمال الذي يحتاج إليه لإقامة الملك، فكيف بما هو زيادة وفضلة فقال تعالى: ﴿وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً، قالوا أنىٰ يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعةً من المال، قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم﴾ [البقرة: ٢٤٧] فرد الله سبحانه قولهم، وأخبر سبحانه أن الفضل ليس بالمال كما توهموه، وأن الفضل بالعلم لا بالمال، وقال سبحانه: ﴿قلْ بفضلِ الله وبرحمته فبذلك فليفرَحُوا هو خيرٌ مما يَجْمعون﴾ [يونس: ٥٨] ففضله ورحمته العلم والإيمان والقرآن والذي يجمعونه هو المال وأسبابه. ومثله قوله تعالى: ﴿أهم يقسمونَ رحمةَ ربِّك ـ إلى قوله ـ ورحمةُ ربِّك خيرٌ مما يَجْمعون﴾ [الزخرف: ٣٢].

الوجه التاسع: أنه سبحانه أخبر أن التكاثر في جمع المال وغيره ألهى الناس وشغلهم عن الآخرة والاستعداد لها وتوعدهم على ذلك فقال تعالى: ﴿ألهاكُم التكاثرُ حتى زُرتُم المقابرَ كلَّا سوفَ تعلمونَ. ثُمَّ كَلَّا سوفَ تَعلمون﴾ [التكاثر: ١] فأخبر سبحانه أن التكاثر شغل أهل الدنيا وألهاهم عن الله والدار الآخرة حتى حضرهم الموت فزاروا المقابر ولم يفيقوا من رقدة من ألهاهم التكاثر، وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت إيذاناً بأنهم غير مستوطنين ولا مستقرين في القبور وأنهم فيها بمنزلة الزائرين يحضرونها مدة ثم يظعنون عنها كما كانوا في الدنيا كذلك زائرين لها غير مستقرين فيها، ودار القرار هي الجنة أو النار، ولم يعين سبحانه المتكاثر به بل ترك ذكره، إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشيء لا المتكاثر به كما يقال: شغلك اللعب واللهو ولم يذكر ما يلعب ويلهو به، وأما إرادة الإطلاق وهو كل ما تكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا من مال أو جاه أو عبيد أو إماء أو

بناء أو غراس أو علم لا يبتغي به وجه الله أو عمل لا يقربه إلى الله، فكل هذا من التكاثر الملهي عن الله والدار الآخرة.

وفي صحيح مسلم من حديث عبدالله بن الشخير أنَّهُ قال: «انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يقرأ ألهاكم التكاثر، وقال: يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت»، ثم أوعد سبحانه من ألهاه التكاثر وعيداً مؤكداً إذا عاين تكاثره هباءً منثوراً، وعلم دنياه التي كاثر بها إنما كانت خدعاً وغروراً، فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له، وخسر هنالك تكاثره كما خسر أمثاله، وبدا له من الله ما لم يكن في حسابه، وصار تكاثره الذي شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه، فعذب بتكاثره في دنياه، ثم عذب به في البرزخ، ثم يعذب به يوم القيامة، فكان أشقى بتكاثره إذ أفاد منه العطب دون الغنيمة والسلامة، فلم يفز من تكاثره إلا بأن صار من الأقلين، ولم يحفظ به من علوه به في الدنيا بأن حصل مع الأسفلين فيا له تكاثراً ما أقله، ورزءاً ما أجله، ومن غنى جالباً لكل فقر، وخيراً توصل به إلى كل شر، يقول صاحبه إذا انكشف عنه غطاؤه، يا ليتني قدمت لحياتي وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتي ﴿ربِّ ارجعوني لعلّي أعملُ صالحاً فيما تركتُ كَلَّا إنَّها كلمةٌ هو قائلُها﴾ [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠] تلك كلمة يقولها فلا يعول عليها، ورجعة يسألها فلا يجاب إليها.

وتأمل قوله أولاً (ربِّ) استغاث بربه ثم التفت إلى الملائكة الذين أمروا بإحضاره بين يدي ربه تبارك وتعالى قال: ﴿ارجعوني﴾ ثم ذكر سبب سؤال الرجعة وهو أن يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه فيقال له كلا، لا سبيل لك إلى الرجعى وقد عمرت ما يتذكر فيه من تذكر.

ولما كان شأن الكريم الرحيم أن يجيب من استغاث وأن يفسح له في المهلة ليتذكر ما فاته أخبر سبحانه أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو

قائلها لا حقيقة تحتها وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحاً لو أجيب، وإنما ذلك شيء يقوله لسانه وأنه لو رد لعاد لما نُهي عنه وأنه من الكاذبين فحكمه أحكم الحاكمين وعزته وعلمه وحمده يأبى إجابته إلى ما سأل فإنه لا فائدة في ذلك، ولو رد لكانت حالته الثانية مثل حالته الأولى كما قال تعالى: ﴿ولو تَرى إذْ وُقِفُوا على النَّار قالوا يا ليتنا نُرَدُّ ولا نُكَذِّبُ بآياتِ ربِّنا ونكونَ من المؤمنين. بل بَدا لهم ما كانوا يُخفون من قبلُ ولو رُدُّوا لعادُوا لما نُهوا عنه وإنَّهم لكاذبون﴾ [الأنعام: ٢٧ - ٢٨].

وقد حام أكثر المفسرين حول معنى هذه الآية وما أوردوا فراجع أقوالهم تجدها لا تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ومعناها أجل وأعظم مما فسروا به، ولم يتفطنوا لوجه الإضراب ببل، ولا للأمر الذي بدا لهم وكانوا يخفونه، وظنوا أن الذي بدا لهم العذاب، فلما لم يروا ذلك ملتئماً مع قوله: ﴿ما كانوا يُخفون من قبلُ﴾ قدروا مضافاً محذوفاً وهو خبر ما كانوا يخفون من قبل، فدخل عليهم أمر آخر لا جواب لهم عنه وهو أن القوم لم يكونوا يخفون شركهم وكفرهم، بل كانوا يظهرونه ويدعون إليه ويحاربون عليه، ولما عللوا أن هذا وارد عليهم قالوا إن القوم في بعض موارد القيامة ومواطنها أخفوا شركهم وجحدوه، وقالوا والله ربنا ما كنا مشركين، فلما وقفوا على النار بدا لهم جزاء ذلك الذي أخفوه، قال الواحدي: وعلى هذا أهل التفسير، ولم يصنع أرباب هذا القول شيئاً، فإن السياق والإضراب ببل والإخبار عنهم بأنهم لو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه، وقولهم: والله ربنا ما كنا مشركين، لا يلتئم بهذا الذي ذكروه فتأمله.

وقالت طائفة منهم الزجّاج: بل بدا للأتباعِ ما أخفاه عنهم الرؤساء من أمر البعث، وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير، وفيه من التكلف ما ليس بخاف، وأجود من هذا ما فهمه المبرد من الآية قال: كأن كفرهم لم يكن بادياً لهم إذ خفيت عليهم مضرته، ومعنى كلامه أنهم لما خفيت عليهم مضرة عاقبته ووباله فكأنه كان خفياً عنهم لم تظهر لهم حقيقته، فلما عاينوا

العذاب ظهرت لهم حقيقته وشره. قال: وهذا كما تقول لمن كنت حدثته في أمر قبل، وقد ظهر لك الآن ما كنت قلت لك، وقد كان ظاهراً له قبل هذا، ولا يسهل أن يعبر عن كفرهم وشركهم الذي كانوا ينادون به على رؤوس الأشهاد ويدعون إليه كل حاضر وباد، بأنهم كانوا يخفونه لخفاء عاقبته عنهم، ولا يقال لمن أظهروا الظلم والفساد وقتل النفوس والسعي في الأرض بالفساد أنه أخفى ذلك لجهله بسوء عاقبته وخفائها عليه.

فمعنى الآية والله أعلم بما أراد من كلامه أن هؤلاء المشركين لما وقفوا على النار وعاينوها وعلموا أنهم داخلوها، تمنوا أنهم يردون إلى الدنيا فيؤمنون بالله وآياته ولا يكذبون رسله، فأخبر سبحانه أن الأمر ليس كذلك، وأنهم ليس في طباعهم وسجاياهم الإيمان بل سجيتهم الكفر والشرك والتكذيب، وأنهم لو ردوا لكانوا بعد الرد كما كانوا قبله. وأخبر أنهم كاذبون في زعمهم أنهم لو ردوا لآمنوا وصدقوا.

فإذا تقرر مقصود الآية ومرادها تبين معنى الإضراب ببل، وتبين معنى الذي بدا لهم والذي كانوا يخفونه والحامل لهم على قولهم يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا فالقوم كانوا يعلمون أنهم كانوا في الدنيا على باطل، وأن الرسل صدقوهم فيما بلغوهم عن الله وتيقنوا ذلك وتحققوه، ولكنهم أخفوه ولم يظهروه بينهم بل تواصوا بكتمانه، فلم يكن الحامل لهم على تمني الرجوع والإيمان، معرفة ما لم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل، فإنهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه، وظهر لهم يوم القيامة ما كانوا ينطوون عليه من علمهم أنهم على باطل، وأن الرسل على الحق، فعاينوا ذلك عياناً بعد أن كانوا يكتمونه ويخفونه، فلو ردوا لما سمحت نفوسهم بالإيمان، ولعادوا إلى الكفر والتكذيب، فإنهم لم يتمنوا الإيمان لعلمهم يومئذ أنه هو الحق وأن الشرك باطل، وإنما تمنوا لما عاينوا العذاب الذي لا طاقة لهم باحتماله، وهذا كمن كان يخفي محبة شخص ومعاشرته وهو يعلم أن حبه باطل، وأنّ الرشد في عدوله عنه، فقيل له إن اطلع عليه وليّه عاقبك، وهو يعلم

ذلك ويكابر ويقول: بل محبته ومعاشرته هي الصواب، فلما أخذه وليه ليعاقبه على ذلك وتيقن العقوبة، تمنى أن يعفى من العقوبة وأنه لا يجتمع به بعد ذلك، وفي قلبه من محبته والحرص على معاشرته ما يحمله على المعاودة بعد معاينة العقوبة، بل بعد أن مسته وأنهكته، فظهر له عند العقوبة ما كان يخفي من معرفته بخطئه وصواب ما نهاه عنه، ولو رد لعاد لما نهي عنه.

وتأمل مطابقة الإضراب لهذا المعنى وهو نفي قولهم إنا لو رددنا لآمنا وصدقنا لأنه ظهر لنا الآن أن ما قاله الرسل هو الحق، أي ليس كذلك بل كنتم تعلمون ذلك وتعرفونه وكنتم تخفونه، فلم يظهر لكم شيء لتكونوا عالمين به لتعذروا، بل ظهر لكم ما كان معلوماً وكنتم تتواصون بإخفائه وكتمانه والله أعلم.

ولا تستطل هذا الفصل المعترض في أثناء هذه المسألة فلعله أهم منها وأنفع وبالله التوفيق، فلنرجع إلى تمام الكلام فيها.

وقوله: ﴿كَلَّا لو تعلمونَ علمَ اليقين﴾ جوابه محذوف دل عليه ما تقدم أي لما ألهاكم التكاثر، وإنما وجد هذا التكاثر وإلهاؤه عما هو أولى بكم لما فقد منكم علم اليقين، وهو العلم الذي يصل به صاحبه إلى حد الضروريات التي لا يشك ولا يمارى في صحتها وثبوتها، ولو وصلت حقيقة هذا العلم إلى القلب وباشرته لما ألهاه عن موجبه وترتب أثره عليه، فإن مجرد العلم بقبح الشيء وسوء عواقبه قد لا يكفي في تركه، فإذا صار له علم اليقين كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشد. فإذا صار عين يقين كجملة المشاهدات كان تخلف موجبه عنه من أندر شيء، وفي هذا المعنى قال حسان بن ثابت رضي الله عنه في أهل بدر:

سرنا وساروا إلى بدر لحتفهم لو يعلمون يقين العلم ما ساروا

وقوله: ﴿كَلَّا سوف تعلمونَ ثمَّ كَلَّا سوفَ تعلَمون﴾ قيل تأكيد لحصول العلم كقوله: ﴿كلَّا سيعلمونَ ثمَّ كَلَّا سيعلمون﴾ وقيل ليس

تأكيداً بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت، والعلم الثاني في القبر، هذا قول الحسن ومقاتل، ورواه عطاء عن ابن عباس، ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه: أحدها أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل، وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته وعدم الإخلال بالفصاحة، الثاني توسط «ثم» بين العلمين وهي مؤذنة بتراخي ما بين المرتبتين زماناً وخطراً. الثالث: أنَّ هذا القول مطابق للواقع فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه، ثم يعلم في القبر وما بعده ذلك علماً هو فوق الأول. الرابع أن علياً بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره من السلف فهموا من الآية عذاب القبر. قال الترمذي حدثنا أبو كريب حدثنا حكام بن سليم الرازي عن عمرو بن قيس عن الحجاج بن المنهال بن عمرعن زر عن علي رضي الله عنه قال: ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت: ﴿ألهاكم التكاثر﴾.

قال الواحدي: يعني أن معنى قوله: ﴿كلا سوف تعلمون﴾ في القبر.

الخامس: أن هذا مطابق لما بعده من قوله: ﴿لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين﴾ فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين: إطلاق الأولى وتقييد الثانية بعين اليقين وتقدم الأولى وتراخي الثانية عنها، ثم ختم السورة بالإخبار المؤكد بواو القسم ولام التأكيد والنون الثقيلة عن سؤال النعيم، فكل أحد يسأل عن نعيمه الذي كان فيه في الدنيا هل ناله من حلاله ووجهه أم لا؟ فإذا تخلص من هذا السؤال سئل سؤالاً آخر: هل شكر الله تعالى عليه فاستعان به على طاعته أم لا، فالأول سؤال عن سبب استخراجه والثاني عن محل صرفه كما في جامع الترمذي من حديث عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن ماذا[1] عمل فيما علم».

(١) في الطبعة السلفية ص ٢٠٢ «وفيما ذا عمل فيما علم».

وفيه أيضاً عن أبي برزة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أبلاه» قال: هذا حديث صحيح.

وفيه أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة ـ يعني من النعيم ـ أن يقال له: ألم نصحح جسمك ونرويك من الماء البارد».

وفيه أيضاً من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه «لما نزلت ﴿لتسئلن يومئذ عن النعيم﴾ قال الزبير: يا رسول الله فأي النعيم نُسأل عنه؟ وإنما هو الأسودان التمر والماء، قال: أما أنه سيكون». قال هذا حديث حسن. وعن أبي هريرة نحوه وقال إنما هو الأسودان العدو حاضر، سيوفنا على عواتقنا قال: إن ذلك سيكون. وقوله إن ذلك سيكون، إما أن يكون المراد به أن النعيم سيكون ويحدث لكم، وإما أن يرجع إلى السؤال، أي أن السؤال يقع عن ذلك، وإن كان تمراً وماء فإنه من النعيم، ويدل عليه قوله ﷺ في الحديث الصحيح: وقد أكلوا معه رطباً ولحماً وشربوا من الماء البارد «هذا من النعيم الذي تُسألون عنه يوم القيامة» فهذا سؤال عن شكره والقيام بحقه.

وفي الترمذي من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يجاء بالعبد يوم القيامة كأنه بذج[1] فيوقف بين يدي الله تعالى فيقول الله: أعطيتك وخولتك وأنعمت عليك فماذا صنعت؟ فيقول: يا رب جمعته وثمرته فتركته أوفر ما كان فأرجعني آتيك به، فإذا أُعيد لم يقدم خيراً فيمضى به إلى النار، وفيه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً وسخرت لك الأنعام والحرث وتركتك ترأس

---

(١) في النهاية «يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بذج من الذل» البذج ولد الضأن وجمعه بذجان.

وترتع أفكنت تظن أنك ملاق يومك هذا؟ فيقول لا، فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني» قال هذا حديث صحيح.

وقد زعم طائفة من المفسرين أن هذا الخطاب خاص بالكفار وهم المسؤولون عن النعيم، وذكر ذلك عن الحسن ومقاتل، واختار الواحدي ذلك، واحتج بحديث أبي بكر لما نزلت هذه الآية: قال رسول الله: «أرأيت أكلة أكلتها معك ببيت أبي الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم وبسر قد ذنّب[1] وماء عذب أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نسأل عنه؟ فقال رسول الله ﷺ: إنما ذلك للكفار، ثم قرأ: ﴿وهل نُجازي إلا الكَفُور﴾ [سبأ: ١٧] قال الواحدي: والظاهر يشهد بهذا القول لأن السورة كلها خطاب للمشركين وتهديد لهم، والمعنى أيضاً يشهد بهذا القول وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم حيث أشركوا به وعبدوا غيره، فاستحقوا أن يُسألوا عما أنعم به عليهم توبيخاً لهم، هل قاموا بالواجب فيه أم ضيّعوا حق النعمة، ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم. قال وهذا معنى قول مقاتل وهو قول الحسن قال: لا يُسأل عن النعيم إلا أهل النار.

قلت: ليس في اللفظ ولا في السنة الصحيحة ولا في أدلة العقل ما يقتضي اختصاص الخطاب بالكفار، بل ظاهر اللفظ وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بإلهاء التكاثر له، فلا وجه لتخصيص الخطاب ببعض المتصفين بذلك، ويدل على ذلك قول النبي ﷺ عند قراءة هذه السورة يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت. الحديث وهو في صحيح مسلم. وقائل ذلك قد يكون مسلماً وقد يكون كافراً، ويدل عليه أيضاً الأحاديث التي تقدمت، وسؤال الصحابة النبي ﷺ وفهمهم العموم حتى قالوا له وأي نعيم نُسأل عنه وإنما هو الأسودان فلو كان الخطاب مختصاً

---

(١) ذنب: بدا به الإرطاب من قبل ذنبه.

بالكفار لبين لهم ذلك وقال ما لكم ولها إنما هي للكفار، فالصحابة فهموا التعميم، والأحاديث صريحة في التعميم، والذي أنزل عليه القرآن أقرهم على فهم العموم.

وأما حديث أبي بكر الذي احتج به أرباب هذا القول فحديث لا يصح. والحديث الصحيح في تلك القصة يشهد ببطلانه ونحن نسوقه بلفظه، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: «خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال: ما أخرجكما من بيوتكما في هذه الساعة؟ قالا: الجوع يا رسول الله قال: وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوما، فقاما معه فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته امرأته قالت مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: وأين فلان؟ قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه فقال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني، قال فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذا، فأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ: إياك والحلوبة، فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: والذي نفسي بيده لتُسألُنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»، فهذا الحديث الصحيح صريح في تعميم الخطاب وأنه غير مختص بالكفار.

وأيضاً فالواقع يشهد بعدم اختصاصه، وإن الإلهاء بالتكاثر واقع من المسلمين كثيراً بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر، وخطاب القرآن عام لمن بلغه وإن كان أول من دخل فيه المعاصرين لرسول الله ﷺ فهو متناول لمن بعدهم، وهذا معلوم بضرورة الدين وإن نازع فيه من لا يعتد بقوله من المتأخرين، فنحن اليوم ومن قبلنا ومن بعدنا داخلون تحت قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا كُتِبَ عليكُم الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] ونظائره كما دخل

تحته الصحابة بالضرورة المعلومة من الدين، فقوله: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف، وهم في الإلهاء والتكاثر درجات لا يحصيها إلّا الله.

فإن قيل: فالمؤمنون لم يلههم التكاثر ولهذا لم يدخلوا في الوعيد المذكور لمن ألهاه؟ قيل: هذا هو الذي أوجب لأرباب هذا القول تخصيصه بالكفار لأنه لم يمكنهم حمله على العموم ورأوا أن الكفار أحق بالوعيد فخصوهم به، وجواب هذا أن الخطاب للإنسان من حيث هو إنسان على طريقة القرآن في تناول الذم له من حيث هو إنسان كقوله: ﴿ وكانَ الإنسانُ عَجُولاً ﴾ [الإسراء: ١٧]، ﴿ وكانَ الإنسانُ قَتُوراً ﴾ [الإسراء: ١٠٠]، ﴿ إنَّ الإنسانَ لربِّه لكَنُود ﴾ [العاديات: ٦]، ﴿ وحَمَلَها الإنسانُ إنَّه كانَ ظَلوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، (إنَّ الإنسان لكفور ﴾ [الحج: ٦٦] ونظائره كثيرة فالإنسان من حيث هو عارٍ عن كل خير من العلم النافع والعمل الصالح وإنما الله سبحانه هو الذي يكمله بذلك ويعطيه إياه وليس له ذلك من نفسه، بل ليس له من نفسه إلّا الجهل المضاد للعلم، والظلم المضاد للعدل، وكل علم وعدل وخير فيه فمن ربه لا من نفسه، فإلهاء التكاثر طبيعته وسجيته التي هي له من نفسه، ولا خروج له عن ذلك إلّابتزكية الله له وجعله مريداً للآخرة مؤثراً لها على التكاثر بالدنيا، فإن أعطاه ذلك وإلّا فهو مُلتهٍ بالتكاثر في الدنيا ولا بدّ.

وأما احتجاجه بالوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار فيقال الوعيد المذكور مشترك وهو العلم عند معاينة الآخرة، فهذا أمر يحصل لكل أحد لم يكن حاصلاً له في الدنيا، وليس في قوله ﴿ سوف تعلمون ﴾ ما يقتضي دخول النار فضلاً عن التخليد فيها، وكذلك رؤية الجحيم لا يستلزم دخولها لكل من رآها، فإن أهل الموقف يرونها ويشاهدونها عياناً، وقد أقسم الرب تبارك وتعالى أنه لا بدّ أن يراها الخلق كلهم، مؤمنهم وكافرهم، وبرهم وفاجرهم، فليس في جملة هذه السورة ما ينفي عموم خطابها، وأما

ما ذكره عن الحسن أنه لا يسأل عن النعيم إلّا أهل النار فباطل قطعاً إما عليه وإما منه، والأحاديث الصحيحة الصريحة ترده وبالله التوفيق.

ولا يخفى أن مثل هذه السورة مع عظم شأنها وشدة تخويفها وما تضمنته من تحذير الملهى، وانطباق معناها على أكثر الخلق، يأبى اختصاصها من أولها إلى آخرها بالكفار، ولا يليق ذلك بها، ويكفي في ذلك تأمل الأحاديث المرفوعة فيها والله أعلم.

وتأمل ما في هذا العتاب الموجع لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها إلى أن زار القبور ولم يستيقظ من نوم الإلهاء، بل أرقد التكاثر قلبه فلم يستفق منه إلّا وهو في عسكر الأموات، وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتبين لك أن العموم مقصود، وتأمل تعليقه سبحانه الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير تقييد بمتكاثر به، ليدخل فيه التكاثر بجميع أسباب الدنيا على اختلاف أجناسها وأنواعها، وأيضاً فإن التكاثر تفاعل وهو طلب كل من المتكاثرين أن يكثر صاحبه فيكون أكثر منه فيما يكاثره به، والحامل له على ذلك توهمه أن العزة للكاثر كما قيل:

ولستُ بالأكثر منهم حصىً وإنما العزةُ للكاثر

فلو حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره كما كانت الكثرة حاصلة لجماعة من الصحابة ولم تضرهم إذ لم يتكاثروا بها، وكل من كاثر إنساناً في دنياه أو جاهه أو غير ذلك شغلته مكاثرته عن مكاثرة أهل الآخرة، فالنفوس الشريفة العلوية ذات الهمم العالية إنما تكاثر بما يدوم عليها نفعه وتكمل به وتزكو، وتصير مفلحة فلا تحب أن يكثرها غيرها في ذلك وينافسها في هذه المكاثرة ويسابقها إليها، فهذا هو التكاثر الذي هو غاية سعادة العبد، وضده تكاثر أهل الدنيا بأسباب دنياهم، فهذا تكاثر ملهٍ عن الله والدار الآخرة وهو صائر إلى غاية القلة، فعاقبة هذا التكاثر قلة وفقر وحرمان، والكاثر بأسباب السعادة الأخروية تكاثر لا يزال يذكر بالله ولقائه، وعاقبته الكثرة الدائمة التي لا تزول ولا تفنى، وصاحب هذا

التكاثر لا يهون عليه أن يرى غيره أفضل منه قولاً وأحسن منه عملاً وأغزر علماً، وإذا رأى غيره أكثر منه في خصلة من خصال الخير يعجز عن لحاقه فيها كاثره بخصلة أخرى هو قادر على المكاثرة بها، وليس هذا التكاثر مذموماً ولا قادحاً في إخلاص العبد بل هو حقيقة المنافسة واستباق الخيرات.

وقد كانت هذه حال الأوس مع الخزرج رضي الله عنهم في تصاولهم بين يدي رسول الله ﷺ ومكاثرة بعضهم لبعض في أسباب مرضاته ونصره، وكذلك كانت حال عمر مع أبي بكر رضي الله عنهما، فلما تبين له مدى سبقه له قال: والله لا أسابقك إلى شيء أبداً.

فصل: ومن تأمل حسن موقع «كلا» في هذا الموضع فإنها تضمنت ردعاً لهم وزجراً عن التكاثر ونفياً وإبطالاً لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم وعزتهم وكمالهم به فتضمنت اللفظة نهياً ونفياً، وأخبرهم سبحانه أنهم لا بد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم علماً بعد علم، وأنهم لا بد أن يروا دار المكاثرين بالدنيا التي ألهتهم عن الآخرة رؤية بعد رؤية؛ وأنه سبحانه لا بد أن يسألهم عن أسباب تكاثرهم من أين استخرجوها وفيما صرفوها.

فلله ما أعظمها من سورة وأجلها وأعظمها فائدة، وأبلغها موعظةً وتحذيراً، وأشدّها ترغيباً في الآخرة، وتزهيداً في الدنيا على غاية اختصارها، وجزالة ألفاظها، وحسن نظمها، فتبارك من تكلم بها حقاً وبلغها رسوله عنه وحياً.

فصل: وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم إلى غاية كل حي، زائرين غير مستوطنين بل هم مستودعون في المقابر مدة وبين أيديهم دار القرار، فإذا كانوا عند وصولهم إلى الغاية زائرين فكيف بهم وهم في الطريق في هذه الدار، فهم فيها عابرو سبيل إلى محل الزيارة ثم منتقلون من محل الزيارة إلى المستقر، فها هنا ثلاثة أمور: عبور السبيل في هذه الدنيا، وغايته زيارة القبور وبعدها النقلة إلى دار القرار.

فصل: فلنرجع إلى تمام المناظرة، قالوا: فالله تعالى حمى أولياءه عن الدنيا وصانهم عنها ورغب بهم عنها تكريماً لهم وتطهيراً عن أدناسها، ورفعة عن دناءتها، وذماً لهم، وأخبرهم بهوانها عليه، وسقوط قدرها عنده، وأعلمهم أن بسطها فتنة وأنه سبب الطغيان والفساد في الأرض، وإلهاء التكاثر بها عن طلب الآخرة وأنها متاع الغرور، وذم محبيها ومؤثريها، وأخبر أن من أرادها أو أراد زينتها وحرثها فليس له في الآخرة من نصيب، وأخبر أن بسطها فتنة، وابتلاء لا كرامة ومحبة، وأن إمداد أهلها بها ليس مسارعة لهم في الخيرات وأنها لا تقرب إليه ولا تزلف لديه، وأنه لولا تتابع الناس في الكفر لأعطى الكفار منها فوق مناهم، ووسعها عليهم أعظم التوسعة بحيث يجعل سقوف بيوتهم وأبوابهم ومعارجهم وسررهم كلها من فِضَة، وأخبر أنه زينها لأعدائه ولضعفاء العقول الذين لا نصيب لهم في الآخرة، ونهى رسوله عن مد عينيه إليها وإلى ما متع به أهلها، وذم من أذهب طيباته فيها واستمتع بها، وقال لنبيه: ﴿ذَرْهُم يأكُلُوا ويتمتعوا ويُلْهِهُمُ الأملُ فسوفَ يَعلمون﴾ [الحجر: ٣] وفي هذا تقوية لما منعه أولياءه من التمتع بالدنيا وكثرة الأكل فيها، وتأديب لمن بسط له فيها ألا يطغى فيها، ولا يعطي نفسه شهواتها ولا يتمتع بها، وذم سبحانه محبيها المفتخرين بها المكاثرين بها الظانين أن الفضل والكرامة في سعتها وبسطها فأكذبهم الله سبحانه.

وأخبر أنه ليس كما قالوه ولا توهموه، ومثلها لعباده بالأمثلة التي تدعو كل لبيب عاقل إلى الزهد فيها وعدم الوثوق بها والركون إليها فأحضر صورتها وحقيقتها في قلوبهم بما ضربه لها مثلاً: كماء أنزله من السماء فخالط نبات الأرض فلما أخذت به الأرض زخرفها وتزينت بأنواع النبات أتاها أمره فجعل تلك الزينة يبساً هشيماً تذروه الرياح كأن لم يكن قط منه شيء.

وأخبر سبحانه عن فنائها وسرعة انقضائها وأنه إذا عاين العبد الآخرة فكأنه لبث فيها ساعة من نهار أو يوماً أو بعض يوم، ونهى سبحانه عباده

أن يغتروا بها وأخبرهم أنها لهو ولعب وزينة وتفاخر وتكاثر ومتاع غرور، وطريق ومعبر إلى الآخرة، وأنها عرض عاجل لا بقاء له، ولم يذكر مريدها بخير قط بل حيث ذكره ذمه، وأخبر أن مريدها مخالف لربه تعالى في إرادته، فالله يريد شيئاً ومريد الدنيا يريد خلافه، فهو مخالف لربه بنفس إرادته، وكفى بهذا بعداً عنه سبحانه، وأخبر سبحانه عن أهل النار أنهم إنما دخلوها بسبب غرور الدنيا وأمانيها لهم، قالوا وهذا كله تزهيد لهم منه سبحانه فيها وترغيب في التقال منها ما أمكن.

قالوا: وقد عرضها سبحانه وعرض مفاتيح كنوزها على أحب الخلق إليه وأكرمهم عليه عبده ورسوله محمد ﷺ فلم يردْها ولم يخترها ولو آثرها وأرادها لكان أشكر الخلق بما أخذه منها وأنفقه كله في مرضاة الله وسبيله قطعاً، بل اختار التقلل منها وصبر على شدة العيش فيها.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن محمد حدثنا عباد ـ يعني ابن عباد ـ حدثنا مجالد بن سعيد عن الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت عليَّ امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية فرجعت إلى منزلها فبعثت إليَّ بفراش حشوه الصوف فدخل عليّ رسول الله ﷺ فقال ما هذا؟ فقلت فلانة الأنصارية دخلت علي فرأت فراشك فبعثت إليّ بهذا، فقال رديه، فلم أرده، وأعجبني أن يكون في بيتي حتى قال ذلك ثلاث مرات، فقال يا عائشة رديه والله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة.

وعرض عليه مفاتيح كنوز الدنيا فلم يأخذها، وقال بل أجوع يوماً وأشبع يوماً، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك، وسأل ربه أن يجعل رزق أهله قوتاً، كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً» وفيهما عنه قال: « والذي نفس أبي هريرة بيده ما شبع نبي الله وأهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز حنطة حتى فارق الدنيا».

وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه: ما أعلم أن رسول الله ﷺ رأى رغيفاً مرققاً ولا شاة سميطاً قط حتى لحق بربه. وفي صحيحه أيضاً عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ولم يشبع من خبز الشعير، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض وفي صحيح مسلم عن عمر رضي الله عنه: لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم ما يجد دقلاً يملأ بطنه.

وفي المسند والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعات طاوياً وأهله لا يجدون عشاءً، وكان أكثر خبزهم خبر الشعير. قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح. وفي الترمذي من حديث أبي أمامة: ما كان يفضل أهل بيت رسول الله ﷺ خبز الشعير. وفي المسند عن عائشة رضي الله عنها والذي بعث محمداً بالحق ما رأى منخلاً ولا أكل خبزاً منخولاً منذ بعثه الله عز وجل إلى أن قبض. قال عروة: فقلت فكيف كنتم تأكلون الشعير؟ قالت: كنا نقول أف - أي تنفخه - فيطير ما طار وتعجن الباقي.

وفي صحيح البخاري عن أنس قال: لقد رهن رسول الله ﷺ درعه بشعير. ولقد سمعته يقول: ما أصبح لآل محمد صاع ولا أمسى، وإنهم لتسعة أبيات - وفي مسند الحارث عن أبي أسامة عن أنس أن فاطمة رضي الله عنها جاءت بكسرة خبز إلى النبي ﷺ فقال: ما هذه الكسرة يا فاطمة؛ قالت: قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة، فقال: أما إنه أول طعام دخل في فم أ بك منذ ثلاثة أيام.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع حدثنا عبد الواحد بن أيمن عن أبيه عن جابر رضي الله عنه قال: لما حفر رسول الله ﷺ الخندق أصابهم جهد شديد حتى ربط النبي ﷺ على بطنه حجراً من الجوع.

وقد أسرف أبو حاتم بن حبان في تقاسيمه في رد هذا الحديث وبالغ

في إنكاره وقال: المصطفى أكرم على ربه من ذلك، وهذا من وهمه وليس في هذا ما ينقص مرتبته عند ربه، بل ذلك رفعة له وزيادة في كرامته وعبرة لمن بعده من الخلفاء والملوك وغيرهم، وكأن أبا حاتم لم يتأمل سائر الأحاديث في معيشة النبي ﷺ، وهل ذلك إلا من أعظم شواهد صدقه؟ فإنه لو كان كما يقول أعداؤه وأعداء ربه أنه ملك طالب مُلك ودنيا لكان عيشه عيش الملوك وسيرته سيرتهم، ولقد توفاه الله وإن درعه مرهونة عند يهودي على طعام أخذه لأهله. وقد فتح الله عليه بلاد العرب وجبيت إليه الأموال ومات ولم يترك درهماً واحداً ولا ديناراً ولا شاةً ولا بعيراً ولا عبداً ولا أمَةً.

قال الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد بن مطرف عن أبي حازم عن عروة أنه سمع عائشة تقول: كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوت رسول الله ﷺ نار، قلت: يا خالة؛ فعلى أي شيء كنتم تعيشون؟ قالت على الأسودين التمر والماء. وقد تقدم حديث أبي هريرة في قصة أبي الهيثم بن التيهان وأنه خرج رسول الله ﷺ من بيته فرأى أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال: ما أخرجكما؟ قالا: الجوع، قال: وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما.

وذكر أحمد من حديث مسروق قال: دخلت على عائشة فدعت لي بطعام وقالت ما أشبع من طعام فأشاء أن أبكي إلا بكيت؟ قال: قلت لم؟ قالت: اذكر الحال التي فارق عليها رسول الله ﷺ الدنيا، والله ما أشبع في يوم مرتين من خبز البر حتى قبض، وفيه عنها: ما أشبع رسول لله ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض، وا- ديثان صحيحان وفيه أيضاً عنها: ما شبع آل محمد من خبز مأدوم ثلاثة أيام حتى لحق بالله عز وجل. وفي الصحيحين عن أبي هريرة؛ ما شبع رسول الله ﷺ وأهله ثلاثة أتباعاً من خبز البر حتى فارق الدنيا.

وفي الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاءً، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير.

وفيه أيضاً: عن أنس عنه ﷺ: «لقد أُخفتُ في الله وما يُخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ولقد أتت عليَّ ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله فلو كبدٍ إلا شيء يواريه إبط بلال». والحديثان صحيحان، وفيه أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن أبي طلحة رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا حجراً حجراً فرفع رسول الله ﷺ عن بطنه حجرين. وفيه أيضاً عن علقمة عن عبدالله رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء؟ فقال: مالي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها، حديث صحيح. وفيه عن عليٍّ رضي الله عنه قال: خرجت في يوم شاتٍ من بيت رسول الله ﷺ وقد أخذت إهاباً معطوناً فجوبت وسطه وأدخلته في عنقي فشددت به وسطي فحزمته بخوص من النخل وإني لشديد الجوع، ولو كان في بيت رسول الله ﷺ طعام لطعمت منه، فخرجت ألتمس شيئاً فمررت بيهودي في مال له وهو يسقي ببكرة له فاطلعت عليه من ثلمة من الحائط، فقال: ما لك يا أعرابي وهل لك في كل دلو بثمرة؟ قلت نعم، فافتح الباب حتى أدخل، ففتح فدخلت، فأعطاني دلوه، فكلما نزعت دلواً أعطاني ثمرة؛ حتى امتلأت كفي أرسلت دلوه وقلت حسبي فأكلتها ثم جرعت من الماء فشربت ثم جئت الماءَ فوجدت رسول الله ﷺ فيه. وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لقد رأيتنا نغزو مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا الحبلة وهذا السمر، والحبلة ثمر العضاة ذات الشوك، وهو حديث صحيح.

وكان ﷺ يصلي من الليل أحياناً وعليه كساء صوف بعضه عليه وبعضه على عائشة. قال الحسن: أثمان ستة دراهم أو سبعة. وقال أحمد حدثنا أبو سعيد حدثنا أبو زائدة حدثنا عطاء عن أبيه عن علي قال: جهز رسول الله ﷺ فاطمة في خميل وقربة ووسادة من أدم حشوها ليف، والخميل الكساء الذي خمل قال وحدثنا بهز بن أسد حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد قال: قال أبو بردة دخلت على عائشة فأخرجت إلينا إزاراً غليظاً مما

يصنع باليمن وكساء من هذه التي تدعونها الملبدة فقالت قبض رسول الله ﷺ في هذين الثوبين.

قالوا ولو كان الغنى مع الشكر أفضل من الفقر مع الصبر لاختاره رسول الله ﷺ إذ عرضت عليه الدنيا، ولأمره ربه أن يسأله إياه كما أمره أن يسأله زيادة العلم، ولم يكن رسول الله ﷺ ليختار إلا ما اختاره الله له، ولم يكن الله ليختار له إلا الأفضل، إذ كان أفضل خلقه وأكملهم.

قالوا وقد أخبر النبي ﷺ أن خير الرزق ما كان بقدر كفاية العبد فلا يعوزه ما يضره ولا يفضل عنه ما يطغيه ويلهيه.

قال الإمام أحمد: حدثنا ابن مهدي حدثنا همام عن قتادة عن خليد العصري عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ما طلعت شمس قط إلا بعث بجنبيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ولا آبت شمس قط إلا بعث بجنبيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: «اللهمَّ أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً».

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع حدثنا أسامة بن زيد عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي لبيبة عن سعد بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الرزق ما يكفي وخير الذكر الخفي».

وتأمل جمعه في هذا الحديث بين رزق القلب والبدن، ورزق الدنيا والآخرة وإخباره أن خير الرزقين ما لم يتجاوز الحد، فيكفي من الذكر إخفاؤه، فإن زاد على الإخفاء خيف على صاحبه الرياء والتكبر به على الغافلين، وكذلك رزق البدن إذا زاد على الكفاية خيف على صاحبه الطغيان والتكاثر.

قالوا وقد غبط رسول الله ﷺ المتقلل من الدنيا ما لم يغبط به الغني.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا علي بن صالح، عن أبي

المهلب، عن عبيدالله بن زحر، عن علي بن يزيد عن القاسم، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أغبط أوليائي عندي مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة، أحسن عبادة ربه، وكان غامضاً في الناس لا يشار إليه بالأصابع، فعجلت منيته وقلَّ تراثه، وقلَّتْ بواكيه».
قال عبدالله بن أحمد: سألت أبي: ما تراثه؟ قال: ميراثه.

قالوا: وحمية الله لعبده المؤمن عن الدنيا إنما هو من محبته له وكرامته.
قال الإمام أحمد حدثنا أبو سعيد حدثنا سليمـان بن بلال عن عمرو بن أبي عمرو عن عاصم بن عمرو بن قتادة عن محمود بن لبيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى يحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما تحمون مرضاكم الطعام والشراب تخافون عليهم» قالوا وقل أن يقع إعطاء الدنيا وتوسعتها إلا استدراجاً من الله لا إكراماً ومحبة لمن أعطاه.

قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشـد بن سعد عن حرملة بن عمـران الثجيبي عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه وما يحب فإنما هو استدراج» ثم تلا قوله تعالى: ﴿فلما نَسُوا ما ذُكِّرُوا به فتحنَا عليهم أبوابَ كلِّ شيءٍ﴾ الآية [الأنعام: ٤٤]. قالوا ولهوانِ الدنيا على الله منعها أكثر أوليائه وأحبائه.

قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن سالم بن أبي الجعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أمتي لو أتى باب أحدكم فسأله ديناراً لم يعطه إياه، ولو سأله فلساً لم يعطه إياه، ولو سأل الله تعالى الجنة لأعطاها إياه ولو سأله الدنيا لم يعطها إياه وما يمنعها إياه لهوانه عليه ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره». وهذا يدل على أنه إنما يمنعه إياها لهوانها عليه لا لهوانه هو عليه، ولهذا يعطيه أفضل منها وأجل، فإن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الآخرة إلا من يحب.

قالوا وقد أخبرهم النبي ﷺ أن أقربهم منه مجلساً ذوو التقلل من الدنيا الذين لم يستكثروا منها قال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا محمد بن عمرو قال سمعت عراك بن مالك يقول: قال أبو ذر: «إني لأقربكم مجلساً من رسول الله ﷺ يوم القيامة، وذلك أني سمعته يقول: إن أقربكم مني مجلساً يوم القيامة من خرج من الدنيا كهيئة ما تركته فيها، وإنه والله ما منكم من أحد إلا وقد تشبث منها بشيء غيري» قالوا وقد غبط النبي ﷺ من كان عيشه كفافاً وأخبر بفلاحه قال الإمام أحمد حدثنا عبدالله بن يزيد حدثنا حيوة قال: أخبرني أبو هانيء أن أبا علي الحبشي أخبره أنه سمع فضالة بن عبيد يقول أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «طوبى لمن هُدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع».

وذكر أيضاً من حديث عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنَّعه الله بما آتاه»، قالوا: ولو لم يكن في التقلل إلا خفة الحساب لكفى به فضلاً عن الغنى، قال عبدالله ابن الإمام أحمد حدثنا بيان بن الحكم حدثنا محمد بن حاتم قال حدثني بشر بن الحارث حدثنا عيسى بن يونس عن هشام عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يحاسب بهنَّ العبد: ظل خص يستظل به، وكسرة يشد بها صلبه، وثوب يواري عورته».

وقال الإمام أحمد حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا ليث عن أبي عثمان قال: لما افتتح المسلمون جوجى دخلوا يمشون فيها وأكداس الطعام فيها أمثال الجبال، وكان رجل يمشي إلى جنب سلمان فقال: يا أبا عبدالله ألا ترى إلى ما فتح الله علينا ألا ترى إلى ما أعطانا الله، فقال سلمان: وما يعجبك مما ترى؟ إلى جنب كل حبة مما ترى حساب.

قالوا وقد شهد النبي ﷺ لأصحابه أنهم يوم فقرهم وفاقتهم خيراً منهم يوم غناهم وبسط الدنيا عليهم، قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد أبو الأشهب عن الحسن قال: قال نبي الله ﷺ: «يا أهل الصفة كيف أنتم»

قالوا: نحن بخير، قال أنتم اليوم خير أم يوم تغدو على أحدكم جفنة وتروح أخرى، ويغدو في حلة ويروح في أخرى، وتسترون في بيوتكم مثل أستار الكعبة، قالوا يا نبي الله نحن يومئذٍ خير يعطينا ربنا تبارك وتعالى فنشكر، قال: «بل أنتم اليوم خير» فهذا صريح في أنهم في وقت صبرهم على فقرهم، خير منهم في وقت غناهم مع الشكر.

وقال عبدالله بن أحمد حدثنا ابن ذر حدثنا حفص بن غياث عن داود بن أبي هند عن أبي حرب بن أبي الأسود عن طلحة البصري قال: قدمت المدينة ولم يكن لي بها معرفة، فكان يجري علينا مد من تمر بين اثنين، فصلى بنا رسول الله صلاة فهتف به هاتف من خلفه فقال: «يا رسول الله قد حرق بطوننا التمر، وعزفت عنا الكنف» فخطب فحمد الله وأثنى عليه وقال: «والله لو أجد لكم اللحم والخبز لأطعمتكموه، وليأتين عليكم زمان تغدو على أحدكم الجفان وتراح ولتلبسن بيوتكم مثل أستار الكعبة، قالوا يا رسول الله: نحن اليوم خير هنا أو يومئذٍ؟ قال: بل أنتم اليوم خير منكم يومئذٍ، أنتم اليوم خير منكم يومئذٍ يضرب بعضكم رقاب بعض».

قال الإمام أحمد وحدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ دخل على أهل الصفة فذكر نحوه.

قالوا ولو لم يكن في الغنى والمال إلا أنه فتنة وقل من سلم من إصابتها له وتأثيرها في دينه كما قال تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ [التغابن: ١٥] وفي الترمذي من حديث كعب بن عياض قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال» قال هذا حديث حسن صحيح، قالوا: والمال يدعو إلى النار، والفقر يدعو إلى الجنة. قال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا أبو الأشهب حدثنا سعيد بن أيمن مولى كعب بن سور قال: بينا رسول الله ﷺ يحدث أصحابه إذا رجل من الفقراء فجلس إلى جنب رجل من الأغنياء فكأنَّه قبض من ثيابه عنه، فقال

رسول الله: «أخشيت يا فلان أن يغدو غناك عليه أو يغدو فقره عليك، قال: يا رسول الله أوشر الغنى؟ قال: نعم إن غناك يدعوك إلى النار وإن فقره يدعوه إلى الجنة، قال: فما ينجيني منه؟ قال: تواسيه، قال: إذن أفعل، فقال الآخر: لا إرب لي فيه، قال: فاستغفر وادع لأخيك».

قالوا وحق الغني أعظم من أن يقوم العبد بشكره، وقد روى الترمذي في جامعه من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال: بيت يسكنه وثوب يواري به عورته، وجلف الخبز والماء». قال هذا حديث حسن صحيح. وفي صحيح مسلم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف، وأبدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى».

وفي صحيحه أيضاً من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: بينما نحن في سفر مع رسول الله إذ جاء رجل على راحلة له فجعل يضرب يميناً وشمالاً، فقال رسول الله: «من كان معه فضل من ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان عنده فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له، قال فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى ظننا أنه لا حق لأحد منا في فضل».

قالوا فهذا وضع النظر في تفضيل الغني الشاكر ببذل الفضل كله وأما غني يمتع بأنواع الفضل ويشكر بالواجب وبعض المستحب فكيف يفضل على فقير صابر راض عن الله في فقره، قالوا وقد أقسم رسول الله ﷺ لأصحابه وهم أئمة الشاكرين أنه لا يخاف عليهم الفقر، وإنما يخاف عليهم الغنى. ففي الصحيحين من حديث عمرو بن عوف، وكان شهد بدراً ـ أن رسول الله بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول الله صالح أهل البحرين وأمَّر عليهم العلاء بن الحضرمي فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة

الفجر مع رسول الله، فلما صلى رسول الله انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله حين رآهم ثم قال: «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين؟ فقالوا أجل يا رسول الله، قال أبشروا وأمِّلوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوا فيها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم».

قال الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا هشام عن الحسن قال: قيل لأبي ثعلبة الخشني أين دنياكم التي كنتم تعدون يا أصحاب محمد؟ قال: ليبشر الآخر بدنيا قد ظلت تأكل - والله الذي لا إله إلا هو - الإيمان كما تأكل النار الحطب الجزل» وقال أحمد حدثنا يزيد حدثنا هشام بن حسان قال سمعت الحسن يقول: «والله ما أحد من الناس بسط الله له دنياه فلم يخف أن يكون قد مكر به فيها إلا كان قد نقص علمه وعجز رأيه، وما أمسكها الله عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها إلا كان قد نقص علمه وعجز رأيه».

قالوا وقد مر على النبي ﷺ فقير وغني فقال عن الفقير: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»، وروى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: مر رجل على رسول الله ﷺ فقال: «ما تقولون في هذا؟ فقالوا حري إن خطب أن يُنكح وإن شفع أن يشفع وإن قال أن يسمع، قال ثم سكت فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا حري إن خطب أن لا ينكح وإن شفع ألا يشفع وإن قال أن لا يسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: هذا خير من ملء الأرض مثل هذا».

وقد بشر رسول الله ﷺ الفقراء الصابرين بما لم يبشر به الأغنياء، ففي الترمذي من حديث فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة وهم أصحاب الصفة حتى يقول الأعراب: هؤلاء مجانين، فإذا صلى رسول الله انصرف إليهم وقال: «لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة» قال فضالة: وأنا يومئذٍ مع رسول الله ﷺ وبشرهم بسبقهم الأغنياء إلى الجنة.

وقد اختلفت الروايات في مدة هذا السبق، ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر أنه جاء ثلاثة نفر فقالوا: «يا أبا محمد والله ما نقدر على شيء لا نفقة ولا دابة ولا متاع فقال لهم: ما شئتم، إن شئتم رفعتم إلينا فأعطيناكم ما يسر الله لكم، وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان، وإن شئتم صبرتم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفاً قالوا نصبر ولا نسأل شيئاً».

وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام» قال الترمذي حديث حسن صحيح، وفي الترمذي أيضاً من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة سنة». وهو حديث حسن. وفيه أيضاً من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً» وهو حديث حسن، وهو موافق لحديث عبدالله بن عمر ولحديث أنس الذي في الترمذي: «إن المساكين يدخلون قبل الأغنياء بأربعين خريفاً.

فهؤلاء ثلاثة: جابر وأنس وعبدالله بن عمر، وقد اتفقوا على الأربعين، وهذا أبو هريرة وأبو سعيد قد اتفقا على التقدير بخمسمائة سنة، ولا تعارض بين هذه الأحاديث إذ التأخر والسبق درجات بحسب الفقر والغنى، فمنهم من يسبق بأربعين ومنهم من يسبق بخمسمائة، ولا يتقيد السبق بهذا المقدار بل يزيد عليه وينقص.

وقد روى أبو داود في سننه من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ «أن أول الأمة دخولاً إلى الجنة أبو بكر الصديق رضي الله عنه»، ومعلوم أن المدة التي بينه وبين إخوانه من فقراء المهاجرين لا تطول، وأنها أطول مدة بين دخوله وبين دخول آخر من يدخل الجنة.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده من حديث عبدالله بن عمر رضي

الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «هل تدرون أول من يدخل الجنة؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره يموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، تقول الملائكة: يا ربنا نحن ملائكتك وخزنتك وسكان سماواتك لا تدخلهم الجنة قبلنا، فيقول: عبادي لا يشركون بي شيئاً يتقى بهم المكاره يموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فعند ذلك تدخل عليهم الملائكة من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار».

وقال الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا دويد عن مسلم بن بشير عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «التقى مؤمنان على باب الجنة، مؤمن غني ومؤمن فقير كانا في الدنيا فأدخل الفقير الجنة وحبس الغني ما شاء الله أن يحبس ثم أدخل الجنة فلقيه الفقير فيقول: أي أخي ماذا حبسك؟ والله لقد احتبست حتى خفت عليك!؟ فيقول أي أخي إني حبست بعدك محبساً فظيعاً كريهاً ما وصلت إليك حتى سال مني من العرق ما لو ورده ألف بعير كلها أكلت حمصاً لصدرت عنه رواء». وقال الطبراني في معجمه حدثنا محمد بن عبدالله الحضرمي وعلي بن سعيد الرازي قالا حدثنا علي بن بهرام العطار حدثنا عبد الملك بن أبي كريمة عن الثوري عن محمد بن زيد عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وذلك خمسمائة سنة، فقال رجل: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال إن تغديت رجعت على عشاء، وإذا تعشيت يبيت معك غداء؟ قال نعم. قال لست منهم، فقام رجل فقال أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال هل سمعت ما قلنا لهذا؟ قال نعم، ولست كذلك. قال هل تجد ثوباً ستيراً سوى ما عليك؟ قال نعم. قال فلست منهم. فقام آخر فقال أمنهم أنا يا رسول الله؟ فقال هل سمعت ما قلت لهذين قبلك؟ قال نعم، قال هل تجد قرضاً كلما شئت أن تستقرض؟ قال نعم. قال فلست منهم، فقام

آخر فقال أمنهم أنا يا رسول الله فقال هل سمعت ما قلت لهؤلاء؟ قال نعم، قال تقدر أن تكتسب؟ قال نعم قال فلست منهم، قال فقام خامس فقال أنا منهم يا رسول الله؟ فقال هل سمعت ما قلت لهؤلاء؟ قال نعم، قال هل تمسي عن ربك راضياً وتصبح كذلك؟ قال نعم، قال فأنت منهم، قال النبي ﷺ إن سادات المؤمنين في الجنة من إذا تغدى لم يجد عشاء وإذا تعشى لم يبت عنده غداء، وإن استقرض لم يجد قرضاً وليس له فضل كسوة إلا ما يواري به ما لا يجد منه بداً، ولا يقدر على أن يكتسب ما يعشيه ويمسي عن الله راضياً ويصبح راضياً ﴿أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ قال الطبراني: هذا حديث غريب من حديث سفيان الثوري عن محمد بن زيد يقال هو العبدي، تفرد به عبد الملك.

قلت: محمد هذا هو العبدي، وثقه قوم وضعفه آخرون، قال الدارقطني ليس بالقوي، وقال أبو حاتم صالح الحديث، وذكره ابن حبان في الثقات، وروى له الترمذي وابن ماجه، وفي هذه الطبقة محمد بن زيد الشامي يروي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وهو متروك ونخاف أن يكون هذا هو. الثوري لم ينسبه وإنما يقال هو العبدي: والله أعلم.

وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا هشام الدستوائي عن يحيى بن أبي كثير عن عامر العقيلي عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : عرض عليَّ أول ثلاثة يدخلون الجنة، وأول ثلاثة يدخلون النار، فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة: فالشهيد، وعبد مملوك لم يشغله رق الدنيا عن طاعة ربه، وفقير متعفف ذو عيال، وأما أول ثلاثة يدخلون النار فأمير مسلط، وذو ثروة من مال لا يؤدي حق الله في ماله، وفقير فخور، وروى الترمذي منه ذكر الثلاثة الذين يدخلون الجنة فقط.

قالوا ويكفي في فضل الفقير أن عامة أهل الجنة الفقراء، وعامة أهل النار الأغنياء قال الإمام أحمد حدثنا عبدالله بن محمد بن أبي شيبة حدثنا

شريك عن أبي إسحاق عن السائب بن مالك عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء».

وفي صحيح البخاري عن أبي رجاء قال: جاء عمران بن حصين إلى امرأته من عند رسول الله ﷺ فقالت: حدثنا ما سمعت من النبي، فقال: إنه ليس من حديث! فلم تدعه (أو قال) فأغضبته، فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نظرت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، ونظرت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء».

وفي الصحيحين من حديث أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ قال: «قمت على باب الجنة فإذا عامة من دخلها المساكين، وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء» وفي صحيح مسلم عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ اطلع في النار فرأى أكثر أهلها النساء واطلع في الجنة فرأى أكثر أهلها الفقراء».

قالوا ويكفي في فضل الفقر أن كل أحد يتمناه يوم القيامة من الأغنياء قال الإمام أحمد حدثنا عبدالله بن نمير حدثنا إسماعيل ـ يعني ابن خالد ـ عن نفيع عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يوم القيامة غني ولا فقير إلا ود أن ما كان أوتي في الدنيا قوتاً». قال البخاري يتكلمون في نفيع، وهذا أليق ما قيل فيه.

قالوا وقد صرح رسول الله ﷺ في تفضيل الفقراء في غير حديث، فمنها ما تقدم من حديث سهل بن سعد، وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر ارفع بصرك فانظر أرفع رجل تراه في المسجد. قال فنظرت فإذا رجل جالس عليه حلة له، قال فقلت هذا، قال فقال: يا أبا ذر ارفع بصرك فانظر أوضع رجل تراه في المسجد، قال

فنظرت فإذا رجل ضعيف عليه أخلاق، قال فقلت هذا، قال فقال رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده لهذا أفضل عندالله يوم القيامة من قراب الأرض من هذا».

قال حدثنا وكيع ووافقه زائد حدثنا الأعمش عن سليمان بن يسار عن خرشة بـن الحر عن أبي ذر فذكره، وقال لهذا خير عند الله يوم القيامة من ملء الأرض مثل هذا. قال الإمام أحمد وحدثنا أبو معاوية ووافقه يعلى قال: حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن أبي ذر فذكره.

قالوا والذي يفصل بيننا في هذه المسألة ويشفي العليل أن الفقر يوفر أجر صاحبه ومنزلته عند الله، والغني ولو شكر فإن ما ناله في الدنيا بغناه يحسب عليه من ثوابه يوم القيامة وإن تناوله بأحل وجه، فقليل الفضل في الدنيا ناقص من كثير الآخرة، وفي صحيح مسلم من حديث عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة ويبقى لهم الثلث، وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم».

وفي الصحيحين عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: هاجرنا مع رسول الله نلتمس وجه الله فوقع أجرنا على الله، فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئاً منهم مصعب بن عمير رضي الله عنه قتل يوم أحد وترك بردة فكنا إذا غطينا بها رأسه بَدَتْ رجلاه، وإذا غطينا رجلاه بدا رأسه، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطي رأسه ونجعل على رجليه شيئاً من الأذخر، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهديها. وفي الصحيحين عن قيس بن أبي حازم قال: «دخلنا على خباب نعوده وقد اكتوى سبع كيات فقال إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ولم تنقصهم الدنيا. وذكر الحديث وقال سعيد بن منصور حدثنا معاوية عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «ما أوتي عبد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عند الله وإن كان عليه كريماً».

وفي صحيح البخاري عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن عوف قال: «أتـي عبد الرحمن رضي الله عنه بطعام وكان صائماً، فقال قتل مصعب بـن عمير وهو خير مني وكفن في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه، وقتل حمزة رضي الله عنه وهو خير مني فلم يوجد له كفن إلا بردة، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، أو قال أعطينا من الدنيا ما أعطينا، وقد خشيت أن تكون عجلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام».

قال أبو سعيد بن الأعرابي: وليس عبد الرحمن بن عوف وخباب قالا ذلك دون غيرهما، لقد قاله الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ وكرهوا ما فتح الله عليهم من الدنيا وأشفقوا منه، وعلموا أن ما اختاره الله لنبيه كان أفضل. وأن ما أخروا له كان أنقص، منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأبو عبيدة وعمار بن ياسر وسلمان وعبدالله بن مسعود وعائشة أم المؤمنين وأبو هاشم بن عتبة، وجماعة لم نذكرهم للاختصار رضي الله عنهم.

فأما أبو بكر رضي الله عنه فحدثنـا ابن أبي الدنيـا حدثنـا عبد الرحمن بن أبان الطائي حدثنا عبد الصمد بن عبد الـوارث حدثنـا عبد الواحد بن زيد حدثني سليمان عن مرة عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: «كنا مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه فدعا بشراب فأتي بماء وعسل فلما أدناه من فيه بكى وبكى حتى أبكى أصحابه فسكتوا وما سكت، ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لم يقدروا على مسألته، قال ثم مسح عينيه، فقالوا يا خليفة رسول الله ما أبكاك؟ فقال: كنت مع رسول الله فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً ولم أر معه أحداً، فقلت يا رسول الله ما الذي تدفع عن نفسك؟ قال: هذه الدنيا مثلت لي، فقلت لها إليك عني، ثم رجعت فقالت إنك إن أفلت مني فلن يفلت مني من بعدك.

وذكر ليث عن ابن سعد عن صالح بن كيسان عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه أن أبا بكر رضي الله عنه قال في مرضه الذي

مات فيه: إني ولّيت أمركم وإني لَسْتُ بخيركم وكلكم ورم أنفه من ذلك أن يكون هذا الأمر له وذلك لما رأيت الدنيا قد أقبلت وأقبلت ولم تقبل حتى يتخذوا نضائد الحرير وستور الديباج، وحتى يألم أحدكم من الاضطجاع على الصوف كما يألم من الاضطجاع على الحسك والسعدان، ثم أنتم أول ضال بالناس تصفقون يميناً وشمالاً. ما هذا الطريق أخطأت إنما هو البحر أو الفجر، والله لئن يقدم أحدكم فتضرب عنقه في غير حد خير له من أن يخوض غمرات الدنيا.

وذكر محمد بن عطاء بن خباب قال: كنت جالساً مع أبي بكر فرأى طائراً فقال طوبى لك يا طائر، تأكل من هذا الشجر ثم تبعر ثم لا تكون شيئاً وليس عليك حساب وددت أني مكانك، فقلت له أتقول هذا وأنت صديق رسول الله ﷺ؟.

وأما عمر رضي الله عنه فإنه لما أتي بكنوز كسرى بكى، فقال له عبد الرحمن بن عوف ما الذي يبكيك يا أمير المؤمنين فوالله إن هذا ليوم شكر ويوم سرور ويوم فرح، فقال عمر إن هذا لم يعطه قوم إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء. ودخل عليه أبو سنان الدؤلي وعنده نفر من المهاجرين، فأرسل عمر إلى سفط أتي به من قلعة بالعراق وكان فيه خاتم فأخذه بعض ولده فأدخله في فيه، فانتزعه عمر منه ثم بكى، فقال له من عنده لم تبكي وقد فتح الله لك وأظهرك وأقر عينك، فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وأنا مشفق من ذلك.

قال أبو سعيد وجدت في كتاب بخط يد، عن أبي داود قال: حدثنا محمد بن عبيد حدثنا حماد حدثنا يونس عن الحسن أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتي بقلنسوة بغزوة كسرى بين يديه وفي القوم سراقة بن مالك فألقى إليه سواري كسرى فجعلهما في يديه فبلغا منكبيه، فلما رآهما في يد سراقة قال الحمد لله سوار كسرى بن هرمز في يد سراقة بن مالك بن جعشم

أعرابي من بني مدلج، ثم قال: اللهم قد علمت أن رسولك قد كان يحب أن يصيب مالاً فينفقه في سبيلك وعلى عبادك فزويت ذلك عنه نظراً منك له واختياراً، اللهم إني أعوذ بك أن يكون هذا مَكْرٌ منك بعمر. ثم قال: ﴿ايحسبونَ أنما نُمدُّهُم به من مالٍ وبنينَ نُسارعُ لهم في الخيراتِ بل لا يَشعرون﴾ [المؤمنون: ٥٥].

والمقصود أن سعة الدنيا وبسطها تعجيل من أجل الآخرة وتضييق من سعتها، قال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن الزهري عن ابن أبي صغيرة، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، قال: «لما كان يوم أحد أشرف النبي ﷺ على الشهداء الذين قُتلوا يومئذٍ فقال: «إني شهيد على هؤلاء، فزملوهم بدمائهم». قال معمر وأخبره فيمن سمع الحسن يقول: قال النبي ﷺ: «هؤلاء قد مضوا وقد شهدت عليهم، لم يأكلوا من أجورهم شيئاً، وإنكم قد أكلتم من أجوركم، وإني لا أدري ما تحدثون بعدي».

وقال ابن المبارك أخبرنا جرير بن حازم قال: سمعت الحسن يقول: خرج رسول الله ﷺ بأصحابه إلى بقيع الغرقد فقال: «السلام عليكم يا أهل القبور: لو تعلمون ما نجاكم الله منه مما هو كائن بعدكم». ثم أقبل على أصحابه فقال: «هؤلاء خير منكم، فقالوا: يا رسول الله إخواننا، أسلمنا كما أسلموا، وهاجرنا كما هاجروا، وجاهدنا كما جاهدوا، وأتوا على آجالهم فمضوا فيها، وبقينا في آجالنا فما يجعلهم خيراً منا؟ فقال: إن هؤلاء خرجوا من الدنيا ولم يأكلوا من أجورهم شيئاً وخرجوا وأنا شهيد عليهم، وأنتم قد أكلتم من أجوركم ولا أدري ما تحدثون بعدي». قال: فلما سمعها القوم والله عقلوها وانتفعوا بها، فقالوا: وإنا لمحاسبون بما أصبنا من الدنيا بعدهم، وإنه لمنتقص به من أجورنا، فأكلوا طيباً وأنفقوا قصداً وقدموا فضلاً.

وقال عبدالله بن أحمد: قرأت على أبي هذا الحديث: حدّثنا أسود بن

عامر، حدثنا إسرائيل، عن ثوير، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: «ما أعطي رجل من الدنيا إلا نقص من درجته».

قالوا وقد صرح سادات الأغنياء بأنهم ابتلوا بالضراء فصبروا، وابتلوا بالسراء فلم يصبروا، قال ذلك عبد الرحمن وغيره، وكان هذا مصداقاً لما رواه مصعب بن سعد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأنا من فتنة السراء أخوف عليكم من فتنة الضراء، إنكم ابتليتم بالضراء فصبرتم، وإن الدنيا حلوة خضرة».

قالوا: وها هنا قضيتان صادقتان بهما يتبين الفضل، إحداهما أن الأكثرين هم الأقلون. وقد تقدم الدليل عليها بما فيه الكفاية.

وأما الثانية ففي الصحيحين من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: «خرجت ليلة من الليالي فإذا رسول الله ﷺ: يمشي وحده ليس معه إنسان، قال: فظننت أنه يكره أن يمشي معه أحد، فجعلت أمشي في ظل القمر، فالتفت فرآني فقال من هذا؟ قلت: أبو ذر جعلني الله فداك، قال: يا أبا ذر تعال. فمشيت معه ساعة، فقال: إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة إلا من أعطاه الله خيراً فنفح فيه يمينه وشماله وبين يديه ووراءه، وعمل فيه خيراً». وذكر الحديث.

قالوا: ولو كان الغنى أفضل من الفقر لما حض الله رسوله على الزهد في الدنيا والإعراض عنها، وذم الحرص عليها والرغبة فيها، بل كان ينبغي أن يحض عليها وعلى اكتسابها والإكثار منها، كما حض على اكتساب الفضائل التي بها كمال العبد من العلم والعمل، فلما حض على الزهد فيها والتقلل دل على أن الزاهدين فيها المتقللين منها أفضل الطائفتين، وقد أخبر أنها لو ساوت عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء، وأنها أهون على الله من السخلة الميتة على أهلها، وأن مثلها في الآخرة كمثل ما يعلق بإصبع من أدخل إصبعه في البحر، وأنها ملعونة ملعون ما فيها إلا

ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم، وأنها سجن المؤمنين وجنة الكافرين، وأمر العبد أن يكون فيها كأنه غريب أو عابر سبيل، ويعد نفسه من أهل القبور، وإذا أصبح فلا ينتظر المساء وإذا أمسى فلا ينتظر الصباح، ونهى عن اتخاذ ما يرغب فيها، ولعن عبد الدينار وعبد الدرهم، ودعا عليه بالتعس والانتكاس، وعدم إقالة العثرة بالانتقاش.

وأخبر أنها خضرة حلوة، أي تأخذ العيون بخضرتها والقلوب بحلاوتها، وأمر باتقائها والحذر منها كما يتقي النساء ويحذر منهن، وأخبر أن الحرص عليها وعلى الرياسة والشرف يفسد الدين كإفساد الذئبين الضاريين إذا أرسلا في زريبة غنم أو أشد إفساداً، وأخبر أنه في الدنيا كراكب استظل تحت شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها.

وهذه في الحقيقة حال سكان الدنيا كلهم، ولكن هو ﷺ شهد هذه الحال وعمي عنها بنو الدنيا، ومر بهم وهم يعالجون خصاً لهم قد وهى فقال: «ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك» وأمر بستر على بابه فنزع وقال: إنه يذكرني الدنيا، وأعلم الناس أنه ليس لأحد منهم حق في سوى بيت يسكنه، وثوب يواري عورته، وقوت يقيم صلبه، وأخبر أن الميت يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله، وأخبر أن للمتخوض فيها شاءت نفسه من مال الله بغير حق النار يوم القيامة، وأقسم أنه لا يخاف الفقر على أصحابه وإنما يخاف عليهم الدنيا وتنافسهم فيها وإلهائها لهم، وأخبر أنه ليس لابن آدم من ماله إلا ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فأمضى، وأخبر أن حسب ابن آدم من الدنيا لقيمات يقمن صلبه، فإن لم يقتصر عليهن فثلث بطنه لطعامه وثلثه لشرابه وثلثه لنفسه، وفي هذا الحديث الإرشاد إلى صحة القلب والبدن والدين والدنيا.

وأخبر أن غنى العبد فيها عن نفسه لا كثرة عرضه، وسأل الله أن يجعل رزقه فيها قوتاً، وغبط من كان رزقه فيها كفافاً بعد أن هدي للإسلام، وأخبر أن من كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وشتت

عليه شمله، ولم يأته منها إلا ما كتب له، وعرض عليه ربه أن يجعل له بطحاء مكة ذهباً، فقال لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك، وأعلمهم أن من أصبح منهم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا.

وأخبر أن بذل العبد ما فضل عن حاجته خير له، وإمساكه شر له، وأنه لا يلام على الكفاف، ونهى أمته عن أن ينظر أحدهم إلى من هو فوقه في الدنيا، وأمره أن ينظر إلى من هو دونه في الدنيا، وأخبر أنه لم يبق من الدنيا إلا بلاء وفتنة وضر، مثلها مثل ما يخرج من ابن آدم عند خلائه، وإن كان أوله طيباً لذيذاً فهذا آخره، وأخبر أن عباد الله ليسوا بالمتنعمين فيها، فإن أمامهم دار النعيم فهم لا يرضون بنعيمهم في الدنيا عوضاً من ذلك النعيم.

وأخبر أن نجاة أول هذه الأمة بالزهد واليقين وهلكة آخرها بالبخل وطول الأمل، وكان يقول: لبيك لا عيش إلا عيش الآخرة. وأخبر أنه تعالى إذا أحب عبداً حماه الدنيا كما يحمي الإنسان مريضه من الطعام والشراب. ودخل على عثمان بن مظعون وهو في الموت فأكبَّ عليه يقبله ويقول: رحمك الله يا عثمان! ما أصبت من الدنيا ولا أصابت منك فغبطه بذلك. وكان يقول: الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، والرغبة في الدنيا تطيل الهموم والحزن، وكان يقول: من جعل الهموم كلها هماً واحداً كفاه الله سائر همومه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك.

وأخبر أنه يؤتي يوم القيامة بأنعم الناس كان في الدنيا. فيقول الله عز وجل: أصبغوه في النار صبغة، ثم يُؤتى به فيقول: يا ابن آدم هل أصبت نعيماً قط؟ هل رأيت قرة عين قط؟ هل أصبت سروراً قط؟ فيقول: لا وعزتك، ثم يقول: ردوه إلى النار، ثم يُؤتى بأشد الناس كان بلاء في الدنيا

وأجهده جهداً، فيقول تبارك وتعالى: أصبغوه في الجنة صبغة، فيصبغ فيها، ثم يُؤتى به فيقول: يا ابن آدم هل رأيت ما تكره قط؟ فيقول: لا وعزتك ما رأيت شيئاً قط أكرهه.

وفي حديث مناجاة موسى الذي رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم بن معقل، حدثنا عبد الصمد بن معقلٍ، قال: سمعت وهب بن منبه فذكره، وفيه ولا تعجبكما زينته ولا ما مُتع به، ولا تمدان إلى ذلك أعينكما فإنها زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين، وإني لو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينة يعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتها فعلت، ولكني أرغب بكما عن نعيمها ذلك وأزويه عنكما، وكذلك أفعل بأوليائي، وقديماً ما خرت لهم في ذلك فإني لأزودهم عن نعيمها ورخائها كما يذود الراعي الشفيق غنمه عن مراعي الهلكة، وإني لأجنبهم سلوتها وعيشها كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن مبارك الغرة، وما ذلك لهوانهم عليَّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالماً موفراً لم تَكْلَمْه[1] الدنيا ولم يُطْغِهِ الهوى.

وأعلم أنه لم يتزين لي العباد بزينة هي أبلغ من الزهد في الدنيا، فإنها زينة المتقين، عليهم منها لباس يعرفون به من السكينة والخشوع، سيماهم في وجوههم من أثر السجود، أولئك أوليائي حقاً، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك وذلل لهم قلبك ولسانك، وذكر الحديث.

وقال أحمد: حدثنا عون بن جابر، قال: سمعت محمد بن داود، عن أبيه، عن وهب قال: قال الحواريون يا عيسى: من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟ قال: الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها، فأماتوا منها ما يخشون أن يميتهم، وتركوا ما علموا أن سيتركهم، فصار استكثارهم منها استقلالاً، وذكرهم إياها فواتاً، وفرحهم

---

(١) لم تكلمْه: لم تجرحه.

بما أصابوا منها حزناً، فما عرضهم من نائلها رفضوه، وما عارضهم من رفعتها بغير الحق وضعوه: خَلِقَتْ[٢] الدنيا عندهم فليسوا يجددونها، وخربت بينهم فليسوا يعمرونها، وماتت في صدورهم فليسوا يحيونها، يهدمونها فيبنون بها آخرتهم ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم، رفضوها فكانوا بها هم الفرحين، ونظروا إلى أهلها صرعى قد خلت بهم المثلات فأحيوا ذكر الموت، وأماتوا ذكر الحياة، يحبون الله ويحبون ذكره، ويستضيؤون بنوره ويصيؤون به، لهم خبر عجيب، وعندهم الخبر العجيب، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، وبهم علم الكتاب وبه عملوا، ليسوا يرون نائلاً مع ما نالوا، ولا أماناً دون ما يرجون، ولا خوفاً دون ما يحذرون.

وحدثنا روح، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، قال: قيل لعيسى بن مريم: يا رسول الله: لو اتخذت حماراً تركبه لحاجتك؟ قال: أنا أكرم على الله من أن يجعل لي شيئاً يشغلني به، وقال: اجعلوا كنوزكم في السماء، فإن قلب المرء عند كنزه، وقال: اتقوا فضول الدنيا، فإن فضول الدنيا عند الله رجز. وقال: يا بني إسرائيل اجعلوا بيوتكم كمنازل الأضياف فما لكم في العالم من منزل إن أنتم إلا عابري سبيل. وقال: يا معشر الحواريين أيكم يستطيع أن يبني على موج البحر داراً؟ قالوا يا روح الله: من يقدر على ذلك؟ قال: إياكم والدنيا فلا تتخذوها قراراً، وقال: أكل الخبز البر، وشرب ماء عذب، ونوم على المزابل مع الكلاب كثير لمن يريد أن يرث الفردوس.

قال أحمد: وحدثنا بهز، عن الأعمش، عن خيثمة قال: قال المسيح بشدة: ما يدخل الغني الجنة. وقال المسيح: حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، ومرارة الدنيا حلاوة الآخرة. وقال: يا بني إسرائيل تهاونوا بالدنيا تهن عليكم، وأهينوا الدنيا تكرم عليكم الآخرة، ولا تكرموا الدنيا تهن عليكم

(٢) خَلِقَتْ: بليَتْ.

الآخرة، فإن الدنيا ليست بأهل الكرامة وكل يوم تدعو إلى الفتنة والخسارة.

وقال إسحاق بن هانىء في مسائله: قال أبو عبدالله ـ وأنا أخرج من داره ـ قال الحسن: أهينوا الدنيا فوالله لأهنأ ما تكون حين تهان، وقال الحسن: والله ما أبالي شرقت أم غربت. قال: وقال لي أبو عبدالله: يا إسحق: ما أهون الدنيا على الله عز وجل، وقال: الدنيا قليلها يجزي وكثيرها لا يجري.

قالوا وقد تواتر عن السلف أن حب الدنيا رأس الخطايا وأصلها، وقد روي فيه حديث مرفوع لا يثبت، ولكنه يروى عن المسيح، قال عبدالله بن أحمد: حدثنا عبيدالله بن عمر القواريري حدثنا معاذ بن هشام حدثني أبي عن بديل بن ميسرة قال حدثني جعفر بن خرفاش أن عيسى بن مريم عليه السلام قال: رأس الخطيئة حب الدنيا، والنساء حبالة الشيطان، والخمر جماع كل شر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عمر بن سعد أبو داود الحفري عن سفيان قال: كان عيسى بن مريم يقول: حب الدنيا أصل كل خطيئة، والمال فيه داء كثير. قالوا وما داؤه؟ قال: لا يسلم من الفخر والخيلاء، قالوا فإن سلم؟ قال يشغله إصلاحه عن ذكر الله عز وجل، قالوا وذلك معلوم بالتجربة والمشاهدة، فإن حبها يدعو إلى خطيئة ظاهرة وباطنة، ولا سيما خطيئة يتوقف تحصيلها عليها فيُسكر عاشقَها حبُّها عن علمه بتلك الخطيئة وقبحها، وعن كراهتها واجتنابها، وحبها يوقع في الشبهات ثم في المكروهات ثم في المحرمات، وطالما أوقع في الكفر، بل جميع الأمم المكذبة لأنبيائهم إنما حملهم على كفرهم وهلاكهم حب الدنيا، فإن الرسل لما نهوهم عن الشرك والمعاصي التي كانوا يكسبون بها الدنيا حملهم حبها على مخالفتهم وتكذيبهم، فكل خطيئة في العالم أصلها حب الدنيا، ولا تنسى خطيئة الأبوين قديماً، فإنما كان سببها حب الخلود في الدنيا، ولا تنسى ذنب إبليس وسببه حب الرياسة التي محبتها شر من محبة الدنيا، وبسببها كفر

فرعون وهامان وجنودهما، وأبو جهل وقومه واليهود، فحب الدنيا والرياسة هو الذي عمر النار بأهلها، والزهد في الدنيا والرياسة هو الذي عمر الجنة بأهلها، والسكر بحب الدنيا أعظم من السكر بشرب الخمر بكثير، وصاحب هذا السكر لا يفيق منه إلا في ظلمة اللحد، ولو انكشف عنه غطاؤه في الدنيا لعلم ما كان فيه من السكر وأنه أشد من سكر الخمر، والدنيا تسحر العقول أعظم سحر.

قال الإمام أحمد حدثنا سيار حدثنا جعفر قال: سمعت مالك بن دينار يقول: اتقوا السحارة، اتقوا السحارة، فإنها تسحر قلوب العلماء.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: الدنيا خمر الشيطان من سكر منها فلا يفيق إلا في عسكر الموتى نادماً بين الخاسرين، وأقل ما في حبها أنه يلهي عن حب الله وذكره، ومن ألهاه ماله عن ذكر الله فهو من الخاسرين، وإذا ألهاه القلب عن ذكر الله سكنه الشيطان وصرفه حيث أراد، ومن فقهه في الشر أنه يرضيه ببعض أعمال الخير ليريه أنه يفعل فيها الخير وقد تعبد لها قلبه فأين يقع ما يفعله من البر مع تعبده لها وقد لعنه رسول الله ﷺ ودعا عليه فقال: لعن عبد الدينار والدرهم، وقال تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، إن أعطي رضي وإن منع سخط، وهذا تفسير منه ﷺ وبيان لعبوديتها، وقد عرضت الدنيا على النبي ﷺ بحذافيرها وتعرضت له فدفع في صدرها باليدين وردها على عقبيها؟ ثم عرضت بعده على أصحابه وتعرضت لهم، فمنهم من سَلَكَ سبيله ودفعها عنه وهم القليل، ومنهم من استعرضها وقال ما فيك؟ قالت في الحلال والشبهة والمكروه والحرام، فقالوا: هاتي حلالك ولا حاجة لنا فيما عداه، فأخذوا حلالها، ثم تعرضت لمن بعدهم فطلبوا حلالها فلم يجدوه، فطلبوا مكروهها وشبهها، فقالت: قد أخذه من قبلكم فقالوا: هاتي حرامك فأخذوه، فطلبه من بعدهم فقالت هو في أيدي الظلمة قد استأثروا به عليكم فتحيلوا على تحصيله منهم بالرغبة والرهبة، فلا يمد فاجر يده إلى شيء من الحرام إلا وجد أفجر منه وأقوى

قد سبقه إليه، هذا وكلهم ضيوف وما بأيديهم عارية. كما قال ابن مسعود رضي الله عنه ما أصبح أحد في الدنيا إلا ضيف وماله عارية. فالضيف مرتحل والعارية مؤداة.

قالوا وإنما كان حب الدنيا رأس الخطايا ومفسداً للدين من وجوه: أحدها أن حبها يقتضي تعظيمها وهي حقيرة عند الله ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقر الله، وثانيها أن الله لعنها ومقتها وأبغضها إلا ما كان له فيها، ومن أحب ما لعنه الله ومقته وأبغضه فقد تعرض للفتنة ومقته وغضبه، وثالثها أنه إذا أحبها صيرها غايته وتوسل إليها بالأعمال التي جعلها الله وسائل إليه وإلى الدار الآخرة، فعكس الأمر وقلب الحكمة فانعكس قلبه وانعكس سيره إلى وراء، فها هنا أمران: أحدهما جعل الوسيلة غاية، والثاني التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا. وهذا شر معكوس من كل وجه، وقلب منكوس غاية الانتكاس، وهذا هو الذي انطبق عليه حذو القذة بالقذة وقوله تعالى: ﴿مَنْ كانَ يُريد الحياةَ الدنيا وزينَتَها. نُوَفِّ إليهم أعمالَهم فيها وهم فيها لا يُبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرةِ إلا النَّار وحَبطَ ما صَنعوا فيها وباطلٌ ما كانُوا يَعملون﴾ [هود: ١٥] وقوله تعالى: ﴿مَنْ كانَ يُريد العاجلةَ عَجَّلْنَا له فيها ما نشاءُ لمن نُريد، ثم جعلنا له جهنَّم يَصْلَاها مذموماً مَدْحُوراً﴾ [الإسراء: ١٨] وقوله تعالى: ﴿مَنْ كانَ يُريد حَرْثَ الآخرةِ نَزِدْ له في حرثِهِ ومن كانَ يُريد حَرْثَ الدنيا نؤته منها وما له في الآخرةِ من نَصيب﴾ [الشورى: ٢٠] فهذه ثلاث آيات يشبه بعضها بعضاً، وتدل على معنى واحد، وهو أن من أراد بعمله الدنيا وزينتها دون الله والدار الآخرة فحظه ما أراد، وهو نصيبه ليس له نصيب غيره.

والأحاديث عن رسول الله ﷺ مطابقة لذلك مفسرة له، كحديث أبي هريرة رضي الله عنه في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار: الغازي والمتصدق والقارىء الذين أرادوا بذلك الدنيا والنصيب، وهو في صحيح مسلم.

وفي سنن النسائي عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: رجل غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: لا شيء له، فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله لا شيء له، ثم قال: إن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصاً، وابتغى به وجهه، فهذا قد بطل أجره وحبط عمله مع أنه قصد حصول الأجر لما ضم إليه قصد الذكر بين الناس فلم يخلص عمله لله فبطل كله.

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رجلاً قال: «يا رسول الله الرجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرض الدنيا، فقال له رسول الله ﷺ: لا أجر له. فأعظم الناس ذلك، وقالوا: للرجل عد لرسول الله ﷺ لعلَّه لم يفهم، فعاد فقال: يا رسول الله الرجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرض الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: لا أجر له، ثم أعاد الثالثة، فقال رسول الله: لا أجر له».

وفي المسند أيضاً وسنن النسائي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «من غزا في سبيل الله عز وجل وهو لا ينوي في غزاته إلا عقالاً فله ما نوى».

وفي المسند والسنن عن يعلى بن منبه قال: كان رسول الله ﷺ يبعثني في سرايا فبعثني ذات يوم في سرية وكان رجلاً يركب بغلاً فقلت له: ارحل فإن النبي ﷺ قد بعثني في سرية، فقال: ما أنا بخارج معك حتى تجعل لي ثلاثة دنانير ففعلت، فلما رجعت من غزاتي ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال النبي: «ليس له من غزاته هذه ومن دنياه وآخرته إلا ثلاثة دنانير».

وفي سنن أبي داود أن عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله أخبرني عن الجهاد والغزو، فقال يا عبدالله بن عمر: إن قاتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً، وإن قاتلت مرائياً مكاثراً، بعثك الله مرائياً مكاثراً يا عبدالله بن عمر على أي حال قاتلت أو قتلت بعثك الله على تلك الحال.

وفي المسند أو السنن عن أبي أيوب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنها ستفتح عليكم الأمصار، وتضربون فيها بعوثاً، فيكره الرجل منكم البعث، فيخلص من قومه ويعرض نفسه على القبائل، يقول: من أكفيه بعث كذا وكذا إلا وذلك الأجير إلى آخر قطرة من دمه، فانظر محبة الدنيا ماذا حرمت هذا المجاهد من الأجر وأفسدت عليه عمله وجعلته أول الداخلين إلى النار.

فصل: ورابعها أن محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعه في الآخرة لاشتغاله عنه بمحبوبه والناس ها هنا مراتب: فمنهم من يشغله محبوبه عن الإيمان وشرائعه، ومنهم من يشغله عن الواجبات التي تجب عليه لله ولخلقه فلا يقوم بها ظاهراً ولا باطناً، ومنهم من يشغله حبها عن كثير من الواجبات، ومنهم من يشغله حُبُّها عن واجب يعارض تحصيلها وإن قام بغيره، ومنهم من يشغله عن القيام بالواجب في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي، فيفرط في وقته وفي حقوقه، ومنهم من يشغله عن عبودية قلبه في الواجب وتفريغه لله عند آدائه فيؤديه ظاهراً لا باطناً، وأين هذا من عشاق الدنيا ومحبيها، هذا من أندرهم وأقل درجات حبها أن يشغل عن سعادة العبد، وهو تفريغ القلب لحب الله ولسانه لذكره، وجمع قلبه على لسانه، وجمع لسانه وقلبه على ربه، فعشقها ومحبتها تضر بالآخرة ولا بد، كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا وفي هذا حديث قد رُوي مرفوعاً: من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى.

فصل: وخامسها أن محبتها تجعلها أَكْثَرَ هَمِّ العبد، وقد روى الترمذي من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت الآخرة أكبر همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة ومن كانت الدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له».

فصل: وسادسها أن محبها أشد الناس عذاباً بها وهو معذب في دوره الثلاث: يعذب في الدنيا بتحصيلها والسعي فيها ومنازعة أهلها، وفي دار البرزخ بفواتها والحسرة عليها، وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبداً ولم يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه. فهذا أشد الناس عذاباً في قبره، يعمل الهم والغم والحزن والحسرة في روحه ما تعمل الديدان وهوامّ الأرض في جسمه كما قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم حدثنا عبد الصمد بن معقل عن وهب بن منبه أن حزقيل كان فيمن سبى بختنصر فذكر عنه حديثاً طويلاً وفي آخره قال: فبينا أنا نائم على شط الفرات إذ أتاني ملك فأخذ برأسي فاحتملني حتى وضعني بقاع من الأرض، قد كانت معركة، قال: وإذا فيه عشرة آلاف قتيل قد بددت الطير والسباع لحومهم وفرقت أوصالهم، قال لي: إن قوماً يزعمون أن من مات منهم أو قتل فقد انفلت مني وذهبت عنه قدرتي فادْعهم! قال حزقيل فدعوتهم فإذا كل عظم قد أقبل إلى مفصله الذي انقطع منه، ما الرجل بصاحبه بأعرف من العظم بمفصله الذي فارق حتى أم بعضها بعظائم نبت عليها اللحم ثم نبت عليها العروق ثم انبسطت الجلود وأنا أنظر إلى ذلك، ثم قال ادع أرواحهم! قال فدعوتها فإذا كل روح قد أقبل إلى جسده الذي فارق فلما جلسوا سألتهم فيم كنتم؟ قالوا: إنا لما متنا وفارقنا الحياة لقينا ملك فقال، هلموا أعمالكم وخذوا أجوركم كذلك سنتنا فيكم وفيمن كان قبلكم وفيمن هو كائن بعدكم، قال فنظر في أعمالنا فوجدنا نعبد الأوثان فسلط الدود على أجسادنا وجعلت الأرواح تألمه، وسلط الغم على أرواحنا وجعلت أجسادنا تألمه، فلم نزل كذلك نعذب حتى دعوتنا، ولا يستريح عاشق الدنيا. فقولهم كنا نعبد الأوثان، فسيان عبادة الأثمان وعبادة الأوثان، تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم.

والمقصود أن محب الدنيا يعذب في قبره ويعذب يوم لقاء ربه. قال تعالى: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، إنما يريد الله ليعذبهم بها في

الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ [التوبة: ٥٥] قال بعض السلف يعذبهم بجمعها وتزهق أنفسهم بحبها؛ وهم كافرون بمنع حق الله فيها.

فصل: وسابعها أن عاشقها ومحبها الذي يؤثرها على الآخرة من أسفه الخلق وأقلهم عقلاً؛ إذ آثر الخيال على الحقيقة، والمنام على اليقظة، والظل الزائل على النعيم الدائم، والدار الفانية على الدار الباقية، وباع حياة الأبد في أرغد عيش بحياة إنما هي أحلام نوم أو كظل زائل، إن اللبيب بمثلها لا يخدع كما نزل أعرابي بقوم فقدموا له طعاماً فأكل ثم قام إلى ظل خيمة فنام فاقتلعوا الخيمة فأصابته فانتبه وهو يقول:

وإن امـرؤٌ دنيـاه أكبـرُ همِّـهِ   لمستمسـكٌ منهـا بحبـل غـرور

وكان بعض السلف يتمثل بهذا البيت:

يا أهلَ لذاتِ دنيا لا بقاءَ لها   إن اغتـراراً بـظلٍّ زائـلٍ حمق

قال يونس بن عبد الأعلى: ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب، فبينما هو كذلك انتبه، وقال ابن أبي الدنيا: حدثني أبو علي الطائي حدثنا عبد الرحمن البخاري عن ليث قال: رأى عيسى بن مريم الدنيا في صورة عجوز عليها من كل زينة، فقال كم تزوّجتِ؟ قالت لا أحصيهم، قال فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك؟ قالت بل كلهم قتلته. فقال عيسى بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين تهلكينهم واحداً واحداً ولا يكونوا منك على حذر.

أرى أشقياءَ النَّاس لا يسأمُونَها   علـى أنهم فيهـا عـراةٌ وجـوَّعُ
أراهَـا وإن كـانتْ تُحَبُّ فـإنَّها   سحابةُ صيفٍ عن قليل تقشَّعُ

أشبه الأشياء بالدنيا الظل، تحسب له حقيقة ثابتة وهو في تقلص وانقباض إن تتبعْته فلا تلحقه، وأشبه الأشياء بها السراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه، والله سريع الحساب، وأشبه الأشياء بها المنام يرى فيه العبد ما يحب وما يكره، فإذا

استيقظ علم أن ذلك لا حقيقة له، وأشبه الأشياء بها عجوز شوهاء قبيحة المنظر والمخبر، غدارة بالأزواج تزينت للخطّاب بكل زينة وسترت كل قبيح، فاغتر بها من لم يجاوز بصره ظاهرها فطلب النكاح، فقالت: لا مهر إلاّ نقد الآخرة فإننا ضرتان واجتماعنا غير مأذون فيه ولا مستباح، فآثر الخطّاب العاجلة وقالوا ما على من واصل حبيبته من جناح، فلما كشف قناعها وحل إزارها، إذا كل آفة وبلية فمنهم من طلق واستراح، ومنهم من اختار المقام، فما استتمت ليلة عرسه إلاّ بالعويل والصياح.

تالله لقد أذن مؤذنها على رموس الخلائق بحي على غير الفلاح، فقام المجتهدون والمسلمون لها فواصلوا في طلبها الغدو بالرواح، وسروا ليلهم فلم يحمد القوم السرى عند الصباح، طاروا في صيدها فما رجع أحد منهم إلا وهو مكسور الجناح، فوقعوا في شبكتها فأسلمتهم للذباح.

قال ابن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن علي بن شقيق حدثنا إبراهيم بن الأشعث قال : سمعت الفضيل بن عياض قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها بادية مشوه خلقها، فتشرف على الخلائق فيقال أتعرفون هذه فيقولون نعوذ بالله من معرفة هذه، فيقال هذه الدنيا التي تشاجرتم عليها وبها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ثم يقذف بها في جهنم فتنادي: يا رب أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول الله عز وجل: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها.

قال ابن أبي الدنيا وحدثنا إسحق بن إسماعيل حدثنا روح بن عبادة حدثنا عوف عن أبي العلاء قال: رأيت في النوم عجوزاً كبيرة عليها من كل زينة الدنيا والناس عكوف عليها متعجبون ينظرون إليها، فجئت فنظرت فتعجبت من نظرهم إليها وإقبالهم عليها، فقلت لها: ويلك من أنت؟ قالت: أما تعرفني؟ قلت لا، قالت أنا الدنيا، قال قلت أعوذ بالله من شَرِّكِ، قالت فإن أحببت أن تعاذ من شري فأبغض الدرهم.

قال ابن أبي الدنيا وحدثني إبراهيم بن سعيد الجوهري حدثنا سفيان بن عيينة قال: قال لي أبو بكر بن عياش: رأيت الدنيا في النوم عجوزاً مشوهةً شمطاء تصفق بيديها وخلفها خلق يتبعونها ويصفقون ويرقصون، فلما كانت بحذائي أقبلت عليَّ فقالت لو ظفرت بك صنعت بك ما صنعت بهؤلاء، ثم بكى أبو بكر. قال: وحدثنا محمد بن علي: حدثنا إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت الفضيل قال: بلغني أن رجلاً عرج بروحه قال: فإذا امرأة على قارعة الطريق عليها من كل زينة الحلي والثياب، وإذا هي لا يمر بها أحد إلا جرحته، وإذا هي أدبرت كانت أحسن شيء رآه الناس، وإذا أقبلت أقبح شيء عجوز شمطاء زرقاء عمشاء، فقلت أعوذ بالله، قالت لا والله لا يعيذك الله حتى تبغض الدرهم، قال قلت من أنت؟ قالت أنا الدنيا.

ووصف علي رضي الله عنه الدنيا فقال: دار من صح فيها هرم، ومن سقم فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها فتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها النار. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له.

وذكر ابن أبي الدنيا أن الحسن كتب إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة وإنما أنزل آدم إليها عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين فإن الزاد منها تركها، والغنَاء فيها فقرها، لها في كل حال قتيل، تذل من أعزها وتفقر من جمعها، هي كالسُم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه، فكن فيها كمداو جرحاته يحتمي قليلاً مخافة ما يكره طويلاً، ويصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء. فاحذر هذه الدار الغرَّارة الخيَّالة الخدَّاعة التي قد تزينت بخدعها وفتنت بغرورها وخيلت بآمالها وشوقت لخطابها، فأصبحت كالعروس المجلوة، فالعيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهة والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلهم قاتلة، فلا الباقي بالماضي معتبر، ولا الآخر بالأول مزدجر، والعارف بالله حين أخبره عنها مذكر،

فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسي المعاد فشغل فيها لبه حتى زلت عنها قدمه، فعظمت ندامته، وكبرت حسرته، واجتمع عليه سكرات الموت وألمه، وحسرات الفوت ونغصه، فذهب منها في كمد، ولم يدرك منها ما طلب، ولم يرح نفسه من التعب فخرج بغير زاد، وقدم على غير مهاد، فاحذرها يا أمير المؤمنين. وأسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه، السار فيها غذاء ضار، وقد وصل الرخاء منها بالبلاء، وجعل البقاء فيها إلى فناء، فسرورها مشوب بالحزن ما يرجع منها ما ولى فأدبر، ولا يدري ما هو آت فينتظر، أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، فلو كان الخالق لها لم يخبر عنها خبراً، ولم يضرب لها مثلاً لكانت قد أيقظت النائم ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر، وفيها واعظ، فما لها عند الله عز وجل قدر ولا وزن وما نظر إليها منذ خلقها، ولقد عرضت على نبينا ﷺ بمفاتيحها وخزائنها لا تنقصه عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها، وكره أن يحب ما أبغض الله خالقه، أو يرفع ما وضع مليكه، فزواها عن الصالحين اختياراً، وبسطها لأعدائه اغتراراً، فيظن المغرور بها القادر عليها أنه أكرم بها، ونسى ما صنع الله بمحمد ﷺ حين شد الحجر على بطنه.

وقال الحسن أيضاً: ابن آدم لا تعلق قلبك في الدنيا فتعلقه بشر معلق، اقطع حبالها وغلّق أبوابها، حسبك يا ابن آدم منها ما يبلغك المحل، وكان يقول: إن قوماً أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب، فأهينوها، فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها، هيهات هيهات، ذهبت الدنيا وبقيت الأعمال قلائد في الأعناق.

وقال المسيح عليه السلام: لا تتخذوا الدنيا رباً فتتخذكم عبيداً، واعبروها ولا تعمروها، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا، ورب شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً، ما سكنت الدنيا في قلب عبد إلا التاط

قلبه منها بثلاثة: شغل لا ينفك عناؤه، وفقر لا يدرك غناؤه، وأمل لا يدرك منتهاه، الدنيا طالبة مطلوبة، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجيء الموت فيأخذ بعنقه، يا معشر الحواريين! ارضوا بدَنيّ الدنيا مع سلامة الدين، كما رضي أهل الدنيا بدنيّ الدين مع سلامة الدنيا.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا هرون بن عبدالله، حدثنا سيار، حدثنا جعفر، حدثنا مالك بن دينار قال: قال أبو هريرة رضي الله عنه: الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله تعالى إلى يوم يفنيها تنادي ربها: يا ربِّ لم تبغضني؟ فيقول: اسكتي يا لا شيء، اسكتي يا لا شيء، وقال الفضيل: تجيء الدنيا يوم القيامة فتتبختر في زينتها ونضرتها فتقول: يا رب اجعلني لأحسن عبادك داراً فيقول: لا أرضاك له، أنت لا شيء فكوني هباءً منثوراً.

فصل: في ذكر أمثلة تبين حقيقة الدنيا

المثال الأول: للعبد ثلاثة أحوال: حالة لم يكن فيها شيئاً وهي ما قبل أن يوجد، وحالة أخرى وهي من ساعة موته إلى ما لا نهاية له في البقاء السرمدي، فلنفسه وجود بعد خروجها من البدن إما في الجنة وإما في النار، ثم تعاد إلى بدنه فيجازى بعمله ويسكن إحدى الدارين في خلودٍ دائم، ثم بين هاتين الحالتين وهي ما بعد وجوده وما قبل موته حالة متوسطة وهي أيام حياته، فلينظر إلى مقدار زمانها وأنسبه إلى الحالتين يعلم أنه أقل من طرفة عين في مقدار عمر الدنيا، ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها، ولم يبال كيف تقضت أيامه فيها في ضر وضيق أو في سعة ورفاهية، ولهذا لم يضع رسول الله ﷺ لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة، وقال: «مالي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب قالَ في ظل شجرة ثم راح وتركها». وقال: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع». وإلى هذا أشار المسيح عليه السلام بقوله: «الدنيا

قنطرة فاعبروها ولا تعمروها» وهذا مثل صحيح، فإن الحياة معبر إلى الآخرة؛ والمهد هو الركن الأول للقنطرة، واللحد هو الركن الثاني على آخرها، ومن الناس من قطع نصف القنطرة ومنهم من قطع ثلثيها ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها، وكيفما كان لا بد من العبور، فمن وقف يبني على القنطرة ويزينها بأصناف الزينة وهو يستحث العبور فهو في غاية الجهل والحمق.

المثال الثاني: شهوات الدنيا في القلب كشهوات الأطعمة في المعدة وسوف يجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والنتن والقبح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا انتهت في المعدة غايتها، وكما أن الأطعمة كلما كانت ألذ طعماً وأكثر دسماً وأكثر حلاوة كان رجيعها أقذر، فكذلك كل شهوة كانت في النفس ألذ وأقوى فالتأذي بها عند الموت أشد كما أن تفجع الإنسان بمحبوبه إذا فقده يقوى بقدر محبة المحبوب.

وفي المسند: أن النبي ﷺ قال للضحاك بن سفيان: ألست تؤتى بطعامك وقد مُلِّح ثم تشرب عليه الماء واللبن؟ قال: بلى، قال: فإلام يصير؟ قال إلى ما قد علمت. قال: فإن الله عز وجل ضرب مثل الدنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم». كان بعض السلف يقول لأصحابه: انطلقوا حتى أريكم الدنيا، فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول: انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم..

المثال الثالث: لها ولأهلها في اشتغالهم بنعيمها عن الآخرة، وما يعقبهم من الحسرات، مثل أهلها في غفلتهم، مثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم إلى جزيرة، فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحاجة، وحذرهم الإبطاء، وخوفهم مرور السفينة، فتفرقوا في نواحي الجزيرة فقضى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة فصادف المكان خالياً فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأوفقها لمراده، ووقف بعضهم في الجزيرة ينظر إلى أزهارها وأنوارها العجيبة، ويسمع نغمات طيورها، ويعجبه حسن أحجارها ثم حدثته نفسه بفوت

السفينة وسرعة مرورها وخطر ذهابها، فلم يصادف إلا مكاناً ضيقاً فجلس فيه، وأكب بعضهم على تلك الحجارة المستحسنة والأزهار الفائقة فحمل منها حمله، فلما جاء لم يجد في السفينة إلا مكاناً ضعيفاً وزاده حمله ضيقاً، فصار محموله ثقلاً عليه ووبالاً، ولم يقدر على نبذه، بل لم يجد من حمله بداً ولم يجد له في السفينة موضعاً، فحمله على عنقه وندم على أخذه فلم تنفعه الندامة، ثم ذبلت الأزهار وتغيرت أراييحها وآذاه نتنها، وتولغ بعضهم في تلك الغياض ونسي السفينة وأبعد في نزهته، حتى أن الملاح نادى بالناس عند دفع السفينة فلم يبلغه صوته لاشتغاله بملاهيه، فهو تارة يتناول من الثمر، وتارة يشم تلك الأنوار، وتارة يعجب من حسن الأشجار، وهو على ذلك خائف من سبع يخرج عليه غير منفك من شوك يتشبث في ثيابه ويدخل في قدميه، أو غصن يجرح بدنه، أو عوسج يخرق ثيابه ويهتك عورته، أو صوت هائل يفزعه، ثم من هؤلاء من لحق السفينة ولم يبق فيها موضع فمات على الساحل، ومنهم من شغله لهوه فافترسته السباع ونهشته الحيات، ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك، فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة، ونسيانهم موردهم وعاقبة أمرهم، وما أقبح بالعاقل أن تغره أحجار ونبات يصير هشيماً، قد شغل باله وعوقه عن نجاته ولم يصحبه.

المثال الرابع: لاغترار الناس بالدنيا وضعف إيمانهم بالآخرة: قال ابن أبي الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا روح بن عبادة، حدثنا هشام ابن حسان عن الحسن قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء، حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أم ما بقي أنفدوا الزاد وخسروا الظهر وبقوا بين ظهراني المفازة، لا زاد ولا حمولة فأيقنوا بالهلكة، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلة يقطر رأسه، فقالوا: إن هذا قريب عهد بريف، وما جاءكم هذا إلا من قريب، فلما انتهى إليهم قال: يا هؤلاء! علام أنتم؟ قالوا على

ما ترى! قال أرأيتم إن هديتكم على ماء رواء ورياض خضر، ما تجعلون لي؟ قالوا: لا نعصيك شيئاً، قال: عهودكم ومواثيقكم بالله، قال: فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئاً، قال: فأوردهم ماء ورياضاً خضراء. قال: فمكث فيهم ما شاء الله ثم قال: يا هؤلاء! الرحيل! قالوا إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم ورياض ليست كرياضكم! قال: فقال جل القوم وهم أكثرهم: والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده، وما نصنع بعيش هو خير من هذا؟ قال: وقالت طائفة وهم أقلهم: ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله لا تعصونه شيئاً، وقد صدقكم في أول حديثه فوالله ليصدقنكم في آخره، فراح بمن اتّبعه وتخلف بقيتهم، فبادرهم عدوهم فأصبحوا بين أسير وقتيل.

المثال الخامس: للدنيا وأهلها ما مثلها به النبي ﷺ كظل شجرة، والمرء مسافر فيها إلى الله، فاستظل في ظل تلك الشجرة في يوم صائف ثم راح وتركها، فتأمل حسن هذا المثال ومطابقته للواقع سواء، فإنها في خضرتها كشجرة، وفي سرعة انقضائها وقبضها شيئاً فشيئاً كالظل، والعبد مسافر إلى ربه، والمسافر إذا رأى شجرة في يوم صائف لا يحسن به أن يبني تحتها داراً ولا يتخذها قراراً، بل يستظل بها بقدر الحاجة، ومتى زاد على ذلك انقطع عن الرفاق.

المثال السادس: تمثيله لها ﷺ بمدخل أصبعه في اليم، فالذي يرجع به أصبعه من البحر هو مثل الدنيا بالنسبة إلى الآخرة، وهذا أيضاً من أحسن الأمثال فإن الدنيا منقطعة فانية، ولو كانت مدتها أكثر مما هي، والآخرة أبدية لا انقطاع لها، ولا نسبة للمحصور إلى غير المحصور، بل لو فرض أن السموات والأرض مملوءتان خردلاً وبعد كل ألف سنة طائر ينقل خردلة لفني الخردل والآخرة لا تفنى، فنسبة الدنيا إلى الآخرة في التمثيل كنسبة خردلة واحدة إلى ذلك الخردل، ولهذا لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر، وأشجار الأرض كلها أقلام يكتب بها كلام الله، لنفدت الأبحر

والأقلام ولم تنفد كلمات الله، لأنها لا بداية لها، ولا نهاية لها، والأبحر والأقلام متناهية.

قال الإمام أحمد وغيره: لم يزل الله متكلماً إذا شاء وكماله المقدس مقتض لكلامه، والكمال من لوازم ذاته فلا يكون إلا كاملاً، والمتكلم أكمل ممن لا يتكلم، وهو سبحانه لم يلحقه كلل ولا تعب ولا سآمة من الكلام، وهو يخلق ويدبر خلقه بكلماته، فكلماته هي التي أوجد بها خلقه وأمره، وذلك حقيقة ملكه وربوبيته، وهو لا يكون إلا رباً ملكاً إلهاً لا إله إلا هو، والمقصود أن الدنيا نفس من أنفاس الآخرة، وساعة من ساعاتها.

المثال السابع: ما مثَّلَها به ﷺ في الحديث المتفق على صحته من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ فخطب الناس فقال: «لا والله ما أخشى عليكم إلا ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا. فقال رجل: يا رسول الله: أو يأتي الخير بالشر؟ فصمت رسول الله ﷺ ثم قال: كيف قلتَ؟ قالَ: يا رسول الله: أو يأتي الخير بالشر؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الخير لا يأتي إلا بالخير، وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم، إلا آكلة الخضر أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت الشمس فثلطت[١] وبالت، ثم اجترت فعادت فأكلت، فمن أخذ مالاً بحقه بورك فيه، ومن أخذ مالاً بغير حقه فمثله كمثل الذي يأكل ولا يشبع». فأخبر ﷺ أنه إنما يخاف عليهم الدنيا، وسماها زهـرة، فشبهها بالزهر في طيب رائحته وحسن منظره وقلة بقائه، وأن وراءه ثمراً خيراً وأبقى منه.

وقوله: إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم، هذا من أحسن التمثيل المتضمن للتحذير من الدنيا والانهماك عليها والمسرة فيها، وذلك أن الماشية يروقها نبت الربيع فتأكل منها بأعينها فربما هلكت حبطاً، والحبط

---

(١) في النهاية «الثلط» الرجع الرفيق، وأكثر ما يقال للإبل والبقر والفيلة.

انتفاخ بطن الدابة من الامتلاء أو من المرض، يقال حبط الرجل والدابة تحبط حبطاً: إذا أصابه ذلك.

ولما أصاب الحارث بن مازن بن عمرو بن تميم ذلك في سفره فمات حبطاً، فنسب الحبطي كما يقال السلمي، فكذلك الشَّرهُ في المال يقتله شرهه وحرصه، فإن لم يقتله قارب أن يقتله، وهو قوله: أَو يلم. وكثير من أرباب الأموال إنما قتلتهم أموالهم فإنهم شرهوا في جمعها واحتاج إليها غيرهم، فلم يصلوا إليها إلا بقتلهم أو ما يقاربه من إذلالهم وقهرهم.

وقوله: إلا آكلة الخضر، هذا تمثيل لمن أخذ من الدنيا حاجته، مثله بالشاة الآكلة من الخضر بقدر حاجتها، أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها، وفي لفظ آخر: «امتدت خاصرتاها» وإنما تمتد من امتلائها من الطعام، وثنًى الخاصرتين لأنهما جانبا البطن، وفي قوله: استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثلاث فوائد: إحداها: أنها لما أخذت حاجتها من المرعى تركته وبركت مستقبلة الشمس لتستمرىء بذلك ما أكلته. الثانية: أنها أعرضت عما يضرها من الشره في المرعى وأقبلت على ما ينفعها من استقبال الشمس التي يحصل لها بحرارتها إنضاج ما أكلته وإخراجه. الثالثة: أنها استفرغت بالبول والثلط ما جمعته من المرعى في بطنها فاستراحت بإخراجه، ولو بقي فيها لقتلها، فكذلك جامع المال مصلحته أن يفعل به كما فعلت هذه الشاة.

وأول الحديث: مَثل الشرِه في جمع الدنيا الحريص على تحصيلها، فمثاله مثال للدابة التي حملها شره الأكل على أن يقتلها حبطاً أو يلم إذا لم يقتلها، فإن الشَّرِهَ الحريص إما هالك وإما قريب من الهلاك، فإن الربيع ينبت أنواع البقولَ والعشب فتستكثر منه الدابة حتى ينتفخ بطنها لما جاوزت حد الاحتمال فتنشق أمعاؤها وتهلك، كذلك الذي يجمع الدنيا من غير حلها، ويحبسها أو يصرفها في غير حقها، وآخر الحديث مثل للمقتصد بآكلة الخضر الذي تنتفع الدابة بأكله، ولم يحملها شرهها وحرصها على تناولها منه

فوق ما تحتمله، بل أكلت بقدر حاجتها وهكذا. وهذا أخذ ما يحتاج إليه ثم أقبل على ما ينفعه، وضرب بول الدابة وثلطها مثلاً لإخراجه المال في حقه حيث يكون حبسه وإمساكه مضراً به فنجا من وبال جمعه بأخذ قدر حاجته منه، ونجا من وبال إمساكه بإخراجه كما نجت الدابة من الهلاك بالبول والثلط.

وفي هذا الحديث إشارة إلى الاعتدال والتوسط بين الشره في المرعى القاتل بكثرته، وبين الإعراض عنه وتركه بالكلية فتهلك جوعاً، وتضمن الخبر أيضاً إرشاد المكثر من المال إلى ما يحفظ عليه قوته وصحته في بدنه وقلبه، وهو الإخراج منه وإنفاقه ولا يحبسه فيضره حبسه. وبالله التوفيق.

المثال الثامن: ما رواه عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن سليمان بن يسار عن ميمونة، قالت: قال رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص: «الدنيا خضرة حلوة، فمن اتقى الله فيها وأصلح، وإلا فهو كالآكل ولا يشبع، وبين الناس في ذلك كبعد الكوكبين أحدهما يطلع في المشرق والآخر يغيب في المغرب». فنبّه بخضرتها على استحسان العيون لها، وبحلاوتها على استجلاء الصدور لها، وبتلك الخضرة والحلاوة زينت لأهلها وحببت إليهم، لا سيما وهم مخلوقون منها وفيها كما قيل:

ونحنُ بنو الدنيا ومنها نباتُنا وما أنتَ منه فهو شيءٌ مُحَبَّبُ

وجعل الناس فيها قسمين: أحدهما مصلح متقي، فهذا تقواه وإصلاحه لا يدعانه ينهمك عليها ويشره فيها ويأخذها من غير حلها ويضعها في غير حقها، فإن لم يتق ويصلح صرف نهمته وقواه وحرصه إلى تحصيلها، فكان كالذي يأكل ولا يشبع، وهذا من أحسن الأمثلة، فإن المقصود من الأكل حفظ الصحة والقوة، وذلك تابع لقدر الحاجة، وليس المقصود منه ذاته ونفسه، فمن جعل نَهَمَهُ فوق مقصوده لم يشبع، ولهذا قال الإمام أحمد: «الدنيا قليلها يجزي وكثيرها لا يجزي»، وأخبر عن تفاوت الناس في المنزلتين - أعني منزلة التقوى والإصلاح، ومنزلة الأكل

والشره ـ وأن بين الرجلين في ذلك كما بين الكوكبين الغارب في الأفق والطالع منه، وبين ذلك منازل متفاوتة.

المثال التاسع: ما تقدم من حديث المستورد بن شداد قال: كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة، فقال رسول ﷺ: «أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها! قالوا: ومن هوانها ألقوها يا رسول الله، قال: فوالذي نفس محمد بيده للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها». قال الترمذي: حديث حسن صحيح، فلم يقتصر ﷺ على تمثيلها بالسخلة الميتة بل جعلها أهون على الله منها.

وفي مسند الإمام أحمد في هذا الحديث: فـو الذي نفسي بيده للدنيا عند الله أهون عليه من تلك السخلة على أهلها، فأكد ذلك بالقسم الصادق، فإذا كان مثلها عند الله أهون وأحقر من سخلة ميتة على أهلها، فمحبها وعاشقها أهون على الله من تلك السخلة، وكونها سخلة أهون عليهم من كونها شاة كبيرة، لأن تلك ربما انتفعوا بصوفها أو دبغوا جلدها، وأما ولد شاة صغيرة ميت ففي غاية الهوان. والله المستعان.

المثال العاشر: مثلها مثل البحر الذي لا بد للخلق كلهم من ركوبه ليقطعوه إلى الساحل الذي فيه دورهم وأوطانهم ومستقرهم ولا يمكن قطعه إلا في سفينة النجاة، فأرسل الله رسله لتعرف الأمم اتخاذ سفن النجاة وتأمرهم بعملها وركوبها، وهي طاعة رسله، وعبادته وحده، وإخلاص العمل له والتشمير للآخرة وإرادتها والسعي لها سعيها، فنهض الموفقون وركبوا السفينة، ورغبوا عن خوض البحر لما علموا أنه لا يقطع خوضاً ولا سباحةً، وأما الحمقى فاستصعبوا عمل السفينة وآلاتها والركوب فيها، وقالوا: نخوض البحر، فإذا عجزنا قطعناه سباحة وهم أهل الدنيا فخاضوه، فلما عجزوا عن الخوض أخذوا في السباحة حتى أدركهم الغرق ونجا أصحاب السفينة كما نجوا مع نوح عليه السلام، وغرق أهل الأرض، فتأمل هذا المثل وحال أهل الدنيا فيها يتبين لك مطابقته للواقع،

وقد ضرب هذا المثل للدنيا والآخرة والقدر والأمر، فإن القدر بحر والأمر فيه سفينة لا ينجو إلا من ركبها.

المثال الحادي عشر: مثالها مثال إناء مملوء عسلاً رآه الذباب فأقبل نحوه، فبعضه قعد على حافة الإناء وجعل يتناول من العسل حتى أخذ حاجته ثم طار، وبعضه حمله الشره على أن رمى بنفسه في لجة الإناء ووسطه فلم يدعه انغماسه فيه أن يتهنأ به إلا قليلاً حتى هلك في وسطه.

المثال الثاني عشر: مثال حَبٍ قد نُثر على وجه الأرض، وجعلت كل حبة في فخ وجعل حول ذلك الحب حب ليس في فخاخ، فجاءت الطير، فمنها من قنع بالجوانب ولم يرم نفسه في وسط الحب فأخذ حاجته ومضى، ومنها من حمله الشره على اقتحام معظم الحب، فما استتم اللقاط إلا وهو يصيح من أَخْذ الفخ له.

المثال الثالث عشر: كمثل رجل أوقد ناراً عظيمةً فجعلت الفَراش والجنادب يرون ضوءها فيقصدونها ويتهافتون فيها، ومن له علم بحالها جعل يستضيء ويستدفيء بها من بعيد، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المثل بعينه في الحديث الذي رواه مالك بن إسماعيل عن حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إني ممسك بحُجزكم عن النار وتتقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب، ويُوشك أن أرسل بحجزكم». وفي لفظ آخر: «مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعلت الفراش والجنادب يتقاحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تغلبوني وتقاحمون فيها». وهذا المثال منطبق على أهل الدنيا المنهمكين فيها فالرسل تدعوهم إلى الآخرة وهم يتقاحمون في الدنيا تقاحم الفراش.

المثال الرابع عشر: مثل قوم خرجوا في سفر بأموالهم وأهليهم فمروا بواد مُعْشِب كثير المياه والفواكه فنزلوا به وضربوا خيمهم، وبنوا هنالك الدور والقصور، فمر بهم رجل يعرفون نصحه وصدقه وأمانته، فقال: إني

رأيت بعيني هاتين الجيش خلف هذا الوادي وهو قاصدكم، فاتبعوني أسلك لكم على غير طريق العدو فتنجوا منه، فأطاعته طائفة قليلة، فصاح فيهم: يا قوم النجاة النجاة أُتيتم أُتيتم، وصاح السامعون له بأهليهم وأولادهم وعشائرهم، فقالوا: كيف نرحل من هذا الوادي وفيه مواشينا وأموالنا ودورنا وقد استوطناه؟! فقال لهم الناصح: لينج كل واحد منكم بنفسه مما خف عليه من متاعه وإلا فهو مأخوذ وماله مجتاح، فثقل على أصحاب الجد والأموال ورؤساء القوم النقلة ومفارقة ما هم فيه من النعيم والرفاهية والدعة، وقال كل أحمق: لي أسوة بالقاعدين، فهم أكثر مني مالاً وأهلاً، فما أصابهم أصابني معهم، ونهض الأقلون مع الناصح ففازوا بالنجاة، وصبَّحَ الجيشُ أهل الوادي فقتلهم واجتاح أموالهم.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المثل بعينه في الحديث المتفق على صحته من حديث أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني وأنا النذير العريان فالنجاة النجاة، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق».

المثال الخامس عشر: رجل هيّأ داراً وزينها ووضع فيها من جميع الآلات ودعا الناس إليها، فكلما دخل داخل أجلسه على فراش وثير، وقدم إليه طبقاً من ذهب عليه لحم، ووضع بين يديه أوان مفتخرة فيها من كل ما يحتاج إليه، وأخدمه عبيده ومماليكه، فعرف العاقل أن ذلك كله متاع صاحب الدار وملكه وعبيده فاستمتع بتلك الآلات والضيافة مدة منامه في الدار، ولم يعلق قلبه بها ولا حدث نفسه بتملكها، بل اعتمد مع صاحب الدار ما يعتمده الضيف، يجلس حيث أجلسه، ويأكل ما قدمه له ولا يسأل عما وراء ذلك اكتفاء منه بعلم صاحب الدار وكرمه، وما يفعله مع ضيوفه،

فدخل الدار كريماً وتمتع فيها كريماً، وفارقها كريماً، ورب الدار غير ذام له، وأما الأحمق فحدث نفسه بسكنى الدار وحوز تلك الآلات إلى ملكه وتصرفه فيها بحسب شهوته وإرادته، فتخير المجلس لنفسه، وجعل ينقل تلك الآلات إلى مكان في الدار يخبؤها فيه، وكلما قدم إليه ربها شيئاً أو آلة حدث نفسه بملكه واختصاصه به عن سائر الأضياف، ورب الدار يشاهد ما يصنع، وكرمه يمنعه من إخراجه من داره حتى إذا ظن أنه استبد بتلك الآلات وملك الدار وتصرف فيها وفي آلاتها تصرف المالك الحقيقي، واستوطنها واتخذها داراً له، أرسل إليه مالكها عبيده فأخرجوه منها إخراجاً عنيفاً، وسلبوه كل ما هو فيه، ولم يصحبه من تلك الآلات شيء، وحصل على مقت رب الدار وافتضاحه عنده وبين مماليكه وحشمه وخدمه.

فليتأمل اللبيب هذا المثال حق التأمل فإنه مطابق للحقيقة والله المستعان.

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: كل أحد في هذه الدنيا ضيف وماله عارية، فالضيف مرتحل والعارية مؤداة.

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مات ابن لأبي طلحة من أم سليم، فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة حتى أكون أنا فأحدثه، فجاء فقربت إليه عشاء فأكل وشرب، وقال: ثم تصنعتْ له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب. قالت يا أبا طلحة: أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال لا: قالت: فاحتسب ابنك، قال فغضب، قال تركتيني تلطخت ثم أخبرتيني بابني، فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان منها، فقال رسول الله ﷺ بارك الله لكما في ليلتكما. وذكر الحديث.

المثال السادس عشر: قوم سلكوا مفازة ففاجأهم العطش، فانتهو إلى البحر وماؤه أمر شيء وأملحه، فلشدة عطشهم لم يجدوا مرارته وملوحته

فشربوا منه فلم يَرْوُوا وجعلوا كلما ازدادوا شرباً ازدادوا ظمأً، حتى تقطعت أمعاؤهم وماتوا عطشاً، وعلم عقلاؤهم أنه مُرٌّ مالح وأنه كلما ازداد الشارب منه ازداد ظمأه، فتباعدوا عنه مسافة حتى وجدوا أرضاً حلوة، فحفروا فيها قليباً فنبع لهم ماء عذب فرات، فشربوا وعجنوا وطبخوا ونادوا إخوانهم الذين على حافة البحر هلموا إلى ماء الفرات، وكان منهم المستهزىء ومنهم المعرض الراضي بما هو فيه وكان المجيب واحداً بعد واحد، وهذا المثل بعينه قد ضربه المسيح عليه السلام فقال: مثل طالب الدنيا كمثل شارب البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله.

المثال السابع عشر: مثل الإنسان ومثل ماله وعمله وعشيرته مثل رجل له ثلاثة إخوة فقضى له سفر بعيد طويل لا بد له منه، فدعا إخوته الثلاثة وقال: قد حضر ما ترون من هذا السفر الطويل وأحوج ما كنت إليكم الآن، فقال أحدهم: أنا كنت أخاك إلى هذه الحال، ومن الآن فلست بأخ ولا صاحب وما عندي غير هذا، فقال له: لم تغن عني شيئاً، فقال للآخر ما عندك؟ فقال كنت أخاك وصاحبك إلى الآن وأنا معك حتى أجهزك إلى سفرك وتركب راحلتك ومن هنالك لست لك بصاحب، فقال له: أنا محتاج إلى مرافقتك في مسيري، فقال لا سبيل لك إلى ذلك، فقال لم تغن عني شيئاً، فقال للثالث ما عندك أنت؟ فقال كنت صاحبك في صحتك ومرضك وأنا صاحبك الآن، وصاحبك إذا ركبت راحلتك، وصاحبك في مسيرك، فإن سرتَ سرت معك، وإن نزلت نزلت معك، وإذا وصلت إلى بلدك كنت صاحبك فيها لا أفارقك أبداً، فقال إن كنت لأهون الأصحاب علي، وكنت أوثر عليك صاحبيك، فليتني عرفت حقك وآثرتك عليهما.

فالأول ماله، والثاني أقاربه وعشيرته وأصحابه، والثالث عمله، وقد رُوي في هذا المثل بعينه حديث مرفوع لكنه لا يثبت، رواه أبو جعفر العقيلي في كتاب الضعفاء من حديث ابن شهاب عن عروة عن عائشة،

وعن ابن المسيب عن عائشة مرفوعاً، وهو مثل صحيح في نفسه مطابق للواقع.

المثال الثامن عشر: وهو من أحسن الأمثلة: ملك بنى داراً لم ير الراؤون ولم يسمع السامعون أحسن ولا أوسع ولا أجمع لكل ملاذ النفوس منها، ونصب لها طريقاً وبعث داعياً يدعو الناس إليها، وأقعد على الطريق امرأة جميلة قد زينت بأنواع الزينة، وألبست أنواع الحلي والحلل ومر الناس كلهم عليها وجعل لها أعواناً وخدماً تحت يدها ويد أعوانها زاداً للمارين السائرين إلى الملك في تلك الطريق، وقال لها ولأعوانها: من غض طرفه عنك ولم يشتغل بك عني وابتغى منك زاداً يوصله إلي فاخدميه وزوديه، ولا تعوقيه عن سفره إليَّ بل أعينيه بكل ما يبلغه في سفره ومن مد إليك عينيه ورضي بك وآثرك عليَّ. وطلب وصالك فسومِيه سوء العذاب وأوليه غاية الهوان، واستخدميه واجعليه يركض خلفك ركض الوحش، ومن يأكل منك فاخدعيه به قليلاً ثم استرديه منه واسلبيه إياه كله، وسلِّطي عليه أتباعك وعبيدك، وكلما بالغ في محبتك وتعظيمك وإكرامك فقابليه بأمثاله قلى وإهانة وهجراً حتى تنقطع نفسه عليك حسرات، فتأمل هذا المثال وحال خُطّاب الدنيا وخُطّاب الآخرة والله المستعان؛ وهذا المثل مأخوذ من الأثر المروي عن الله عز وجل: يا دنيا اخدمي من خدمني واستخدمي من خدمك.

المثال التاسع عشر: ملك خط مدينة في أصلح المواضع وأحسنها هواء وأكثرها مياهاً، وشق أنهارها وغرس أشجارها، وقال لرعيته تسابقوا إلى أحسن الأماكن فيها، فمن سبق إلى مكان فهو له، ومن تخلف سبقه الناس إلى المدينة فأخذوا منازلهم وتبوؤوا مساكنهم فيها وبقي من أصحاب الحسرات، ونصب لهم ميدان السباق وجعل على الميدان شجرة كبيرة لها ظل مديد وتحتها مياه جارية، وفي الشجرة من كل أنواع الفواكه، وعليها طيور عجيبة الأصوات، وقال لهم: لا تغتروا بهذه الشجرة وظلها، فعن قليل تجتث من أصلها،

ويذهب ظلّها، وينقطع ثمرها وتموت أطيارها، وأمّا مدينة الملك فأكلها دائم وظلها مديد، ونعيمها سرمدي، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فسمع الناس بها فخرجوا في طلبها على وجوههم، فمروا بتلك الشجرة على أثر تعب ونصب وحر وظمأ، فنزلوا كلهم تحتها واستظلوا بظلها وذاقوا حلاوة ثمرها وسمعوا نغمات أطيارها، فقيل لهم إنما نزلتم تحتها لتحموا أنفسكم وتضمروا مراكبكم للسباق، فتهيؤوا للركوب، وكونوا على أهبة، فإذا صاح النفير استدركتم حلبة السباق، فقال الأكثرون: كيف ندع هذا الظل الظليل والماء السلسبيل، والفاكهة النضجة والدعة والراحة ونقتحم هذه الحلبة في الحر والغبار والتعب والنصب والسفر البعيد والمفاوز المعطشة التي تنقطع فيها الأمعاء، وكيف نبيع النقد الحاضر بالنسيئة الغائبة إلى الأجل البعيد، ونترك ما نراه إلى ما لا نراه، وذرة منقودة في اليد أولى من ذرة موعودة بعد غد، خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به، ونحن بنو اليوم، وهذا عيش حاضر كيف نتركه لعيش غائب في بلد بعيد لا ندري متى نصل إليه، ونهض من كل ألف واحد وقالوا: والله ما مقامنا هذا في ظل زائل تحت شجرة قد دنا قلعها وانقطاع ثمرها وموت أطيارها، ونترك المسابقة إلى الظل الظليل الذي لا يزول والعيش الهنيء الذي لا ينقطع إلا من أعجز العجز، وهل يليق بالمسافر إذا استراح تحت ظل أن يضرب خباءه عليه ويتخذه وطنه خشية التأذي بالحر والبرد، وهل هذا إلا أسفه السفه، فالسباق السباق والبدار البدار.

حكم المنية في البريّةِ جاري ... ما هذه الدنيا بدارِ قرارِ
اقضوا مآربكم سِراعاً إنما ... أعمارُكم سَفَرٌ من الأسفارِ
وتراكضُوا خَيْلَ السباقِ وبادروا ... أن تُسْتَرَدَّ فإنهنَّ عَواري
ودعوا الإقامةَ تحتَ ظلٍّ زائلٍ ... أنتمْ على سفرٍ بهذي الدارِ
من يَرْجُو طيبَ العيشِ فيها إنما ... يبني الرجاءَ على شفيرٍ هارِ
والعيشُ كلُّ العيشِ بعدَ فِراقها ... في دارِ أهلِ السَّبْقِ أكرمِ دارِ

فاقتحموا حلقة السباق ولم يستوحشوا من قلة الرفاق وساروا في ظهور العزائم ولم تأخذهم في سيرهم لومة لائم، والمتخلف في ظل الشجرة نائم، فوالله ما كان إلا قليل حتى ذوت أغصان تلك الشجرة وتساقطت أوراقها وانقطع ثمرها ويبست فروعها، وانقطع مشربها فقلعها قيِّمها من أصلها، فأصبح أهلها في حر السموم يتقلبون، وعلى ما فاتهم من العيش في ظلها يتحسرون، أحرقها قيِّمها فصارت هي وما حولها ناراً تلظّى، وأحاطت النار بمن تحتها فلم يستطع أحد منهم الخروج منها، فقالوا: أين الركب الذين استظلوا معنا تحت ظلها ثم راحوا وتركوه، فقيل لهم: ارفعوا أبصاركم تروا منازلهم، فرأوهم من البعد في قصور مدينة الملك وغرفها يتمتعون بأنواع اللذات فتضاعفت عليهم الحسرات ألا يكونوا معهم وزاد تضاعفها بأن حيل بينهم وبين ما يشتهون، وقيل هذا جزاء المتخلفين ﴿وما ظلمنَاهُم ولكنْ كانُوا أنفسَهُم يَظلمون﴾ [النحل: ١١٨].

المثال العشرون: ما مثلها به النبي ﷺ من الثوب الذي شق وبقي معلقاً بخيط في آخره فما بقاء ذلك الخيط؟ قال ابن أبي الدنيا حدثني الفضل بن جعفر حدثنا وهب بن حباد حدثنا يحيى بن سعيد القطان حدثنا أبو سعيد خلف بن حبيب عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل هذه الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره فبقي معلقاً بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع».

وإن أردت لهذا المثل زيادة إيضاح فانظر إلى ما رواه أحمد في مسنده من حديث أبي نظرة عن أبي سعيد قال: صلى بنا رسول الله ﷺ العصر نهاراً، ثم قام فخطبنا فلم يترك شيئاً قبل قيام الساعة إلا أخبر به، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، وجعل الناس يلتفتون إلى الشمس هل بقي منها شيء، فقال: ألا إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه.

وروى حفص بن غياث عن ليث عن المغيرة بن حكيم عن ابن عمر

قال: خرج علينا رسول الله ﷺ والشمس على أطراف السعف، فقال: «ما بقي من الدنيا إلا مثل ما بقي من يومنا هذا فيما مضى منه».

وروى ابن أبي الدنيا عن إبراهيم بن سعد حدثنا موسى بن خلف عن قتادة عن أنس أن رسول الله ﷺ خطب عند مغرب الشمس فقال: «ما بقي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه».

فالدنيا كلها كيوم واحد بُعث رسول الله ﷺ في آخره قبل غروب شمسه بيسير، وقال جابر وأبو هريرة رضي الله عنهما عنه ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين، وقرن بين أصابعه السبابة والوسطى». وكان بعض السلف يقول: تصبروا فإنما هي أيام قلائل وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت، وإنه قد نعيت إليكم أنفسكم والموت حبس لا بد منه والله بالمرصاد، وإنما تخرج هذه النفوس على آخر سورة الواقعة[1].

المثال الحادي والعشرون: مثال الدنيا كحوض كبير مُلِيء ماء، وجُعل مورداً للأنام والأنعام، فجعل الحوض ينقص على كثرة الوارد حتى لم يبق منه إلا كدر في أسفله، قد بالت فيه الدواب، وخاضته الناس والأنعام. كما روى مسلم في صحيحه عن عتبة بن غزوان، أنه خطبهم فقال في خطبته: إن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حِذَاء، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون عنها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم. وقال عبدالله بن مسعود: إن الله تعالى جعل الدنيا كلها قليلاً، فما بقي منها إلا قليل من قليل. ومثل ما بقي منها كالثغب شرب صفوه وبقي كدره ـ الثغب: الغدير.

المثال الثاني والعشرون: قوم سكنوا مدينة مدة من الزمان فكثرت

---

(١) قال تعالى: ﴿فأمَّا إنْ كان من المُقَرَّبينَ. فروحٌ ورَيْحَانٌ وجنَّةُ نعيم. وأمَّا إنْ كانَ من أصحابِ اليمين. فسَلامٌ لكَ من أصحاب اليمين، وأما إنْ كانَ من المُكَذِّبينَ الضَّالِّينَ. فنُزُلٌ من حَميمٍ. وتَصْلِيةُ جحيم﴾ [الواقعة: ٨٨ ـ ٩٤].

فيها الأحداث والآفات وطَرَقَتْهَا المحن، وأغارت عليها عساكر الجور والفساد فبنى ملكهم مدينة في محل لا يطرقه آفة ولا عاهة، وعزم على تخريب المدينة الأولى، فأرسل إلى سكانها فنودي فيهم بالرحيل بعد ثلاث، ولا يتخلف منهم أحد، وأمرهم أن ينقلوا إلى مدينة الملك الثانية خير ما في تلك المدينة وأنفعه وأجله من الجواهر واللآلىء والذهب والفضة، وما خفَّ حمله من المتاع وعظم قدره وصلح للملوك، وأرسل إليهم الأدلّاء وآلات النقل، ونهج لهم الطريق ونصب لهم الأعلام، وتابع الرسل يستحثونهم، بعضهم في إثر بعض، فانقسموا فرقاً، فالأقلون علموا قصر مدة مقامهم في تلك المدينة، وتيقنوا أنهم إن لم يبادروا بتحصيل خير ما فيها وحمله إلى مدينة الملك، وإلا فاتهم ذلك فلم يقدروا عليه، فرأوا غبناً أن يقطعوا تلك المدة في جمع المفضول والاشتغال به عن الفاضل، فسألوا عن خير ما في المدينة وأنفسه وأحبه إلى الملك وأنفعه في مدينته، فلما عرفوه لم يلتفتوا إلى ما دونه، ورأوا أن أحدهم إذا وافى بجوهرة عظيمة كانت أحب إلى الملك من أن يوافيه بأحمال كثيرة من الفلوس والحديد ونحوها، فكان همهم في تحصيل ما هو أحب إلى الملك وأنفس عنده ولو قل في رأي الذين خالفوهم، وأقبلت فرقة أخرى على تعبئة الأحمال المحملة، وتنافسوا في كثرتها وهم على مراتب: فمنهم من أحماله أثمان، ومنهم من أحماله دون ذلك على قدر هممهم وما يليق بهم، لكن هممهم مصروفة إلى تعبئة الأحمال والانتقال من المدينة، وأقبلت فرقة أخرى على عمارة القصور في تلك المدينة والاشتغال بطيباتها ولذاتها ونزهها، وحاربوا العازمين على النقلة وقالوا: لا ندعكم تأخذون من متاعنا شيئاً فإن شاركتمونا في عمارة المدينة واستيطانها وعيشنا فيها وإلا لم نمكنكم من النقلة ولا من شيء من المتاع، فوقعت الحرب بينهم فقاتلوا السائرين، فعمدوا إلى أكل أموالهم وأهلهم وما نقموا منهم إلا بسيرهم إلى دار الملك وإجابة داعيه، والرغبة عن تلك الدار متى أمرهم بتركها، وأقبلت فرقة أخرى على التنزه والبطالة والراحة والدعة، وقالوا لا نتعب أنفسنا في عمارتها ولا ننقل منها، ولا نعارض من أراد النقلة ولا

نحاربهم ولا نعاونهم، وكان للملك فيها قصر فيه حريم له، وقد أحاط عليه سوراً وأقام عليه حرساً، ومنع أهل المدينة من قربانه وطاف به القاعدون فلم يجدوا فيه باباً يدخلون منه، فغدوا على جدرانه فنقبوها ووصلوا إلى حريمه فأفسدوهم، ونالوا منهم ما أسخط الملك وأغضبه وشق عليه، ولم يقتصروا على ذلك حتى دعوا غيرهم إلى إفساد حريمه والنيل منهم، فبينما هم على تلك الحال وإذا بالنفير قد صاح فيهم كلهم فلم يمكن أحد منهم من التخلف، فحملوا على تلك الحال وأحضروا بين يدي الملك فاستعرضهم واحداً واحداً، وعرضت بضائعهم وما قَدِمُوا به من تلك المدينة عليه، فقبل منها ما يصلح له وأعاض أربابه أضعاف أضعاف قيمته، وأنزلهم منازلهم من قربه، وردّ منها ما لا يصلح له، وضرب به وجوه أصحابه، وقابل من نقب حماه وأفسد حريمه بما يقابل به المفسدون، فسألوا الرجعة إلى المدينة ليعمروا قصره ويحفظوا حريمه، ويقدموا عليه من البضائع بمثل ما قدم به التجار، فقال هيهات قد خربت المدينة خراباً لا تعمر بعده أبداً، وليس بعدها إلا المدينة التي لا تخرب أبداً.

فصل: وقد مثِّلت الدنيا بمنام والعيش فيها بالحلم والموت باليقظة، ومثلت بمزرعة والعمل فيها بالبذور والحصاد يوم المعاد، ومثلت بدار لها بابان باب يدخل منه الناس وباب يخرجون منه، ومثلت بحيّة ناعمة الملمس حسنة اللون وضَرْبَتُهَا الموت، ومثلت بطعام مسموم لذيذ الطعم طيب الرائحة، من تناول منه بقدر حاجته كان فيه شفاؤه ومن زاد على حاجته كان فيه حتفه، ومثلت بالطعام في المعدة إذا أخذت الأعضاء منه حاجتها فحبسه قاتل أو مؤذ، ولا راحة لصاحبه إلا في خروجه؛ كما أشار إليه النبي ﷺ في آكلة الخضر وقد تقدم، ومثلت بامرأة من أقبح النساء قد انتقبت على عينين فتنت بهما الناس، وهي تدعو الناس إلى منزلها، فإذا أجابوها كشفت لهم عن منظرها وذبحتهم بسكاكينها وألْقَتْهُم في الحفر، وقد سلطت على عشاقها تفعل بهم ذلك قديماً وحديثاً.

والعجب أن عشّاقها يرون إخوانهم صرعى قد حلّت بهم الآفات، وهم ينافسون في مصارعهم ﴿وسكنتُم في مساكنِ الذين ظَلموا أنفسَهم وتبيّنَ لكم كيف فعلْنا بهم وضربْنَا لكم الأمثالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، ويكفي في تمثيلها ما مثّلهَا الله سبحانه في كتابه فهو المثل المنطبق عليها.

قالوا: وإذا كان هذا شأنها فالتقلل منها والزهد فيها خير من الاستكثار منها والرغبة فيها. قالوا: ومن المعلوم أنه لا تجتمع الرغبة فيها مع الرغبة في الله والدار الآخرة أبداً، ولا تسكن هاتان الرغبتان في مكان واحد إلا وطردت إحداهما الأخرى واستبدت بالمسكن، ولا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله عند رجل واحد أبداً. قالوا: ويكفي أن رسول الله ﷺ عرضت عليه مفاتيح كنوزها، ولو أخذها لكان أشكر خلق الله بها ولم تنقصه مما له عند الله شيئاً فاختار جوع يوم وشبع يوم، ومات ودرعه مرهونة على طعام لأهله، كما تقدم ذكره.

قالوا: وقد انقسم الناس بعد رسول الله ﷺ أربعة أقسام: قسم لم يريدوا الدنيا ولم تردهم؛ كالصديق ومن سلك سبيله. وقسم أرادتهم الدنيا ولم يريدوها؛ كعمر بن الخطاب ومن سلك سبيله. وقسم أرادوا الدنيا وأرادتهم، كخلفاء بني أمية ومن سلك سبيلهم، حاشا عمر بن عبد العزيز فإنها أرادته ولم يردها. وقسم أرادوها ولم تردهم كمن أفقر الله منها يده، وأسكنها في قلبه وامتحنه بجمعها، ولا يخفى أن خير الأقسام القسم الأول، والثاني إنما فضل لأنه لم يردها فالتحق بالأول.

قالوا: وقد سأل رجل رسول الله ﷺ أن يدله على عمل إذا فعله أحبه الله، وأحبه الناس، فقال له: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس». فلو كان الغنى أفضل لدله عليه، قالوا: وقد شرع الله سبحانه قتال الكفار وشرع الكف عن الرهبان لاعتزالهم عن الدنيا وزهدهم فيها، فمضت السنة بأن لا يقاتلوا ولا يضرب عليهم جزية، هذا وهم أعداؤه وأعداء رسله ودينه، فعلم أن الزهد فيها عند الله

بمكان. قالوا: وكذلك استقرت حكمته في شرعه على أن عقوبة الواجد أعظم من عقوبة الفاقد، فهذا الزاني المحصن عقوبته الرجم، وعقوبة من لم يحصن الجلد والتغريب، وهكذا يكون ثواب الفاقد أعظم من ثواب الواجد.

قالوا: وكيف يستوي عند الله سبحانه ذلة الفقر وكسرته، وخضوعه وتجرع مرارته، وتحمل أعبائه ومشاقه، وعزة الغنى ولذته وصولته، والتمتع بلذاته ومباشرة حلاوته، فبعين الله ما يتحمل الفقراء من مرارة فقرهم وصبرهم ورضاهم به عن الله ربهم تبارك وتعالى، وأين أجر مشقة المجاهدين، إلى أجر عبادة القاعدين في الأمن والدعة والراحة.

قالوا: وكيف يستوي أمران: أحدهما حفَّت به الجنة، والثاني حفَّت به النار، فإن أصل الشهوات من قبل المال، وأصل المكاره من قبل الفقر، قالوا: والفقير لا ينفك في خصاصة من مضض الفقر والجوع والعري والحاجة وآلام الفقر، وكل واحد منها يكفر ما يقاومه من السيئات، وذلك زيادة عَلَى أجره بأعمال البر، فقد شارك الأغنياء بأعمال البر، وامتاز عنهم بما يكفر سيئاته ـ وما امتازوا به عليه من الإنفاق والصدقة والنفع المتعدي فله سبيل إلى لحاقهم فيه، وله مثل أجورهم، وهو أن يعلم الله من نيته أنه لو أوتي مثل ما أوتوه لفعل كما يفعلون، فيقول لو أن لي مالاً لعملت بأعمالهم فهو بنيته وأجرهما سواء، كما أخبر به الصادق المصدوق في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري.

قالوا: والفقر في الدنيا بمنزلة المسجن إذ هو ممنوع عن الوصول إلى شهواته وملاذها، والغني متخلص من هذ السجن، وقد قال النبي ﷺ: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فالغني إن لم يسجن نَفْسَه عن دواعي الغنى وطغيانه، وأرسلها في ميادين شهواتها كانت الدنيا جنة له، فإنما نال الفضل بتشبهه بالفقير الذي هو في سجن فقره.

قالوا: وقد ذم الله ورسوله من عجلت له طيباته في الحياة الدنيا،

وإنه لحري أن يكون عوضاً عن طيبات الآخرة أو منقصة لها ولا بد كما تقدم بيانه، بخلاف من استكمل طيباته في الآخرة لما منع منها في الدنيا، وأُتي رسول الله ﷺ بسويق لوز فأبى أن يشربه، وقال: «هذا شراب المترفين».

قالوا: وقد سئل الحسن البصري فقيل له: رجلان أحدهما تارك للدنيا، والآخر يكتسبها ويتصدق بها؟ فقال التارك لها أحب إليّ. قالوا: وقد سئل المسيح قبله عن هذه المسألة، عن رجلين مرَّ أحدهما بلبنة ذهب فتخطاها ولم يلتفت إليها، ومرَّ بها الآخر فأخذها وتصدق بها، فقال: الذي لم يلتفت إليها أفضل. ويدل على هذا أن رسول الله ﷺ مر بها ولم يلتفت إليها ولو أخذها لأنفقها في سبيل الله.

قالوا: والفقير الفقيه في فقره يمكنه لحاق الغني في جميع ما ناله بغناه بنيته وقوله، فيساويه في أجره ويتميز عنه بعدم الحساب لِعَدَمِ المال، فساواه بثوابه، وتخلص من حسابه، كما تميز عنه بسبقه إلى الجنة بخمسمائة عام وتميز عنه بثواب صبره على ألم الفقر وخصاصته.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبادة بن مسلم حدثني يونس بن خباب عن أبي البحتري الطائي عن أبي كبشة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث أقسم عليهن، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه، فأما الثلاث التي أقسم عليهن: فإنه ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عز وجل بها عزاً، ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله له باب فقر، وأما الذي أحدثكم حديثاً فاحفظوه فإنه قال: إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم فيه لله حقاً، فهذا بأفضل المنازل عند الله، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو يقول: لو كان لي مال عملت فيه بعمل فلان، قال فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يتخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقاً، فهذا بأخبث

المنازل عند الله، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول: لو كان لي مال لفعلت بفعل فلان، قال فهو بنيته ووزرهما سواء». فلما فضل الغني بفعله ألحق الفقير الصادق بنيته، والغني هناك إنما نقص بتخلفه عن العمل، والفقير إنما نقص بسوء نيته، فلم ينفع الغني غناه مع التخلف، ولا ضر الفقير فقره مع حسن النية، ولا نفعه فقره مع سوء نيته.

قالوا: ففي هذا بيان كاف شاف في المسألة، حاكم بين الفريقين، وبالله التوفيق.

الباب الرابع والعشرون

في ذكر ما احتجت به الأغنياء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار

قالت الأغنياء: لقد أجلبتم علينا أيها الفقراء بخيل الأدلة ورجلها، ونحن نعلم أن عندكم مثلها وأكثر من مثلها، ولكن توسطتم بين التطويل والاختصار، وظننتم أنها حكمت لكم بالفضل دون ذوي اليسار، ونحن نحاكمكم إلى ما حاكمتمونا إليه، ونعرض بضاعتنا على من عرضتم بضاعتكم عليه، نضع أدلتنا وأدلتكم في ميزان الشرع والعقل الذي لا يعزل، فحينئذ يتبين لنا ولكم الفاضل من المفضول، ولكن أخرجوا من بيننا من تشبَّه بالفقراء الصادقين الصابرين، ولبس لباسهم على قلب أحرص الناس على الدنيا وأشحهم عليها، وأبعدهم من الفقر والصبر، من كل مظهر للفقر مبطن للحرص، غافل عن ربه متبع لهواه، مفرط في أمر معاده، قد جعل زي الفقر صناعة، وتحلَّى بما هو أبعد الناس منه بضاعة. أو فقير حاجَه فقرُه اضطراراً لا اختياراً، فزهده زهد إفلاس لا زهد رغبة في الله والدار الآخرة، أو فقير يشكو ربه بلسان قاله وحاله، غير راض عن ربه في فقره، بل إن أعطي رضي وإن منع سخط، شديد اللهف على الدنيا والحسرة عليها، وهو أفقر الناس فيها فهو أرغب شيء فيها، وهي أزهد شيء فيه. وأخرجوا من بيننا ذي الثروة الجموع المنوع المتكاثر بماله

المستأثر به، الذي عض عليه بناجذه، وثنى عليه خاصره، يفرح بزيادته ويأسى على نقصانه.

فقلبه به مشغوف، وهو على تحصيله ملهوف، إن عرض سوق الإنفاق والبذل أعطى قليلاً وأكدى، وإن دُعي إلى الإيثار أمعن في الحرب جداً، وأخلصونا وإخواننا من سباق الطائفتين وسادات الفريقين الذين تسابقوا إلى الله والدار الآخرة بإيمانهم وأحوالهم ونافسوا في القرب منه بأعمالهم وأموالهم، فقلوبهم عاكفة عليه، وهمتهم إلى المسابقة إليه، ينظر غنيهم إلى فقيرهم فإذا رآه قد سبقه إلى عمل صالح شمَّر إلى اللحاق به، وينظر فقيرهم إلى غنيهم فإذا رآه قد فاته بإنفاق في طاعة الله أنفق هو من أعماله وأقواله وصبره وزهده نظير ذلك أو أكثر منه، فهؤلاء إخواننا الذين تكلم الناس في التفضيل بينهم وأيهم أعلى درجة، وأما أولئك فإنما ينظر أيهم تحت الآخر في العذاب وأسفل منه والله المستعان.

إذا عرف هذا فقد مدح الله سبحانه في كتابه أعمالاً وأثنى على أصحابها، ولا تحصل إلا بالغنى؛ كالزكاة والإنفاق في وجوه البر والجهاد في سبيل الله بالمال وتجهيز الغزاة وإعانة المحاويج، وفك الرقاب، والإطعام في زمن المسغبة.

وأين يقع صبر الفقير من فرحة الملهوف المضطر المشرف على الهلاك إذا أعانه الغني ونصره على فقره ومخمصته، وأين يقع صبره من نفع الغني بماله في نصرة دين الله وإعلاء كلمته وكسر أعدائه.

وأين يقع صبر أبي ذر على فقره إلى شكر الصديق به وشرائه المعذَّبين في الله وإعتاقهم وإنفاقه على نصرة الإسلام حين قال النبي ﷺ: «ما نفعني مال أحد، ما نفعني مال أبي بكر». وأين يقع صبر أهل الصفة من إنفاق عثمان بن عفان تلك النفقات العظيمة التي قال له رسول الله ﷺ في بعضها: «ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم، ثم قال: غفر الله لك يا عثمان ما أسررتَ وما أعلنتَ وما أخفيت وما أبديت». أو كما قال.

وإذا تأملتم القرآن وجدتم الثناء فيه على المنفقين أضعاف الثناء على الفقراء الصابرين، وقد شهد رسول الله ﷺ بأن اليد العليا خير من اليد السفلى، وفسَّر اليد العليا بالمعطية، والسفلى بالسائلة، وقد عدَّد الله سبحانه على رسوله ﷺ من نعمه أن أغناه بعد فقره، وكان غناه هو الحالة التي نقله إليها، وفقره الحالة التي نقله منها، وهو سبحانه كان ينقله من الشيء إلى ما هو خير منه، وقد قيل في قوله تعالى: ﴿ولَلْآخِرةُ خيرٌ لكَ من الأُولى﴾ [الضحى: ٤]، إن المراد به الحالتان، أي: كل حالة خير لك مما قبلها، ولهذا أعقبه بقوله: ﴿ولسوفَ يُعطيك ربُّك فترضَى﴾ فهنا يدخل فيه عطاؤه في الدنيا والآخرة.

قالوا: والغنى مع الشكر زيادة فضل ورحمة ﴿والله يختص برحمته من يشاء واللّهُ ذُو الفضلِ العظيم﴾ [الحديد: ٢١]. قالوا: والأغنياء الشاكرون سبب لطاعة الفقراء الصابرين لتقويتهم إياهم بالصدقة عليهم والإحسان عليهم؛ وإعانتهم على طاعتهم فلهم نصيب وافر من أجور الفقراء زيادة إلى نصيبهم من أجر الإنفاق وطاعتهم التي تخصهم، كما في صحيح ابن خزيمة من رواية سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي ﷺ.

وذكر شهر رمضان فقال: «من فطَّر فيه صائماً كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء» فقد حاز الغني الشاكر أجر صيامه ومثل أجر الفقير الذي فطره. قالوا: ولو لم يكن للغني الشاكر إلا فضل الصدقة التي لما تفاخرت الأعمال كان الفخر لها عليهن كما ذَكَرَ النضر بن شميل عن قرة، عن سعيد بن المسيب، أنه حدَّث عن عمر بن الخطاب قال: ذكر أن الأعمال الصالحة تتباهى فتقول الصدقة: أنا أفضلكم، قالوا: والصدقة وقاية بين العبد وبين النار، والمخلص المسرُّ بها مستظل بها يوم القيامة في ظل العرش.

وقد روى عمرو بن الحارث ويزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عتبة بن عامر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الصدقة لتطفىء

على أهلها حر القبور، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة في ظل صدقته».

وقال يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة يرفعه: «كلُّ امرىء في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس» قال يزيد: وكان أبو الخير لا يأتي عليه يوم إلا تصدق فيه ولو بكعكة أو بصلة.

وفي حديث معاذ عن النبي ﷺ: «والصدقة تطفىء الخطيئة كما يُطفىء الماء النار».

وروى البيهقي من حديث أبي يوسف القاضي عن المختار بن فلفل عن أنس يرفعه «باكروا بالصدقة، فإن البلاء لا يتخطى الصدقة». وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا تصدق العبد من كسبٍ طيّب ـ ولا يقبل الله إلا طيباً ـ أخذها الله بيمينه فيربيها لأحدهم كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله، حتى تكون مثل الجبل العظيم». وفي لفظ البيهقي في هذا الحديث: «حتى أن التمرة أو اللقمة لتكون أعظم من أُحُدٍ». وقال محمد بن المنكدر: «من موجبات المغفرة إطعام المسلم السغبان». وقد روي مرفوعاً من غير وجه.

وإذا كان الله سبحانه قد غفر لمن سقى كلباً على شدة ظمئه، فكيف بمن سقى العطاش، وأشبع الجياع، وكسى العراة من المسلمين. وقد قال رسول الله ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة» فجعل الكلم الطيب عوضاً عن الصدقة لمن لا يقدر عليها. قالوا: وأين لذة الصدقة والإحسان وتفريجهما القلب وتقويتهما إياه، وما يلقي الله سبحانه للمتصدقين من المحبة والتعظيم في قلوب عباده والدعاء لهم والثناء عليهم، وإدخال المسرات عليهم؛ من أجر الصبر على الفقر، نعم إن له لأجراً عظيماً، لكن الأجر درجات عند الله.

قالوا: وأيضاً فالصدقة والإحسان والإعطاء وصف الرب تعالى، وأحب عباده إليه من اتصف بذلك، كما قال النبي ﷺ: «الخلق عيال الله

فأحب الخلق إليه أنفعهم لعياله». قالوا: وقد ذكر الله سبحانه أصناف السعداء، فبدأ بالمتصدقين أولهم. فقال تعالى: ﴿إنَّ المُصَّدِّقِينَ والمُصَّدِّقَاتِ وأقرضُوا اللّهَ قَرْضَاً حسناً يُضاعفُ لهم ولهم أجرٌ كريم. والذين آمنُوا بالله ورُسلهِ أُولئكَ هم الصدِّيقون والشهداء عند ربِّهم لهم أجرُهم ونورُهم﴾ [الحديد: ١٨ - ١٩] فهؤلاء أصناف السعداء ومقدموهم المصدقين والمصدقات.

قالوا: وفي الصدقة فوائد ومنافع لا يُحْصِيها إلا الله، فمنها أنها تقي مصارع السوء وتدفع البلاء حتى أنها لتدفع عن الظالم، قال إبراهيم النخعي: وكانوا يرون أن الصدقة تدفع عن الرجل الظلوم وتطفىء الخطيئة وتحفظ المال، وتجلب الرزق وتفرح القلب وتوجب الثقة بالله وحسن الظن به، كما أن البخل سوء الظن بالله، وترغم الشيطان يعني الصدقة وتزكي النفس وتنميها وتحبب العبد إلى الله وإلى خلقه وتستر عليه كُلَّ عيب، كما أن البخل يغطي عليه كل حسنة، وتزيد في العمر وتستجلب أدعية الناس ومحبتهم، وتدفع عن صاحبها عذاب القبر، وتكون عليه ظلاً يوم القيامة، وتشفع له عند الله وتهون عليه شدائد الدنيا والآخرة، وتدعوه إلى سائر أعمال البر فلا تستعصي عليه، وفوائدها ومنافعها أضعاف ذلك.

قالوا: ولو لم يكن في النفع والإحسان إلا أنه صفة الله وهو سبحانه يحب من اتصف بموجب صفاته وآثارها فيحب العليم والجواد والحيي والستّير والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف، ويحب العدل والعفو والرحيم والشكور والبر والكريم. فصفته الغنى والجود ويحب الغني الجواد.

قالوا: ويكفي في فضل النفع المتعدي بالمال أن الجزاء عليه من جنس العمل، فمن كَسَا مؤمناً كساه الله من حلل الجنة، ومن أشبع جائعاً أشبعه الله من ثمار الجنة، ومن سقى ظمآناً سقاه الله من شراب الجنة، ومن أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار حتى فرجه بفرجه، ومن يسّر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن نفّس عن مؤمن

كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، قالوا ونحن لا ننكر فضيلة الصبر على الفقر، ولكن أين تقع من هذه الفضائل وقد جعل الله لكل شيء قدراً.

قالوا: وقد جعل رسول الله ﷺ الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر، ومعلوم أنه إذا تعدى شكره إلى الإحسان إلى الغير ازداد درجة أخرى، فإن الشكر يتضاعف إلى ما لا نهاية له بخلاف الصبر فإن له حداً يقف عليه.

وهذا دليل مستقل في المسألة يوضحه أن الشاكر أفضل من الراضي الذي هو أعلى من الصابر، فإذا كان الشاكر أفضل من الراضي الذي هو أفضل من الصبر كان أفضل من الصابر في درجتين.

قالوا: وفي الصحيحين من حديث الزهري عن سالم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين. رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل والنهار». فجعل الغنى مع الإنفاق بمنزلة القرآن مع القيام به، قالوا: وقد صرح في حديث أبي كبشة الأنماري أن صاحب المال إذا عمل في ماله بعلمه، واتقى فيه ربه ووصل به رحمه، وأخرج منه حق الله فهو في أعلى المنازل عند الله، وهذا تصريح في تفضيله. وجعل الفقير الصادق إذا نوى أن يعمل بعمله وقال ذلك بلسانه ثانياً وإنه بنيته وقوله وأجرهما سواء، فإن كلاً منهما نوى خيراً وعمل ما يقدر عليه، فالغني نواه ونفذه بعمله، والفقير العالم نواه ونفذه بلسانه، فاستويا في الأجر من هذه الجهة، ولا يلزم من استوائهما في أصل الأجر استواؤهما في كيفيته وتفاصيله، فإن الأجر على العمل والنية له مزية على الأجر على مجرد النية التي قارنها القول، ومن نوى الحج ولم يكن له مال يحج به وإن أثيب على ذلك فإن ثواب من باشر أعمال الحج مع النية له مزية عليه.

وإذا أردت فهم هذا فتأمل قول النبي ﷺ: «من سأل الله الشهادة

صادقاً من قلبه بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه». ولا ريب أن ما حصل للمقتول في سبيل الله من ثواب الشهادة تزيد كيفيته وصفاته على ما حصل لناوي ذلك إذا مات على فراشه وإن بلغ منزلة الشهيد، فهاهنا أجران: أجر وقرب، فإن استويا في أصل الأجر، لكن الأعمال التي قام بها العامل تقتضي أثراً زائداً وقرباً خاصاً وهو فضل الله يؤتيه من يشاء، وقد قال ﷺ: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قالوا هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال إنه أراد قتل صاحبه»، فاستويا في دخول النار، ولا يلزم استواؤهما في الدرجة ومقدار العذاب، فأعطِ ألفاظَ رسول الله حقها ونزِّلها منازلها يتبين لك المراد.

يوضح هذا أن فقراء المهاجرين شكوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: «يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يصّلون كما نصلي ويصومون كما نصوم، ولهم فضول أموال يحجون بها ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون، قال: أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: تسبّحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين. فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» فلو كانوا يلحقون بهم في مقدار الأجر بمجرد النية لقال لهم انووا أن تفعلوا مثل فعلهم فتنالوا مثل أجرهم، فلما أعاضهم عما فاتهم من ثواب الصدقة والعتق والحج والاعتمار بما يحصل نظيره بالذكر علم أن الأغنياء قد فضلوهم بالإنفاق، فلما شاركوهم في الذكر بقيت مزية الإنفاق فشكوا إلى رسول الله أن الامتياز لم يزل، وإنهم قد ساوونا في الذكر كما ساوونا في الصوم والصلاة، فأخبرهم أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فلو كان لهم سبيل إلى مساواتهم من كل وجه بالنية والقول لدلهم عليها.

قالت الفقراء: هذا الحديث حجة لنا إذا فهم على الحقيقة، وذلك أن

معناه أنهم وإن كانوا قد ساووكم في الإيمان والإسلام والصلاة والصيام ثم فضلوكم في الإنفاق، ففي التكبير والتسبيح والتهليل ما يُلْحِقَكُم بدرجتهم، وقد ساويتموهم أيضاً بحسن النيةإذ لو أمكنكم لأنفقتم مثلهم، وفي بعض ألفاظ هذا الحديث: «إن أخذتم به سبقتم من قبلكم ولم يلحقكم من بعدكم». وهذا يدل على أن الأغنياء لا يلحقونهم وإن قالوا مثل قولهم، وقوله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» مَعْنَاهُ أن فضل الله ليس مقصوراً عليكم دونهم، فكما آتاكم الله من فضله بالذكر كذلك يؤتيهم إياه إذا عملوا مثلكم أيضاً، فأنتم فهمتم من الفضل التخصيص فوضعتموه في غير موضعه، وإنما معناه العموم والشمول، وإن فضله عام شامل للأغنياء والفقراء فلا تذهبون به دونهم، فأين في هذا الحديث التفضيل لكم علينا.

قالوا: ويحتمل قوله: «ذلك فضل الله» ثلاثة أمور: أحدها سبقهم لكم في الإنفاق، والثاني مساواتكم لهم في فضيلة الذكر فلم تختصوا به دونهم، والثالث سبقكم لهم إلى الجنة بنصف يوم، وهذا وإن كان لا ذكر له في هذه الرواية فهو مذكور في بعض طرقه. قال البزار في مسنده: حدثنا الوليد بن عمر حدثنا محمد بن الزبرقان حدثنا موسى بن عبيدة عن عبدالله ابن دينار عن ابن عمر قال: اشتكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ ما فضل به أغنياؤهم، فقالوا: يا رسول الله إخواننا صدّقوا تصديقنا، وآمنوا إيماننا، وصاموا صيامنا، ولهم أموالٌ يتصدقون منها ويصلون منها الرحم وينفقونها في سبيل الله، ونحن مساكين لا نَقْدِرُ على ذلك، فقال: ألا أخبركم بشيء إذا أنتم فعلتموه أدركتم مثل فضلهم؟ قولوا: الله أكبر في كل صلاة إحدى عشرة مرة، والحمد لله مثل ذلك، ولا إله إلا الله مثل ذلك، وسبحان الله مثل ذلك تدركون مثل فضلهم ففعلوا فذكروا ذلك للأغنياء ففعلوا مثل ذلك، فرجع الفقراء إلى رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له، فقالوا هؤلاء إخواننا فعلوا مثل ما نقول، فقال: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، يا معشر الفقراء ألا أبشركم أن فقراء المسلمين يدخلون الجنة

قبل أغنيائهم بنصف يوم، وهو خمسمائة عام، وتلا موسى بن عبيدة: ﴿وإنَّ يوماً عندَ ربِّكَ كألْفِ سن مما تَعُدُّون﴾ [الحج: ٤٧].

قالوا: فهذا خبر واحد وكلام متصل، ذكره بشارة لهم عندما ذكروا مساواة الأغنياء لهم في القول المذكور فأشبه أن يرجع الفضل إلى سبق الفقراء للأغنياء وأنهم بهذه البشارة مخصصون، فكان السبق لهم دون غيرهم، وإن ساووهم في القول وساووهم في الإنفاق بالنية؛ كما في حديث أبي كبشة المتقدم وحصلت لهم مزية الفقراء.

قالت الأغنياء: لقد بالغتم في صرف الحديث عن مقصوده إلى جهتكم وهو صريح في تفضيل هذا الحديث لمن أنصف، فإن قوله: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» خرج جواباً للفقراء عن قولهم إن أهل الدثور قد ساووهم في الذكر كما ساووهم في الصلاة والصوم والإيمان، وبقيت مزية الإنفاق، ولم يحصل لهم ما يلحقهم فيها وما علمتنا من الذكر قد لحقونا فيه، فقال لهم حينئذ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» وهذا صريح جداً في مقصوده، فلما انكسر القوم بتحقق السبق بالإنفاق الذي عجزوا عنه أخبرهم بالبشارة بالسبق إلى دخول الجنة بنصف يوم وأن هذا السبق في مقابلة ما فاتكم من فضيلة الغنى والإنفاق، ولكن لا يلزم من ذلك رفعتهم عليهم في المنزلة والدرجة، فهؤلاء السبعون ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب، من الموقوفين للحساب من هو أفضل من أكثرهم وأعلى منه درجة.

قالوا: وقد سمى سبحانه المال خيراً في غير موضع من كتابه، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عليكم إذا حَضَرَ أحدَكُم الموتُ إنْ تركَ خيراً الوصيةُ﴾ [البقرة: ١٨٠] وقوله: ﴿وإنَّه لِحُبِّ الخير لشديد﴾ [العاديات: ٨] وأخبر رسول الله ﷺ أن الخير لا يأتي إلا بالخير كما تقدم وإنما يأتي بالشر معصية الله في الخير لا نَفْسه.

وأعلم الله سبحانه أنه جعل المال قواماً للأنفس وأمر بحفظها، ونهى

أن يأتي السفهاء من النساء والأولاد وغيرهم، ومدحه النبي ﷺ بقوله: «نعم المال الصالح مع المرء الصالح»، وقال سعيد بن المسيب: لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله، يكف به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه، ويعطي حقه.

وقال أبو إسحاق السبيعي: كانوا يرون السعة عوناً على الدين، وقال محمد بن المنكدر، نعم العون على التقى الغنى. وقال سفيان الثوري: المال في زماننا هذا سلاح المؤمن. وقال يوسف بن سباط: ما كان المال في زمان منذ خلقت الدنيا أنفع منه في هذا الزمان، والخير كالخيل، لرجل أجر ولرجل ستر، وعلى رجل وزر.

قالوا: وقد جعل الله سبحانه المال سبباً لحفظ البدن، وحفظه سبباً لحفظ النفس التي هي محل معرفة الله والإيمان به، وتصديق رسله ومحبته والإنابة إليه، فهُو سبب عمارة الدنيا والآخرة، وإنما يذم منه ما استخرج من غير وجهه وصرف في غير حقه، واستعبد صاحبه وملك قلبه وشغله عن الله والدار الآخرة، فيذم منه ما يتوسل به صاحبه إلى المقاصد الفاسدة، أو شغله عن المقاصد المحمودة، فالذم للجاعل لا للمجعول.

قال النبي ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم» فذم عبدهما دونهما.

قال الإمام أحمد: حدثنا صفوان عن يزيد بن ميسرة، قال: كان رجل ممن مضى جمع مالاً فأوعى، ثم أقبل على نفسه وهو في أهله فقال أنْعُم سنين، فأتاه ملك الموت فقرع الباب في صورة مسكين، فخرجوا إليه فقال: ادعوا لي صاحب الدار، فقالوا: يخرج سيدنا إلى مثلك! ثم مكث قليلاً، ثم عاد فقرع الدار وصنع مثل ذلك وقال: أخبروه أني ملك الموت، فلما سمع سيدهم قعد فزعاً وقال: لينوا له الكلام، قالوا: ما تريد غير سيدنا، بارك الله فيك؟ قال: لا، فدخل عليه فقال: قم فأوص ما كنت

موصياً فإني قابض نفسك قبل أن أخرج. قال: فصرخ أهله وبكوا ثم قال: افتحوا الصناديق وافتحوا أوعية المال ففتحوها جميعاً فأقبل على المال يلعنه ويسبه، يقول: لعنت من مال، أنت الذي أنسيتني ربي وشغلتني عن العمل لآخرتي حتى بلغني أجلي؛ فتكلم المال فقال: لا تسبني، ألم تكن وضيعاً في أعين الناس فرفعتك، ألم ير عليك من أثري، وكنت تحضر سدد الملوك والسادة فتدخل ويحضر عباد الله الصالحون فلا يدخلون؟ ألم تكن تخطب بنات الملوك والسادة فتنكح ويخطب عباد الله الصالحون فلا ينكحون؟ ألم تكن تنفقني في سبيل الخبث فلا أتعاصى ولو أنفقتني في سبيل الله لم أتعاص عليك؟ وأنت ألوم مني، إنما خلقت أنا وأنتم يا بني آدم من تراب، فمنطلق ببر ومنطلق بإثم، فهكذا يقول المال فاحذروا.

وفي أثر يقول الله تبارك وتعالى: أموالنا رجعت إلينا، سعد بها من سعد، وشقي بها من شقي.

قالوا: ومن فوائد المال أنه قوام العبادات والطاعات، وبه قام سوق بر الحج والجهاد، وبه حصل الإنفاق الواجب والمستحب، وبه حصلت قربات العتق والوقف وبناء المساجد والقناطر وغيرها، وبه يتوصل إلى النكاح الذي هو أفضل من التخلي لنوافل العبادة، وعليه قام سوق المروءة، وبهَ ظهرت صفة الجود والسخاء، وبه وقيت الأعراض، وبه اكتسبت الإخوان والأصدقاء، وبه توصل الأبرار إلى الدرجات العلى ومرافقة الذين أنعم الله عليهم، فهو مرقاة يصعد بها إلى أعلى غرف الجنة، ويهبط منها إلى أسفل سافلين، وهو مقيم مجد الماجد، كان بعض السلف يقول: لا مجد إلا بفعال ولا فعال إلا بمال، وكان بعضهم يقول: اللهمّ إني مِنْ عِبادِكَ الذين لا يصلحهم إلا الغنى، وهو من أسباب رضا الله عن العبد كما كان من أسباب سخطه عليه.

وهؤلاء الثلاة الذين ابتلاهم الله به: الأبرص والأقرع والأعمى، نال به الأعمى رضا ربه، ونالا به سخطه، والجهاد ذروة سنام العمل، وتارة

يكون بالنفس، وتارة يكون بالمال، وربما كان الجهاد بالمال أنكى وأنفع، وبأي شيء فضل عثمان على عليّ، وعليّ أكثر جهاداً بنفسه وأسبق إسلاماً من عثمان.

وهذا الزبير وعبد الرحمن بن عوف، أفضل من جمهور الصحابة مع الغنى الوافر، وتأثيرُهما في الدين أعظم من تأثير أهل الصفة، وقد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعته، وأخبر أن ترك الرجل ورثته أغنياء خير له من تركهم فقراء، وأخبر أن صاحب المال لن ينفق نفقة يبتغي بها وجه الله ألا ازداد بها درجة ورفعة، وقد استعاذ رسول الله ﷺ من الفقر وقرنه بالكفر، فقال: اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر فإن الخير نوعان: خير الآخرة والكفر مضاده، وخير الدنيا والفقر مضاده، فالفقر سبب عذاب الدنيا، والكفر سبب عذاب الآخرة، والله سبحانه وتعالى جعل إعطاء الزكاة وظيفة الأغنياء، وأخذها وظيفة الفقراء، وفرق بين اليدين شرعاً وقدراً، وجعل يد المعطي أعلى من الآخذ، وجعل الزكاة أوساخ المال، ولذلك حرمها على أطيب خلقه وعلى آله صيانة لهم وتشريفاً ورفعاً لأقدارهم.

ونحن لا ننكر أن رسول الله ﷺ كان فقيراً ثم أغناه الله، والله فتح عليه وخوَّله ووسّع عليه، وكان يدَّخر لأهله قوت سنة ويعطي العطايا التي لم يعطها أحد غيره، وكان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، ومات عن فدك والنضير وأموال خصه الله بها. وقال تعالى: ﴿ما أفاءَ اللّهُ على رسولِهِ من أهلِ القُرى فلِلَّهِ وللرسولِ﴾ [الحشر: ٧] فنزهه ربه سبحانه عن الفقر الذي يسوغ الصدقة، وعوّضه عما يرده عنه بأشرف المال وأحله وأفضله، وهو ما أخذه بظل رمحه وقائم سيفه من أعداء الله الذين كان مال الله بأيديهم ظلماً وعدواناً، فإذا رجع إلى أوليائه وأهل طاعته فاء إليهم ما خُلق لهم، ولكن لم يكن غنى رسول الله ﷺ وملكه من جنس غنى بني الدنيا وأملاكهم، فإن غناهم بالشيء وغناه ﷺ عن الشيء، وهو الغني العالي، وملكهم ملك يتصرفون فيه بحسب إرادتهم، وهو ﷺ إنما يتصرف في ملكه

تصرف العبد الذي لا يتصرف إلا بأمر سيده.

وقد اختلف الفقهاء في الفيء هل كان ملكاً للنبي ﷺ على قولين هما روايتان عن أحمد، والتحقيق أن ملكه له كان نوعاً آخر من الملك، وهو ملك يتصرف فيه بالأمر كما قال ﷺ: «والله لا أعطي أحداً ولا أمنع أحداً، إنما أنا قاسم أضع حيث أمرت»، ذلك من كمال مرتبة عبوديته، ولأجل ذلك لم يورث فإنه عبد محض من كل وجه لربه عز وجل، والعبد لا مال له فيورث عنه، فجمع الله سبحانه بين أعلى أنواع الغنى وأشرف أنواع الفقر، فكمل له مراتب الكمال فليست إحدى الطائفتين بأحق من الأخرى.

فكان ﷺ في فقره أصبر خلق الله وأشكرهم وكذلك في غناه، والله تعالى جعله قدوة للأغنياء والفقراء، وأي غنى أعظم من غنى من عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض، وعرض عليه أن يجعل له الصفا ذهباً، وخُيِّر بين أن يكون ملكاً نبياً وبين أن يكون عبداً نبياً، فاختار أن يكون عبداً نبياً، ومع هذا فجبيت إليه أموال جزيرة العرب واليمن فأنفقها كلها ولم يستأثر منها بشيء، بل تحمّل عيال المسلمين ودَيْنهم فقال: «من ترك مالاً فلورثته، ومن ترك كلاً فإليّ وعليّ». فرفع الله سبحانه قدره أن يكون من جملة الفقراء الذين تحل لهم الصدقة، كما نزهه أن يكون من جملة الأغنياء الذين أغناهم بالأموال الموروثة، بل أغناه به عن سواه وأغنى قلبه كل الغنى، ووسَّع عليه غاية السعة فأنفق غاية الإنفاق وأعطى أجلَّ العطايا، ولا استأثر بالمال ولا اتخذ منه عقاراً ولا أرضاً، ولا ترك شاةً ولا بعيراً ولا عبداً ولا أمةً ولا ديناراً ولا درهماً.

فإذا احتج الغني الشاكر بحاله ﷺ لم يمكنه ذلك إلا بعد أن يفعل فعله، كما أن الفقير الصابر إذا احتج بحاله ﷺ لم يمكنه ذلك إلا بعد أن يصبر صبره، ويترك الدنيا اختياراً لا اضطراراً فرسول الله وفّى كل مرتبة من مرتبتي الفقر والغنى حقها وعبوديتها، وأيضاً فإن الله سبحانه أغنى به الفقراء فما نالت أمته الغنى إلا به، وأغنى الناس من صار غيره به غنياً.

قال علي بن أبي رباح اللَّخْمي: كنتُ عند مسلمة بن مخلد الأنصاري وهو يومئذ على مصر وعبدالله بن عمرو بن العاص جالس معه، فتمثّل مسلمة ببيت من شعر أبي طالب، فقال لو أن أبا طالب رأى ما نحن فيه اليوم من نعمة الله وكرامته لعلم أن ابن أخيه سيد قد جاء بخير، فقال عبدالله بن عمرو: ويومئذ كان سيداً كريماً قد جاء بخير، فقال مسلمة: ألم يقل الله تعالى: ﴿أَلَمْ يجدْكَ يتيماً فآوى، ووجدَكَ ضَالاً فهدَى. ووجدَكَ عائِلاً فأغنى﴾ [الضحى: ٦ ـ ٨] فقال عبدالله بن عمرو: أما اليتيم فقد كان يتيماً من أبويه، وأما العَيْلة فكل ما كان بأيدي العرب إلا القلة، يقول إن العرب كانت كلها مقلة حتى فتح الله عليه وعلى العرب الذين أسلموا ودخلوا في دين الله أفواجاً، ثم توفاه الله قبل أن يتلبس منها بشيء ومضى وتركها، وحذر منها ومن فتنتها، قال وذلك معنى قوله: ﴿ولسوفَ يُعطيك ربُّك فترضى﴾ فلم تكن الدنيا لترضيه وهو لا يرضاها كلها لأمته وهو يحذر منها، وتعرض عليه فيأباها وإنما هو ما يعطيه من الثواب وما يفتح عليه وعلى أمته من ملك كسرى وقيصر ودخول الناس في الإسلام وظهور الدين؛ إذ كان ذلك محبته ورضاه صلوات الله وسلامه عليه.

وروى سفيان الثوري عن الأوزاعي عن إسماعيل بن عبدالله بن عباس عن النبي ﷺ قال: «رأيت ما هو مفتوح بعدي كَفْراً كَفْراً فسرني ذلك، فنزلت: ﴿والضُّحَى واللَّيلِ ـ إلى قوله ـ ولسوفَ يُعطيك ربُّك فترضى﴾ قال: أعطني ألف قصر من لؤلؤ ترابها المسك في كل قصر ما ينبغي له.

قالوا: وما ذكرتم من الزهد في الدنيا والتقلل منها فالزهد لا ينافي الغنى، بل زهد الغني أكمل من زهد الفقير، فإن الغني زهد عن قدرة، والفقير عن عجز وبينهما بعد بعيد، وقد كان رسول الله ﷺ في حال غناه أزهد الخلق، وكذلك إبراهيم الخليل كان كثير المال وهو أزهد الناس في الدنيا.

وقد روى الترمذي في جامعه من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعته، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق بما في يد الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب في ثوابها لو أنها بقيت لك.

وسئل الإمام أحمد عن الرجل يكون معه ألف دينار وهل يكون زاهداً؟ قال: نعم بشرط أن لا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت، وقال بعض السلف: الزاهد من لا يغلب الحلال شكره ولا الحرام صبره، وهذا من أحسن الحدود: حقيقة مركبة من الصبر والشكر فلا يستحق اسم الزاهد من لا يتصف بهما، فمن غلب شكره لما وسع عليه من الحلال، وصبره لما عرض له من الحرام فهو الزاهد على الحقيقة، بخلاف من غلب عليه الحلال شكره والحرام صبره، فكان شكره وصبره مغلوبين فإن هذا ليس بزاهد.

وسمعت شيخ الإسلام يقول: الزهد تركك ما لا ينفعك، والورع تركك ما يضرك. فالزهد فراغ القلب من الدنيا لا فراغ اليدين منها، ويقابله الشح والحرص وهو ثلاثة أقسام: زهد في الحرام، وزهد في الشبهات والمكروهات، وزهد في الفضلات. فالأول فرض، والثاني فضل، والثالث متوسط بينهما بحسب درجة الشبهة، وإن قويت التحق بالأول وإلا فبالثالث، وقد يكون الثالث واجباً بمعنى أنه لا بد منه، وذلك لمن شمر إلى الله والدار الآخرة؛ فزهد الفضيلة يكون ضرورة، فإن إرادة الدنيا قادحة في إرادة الآخرة، ولا يصح للعبد مقام الإرادة حتى يفرد طلبه وإرادته ومطلوبه، فلا ينقسم المطلوب ولا الطلب.

أما توحيده المطلوب أن لا يتعلق طلبه وإرادته بغير الله وما يقرب إليه ويدني منه، وأما توحيده في الطلب أن يستأصل الطلب والإرادة نوازع الشهوات وجواذب الهوى، وتسكن الإرادة في أقطار النفس فتملأها فلا

يدع فيها فضلاً لغير الانجذاب إلى جانب الحق جلّ جلاله فتتمخض الإرادة له، ومتى تمخضت كان الزهد لصاحبها ضرورة، فإنه يفرغه لعمارة وقته وجمع قلبه على ما هو بصدده وقطع مواد طمعه اللاتي هي من أفسد شيء للقلب، بل أصل المعاصي والفساد والفجور كله من الطمع، فالزهد يقطع مواده ويفرغ البال ويملأ القلب، ويستحث الجوارح ويذهب الوحشة التي بين العبد وبين ربه، ويجلب الأنس به ويقوي الرغبة في ثوابه إن ضعف عن الرغبة في قربه والدنو منه وذوق حلاوة معرفته ومحبته، فالزاهد أروح الناس بدناً وقلباً، فإن كان زهده وفراغه من الدنيا قوة له في إرادة الله والدار الآخرة بحيث فرغ قلبه لله وجعل حرصه على التقرب إليه وشحه على وقته أن يضيع منه شيء في غير ما هو أرضى لله وأحب إليه كان من أنعم الناس عيشاً وأقرّهم عيناً وأطيبهم نفساً وأفرحهم قلباً، فإن الرغبة في الدنيا تشتت القلب وتبدد الشمل وتطيل الهم والغم والحزن، فهي عذاب حاضر يؤدي إلى عذاب منتظر أشد منه، وتفوت على العبد من النعم أضعاف ما يروم تحصيله بالرغبة في الدنيا.

قال الإمام أحمد حدثنا الهيثم بن جميل حدثنا ـ يعني ابن مسلم عن إبراهيم ـ يعني ابن ميسرة ـ عن طاووس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، وإن الرغبة في الدنيا تطيل الهم والحزن»، وإنما تحصل الهموم والغموم والأحزان من جهتين: إحداهما الرغبة في الدنيا والحرص عليها، والثاني التقصير في أعمال البر والطاعة.

قال عبدالله بن أحمد: حدثني بيان بن الحكم حدثنا محمد بن حاتم عن بشر بن الحارث قال: حدثنا أبو بكر بن عياش عن ليث عن الحكم قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قصر العبد بالعمل ابتلاه الله عز وجل بالهم».

وكما أن الرغبة في الدنيا أصل المعاصي الظاهرة فهي أصل معاصي القلب من التسخط والحسد والكبر والفخر والخيلاء والتكاثر، وهذا كله من

امتلاء القلب بها لا من كونها في اليد، وامتلاء القلب بها ينافي الشُّكْرُ، ورأس الشكر تفريغ القلب منها، وامتداد المال كامتداد العمر والجاه، فخيركم في الدنيا من طال عمره وحسن عمله، فهكذا من امتد ماله وكثر به خيره، فَنِعْمَ المرء وماله وجاهه، إما أن يرفعه درجات وإما أن يضعه درجات.

وسر المسألة أن طريق الفقر والتقلل طريق سلامة مع الصبر، وطريق الغنى والسعة في الغالب طريق عطب، فإن اتقى الله في ماله ووصل به رحمه وأخرج منه حق الله؛ وليس مقصوراً على الزكاة، بل من حقه إشباع الجائع، وكسوة العاري وإغاثة الملهوف وإعانة المحتاج والمضطر فطريقه طريق غنيمة وهي فوق السلامة، فمثل صاحب الفقر كمثل مريض قد حبس بمرضه عن أغراضه فهو يثاب على حسن صبره على حبسه.

وأما الغني فخطره عظيم في جمعه وكسبه وصرفه، فإذا سلم كسبه وحسن أخذه من وجهه وصرفه في حقه كان أنفع له، فالفقير كالمتعبد المنقطع عن الناس ـ والغني المنفق في وجوه الخير كالمعين والمعلم والمجاهد، ولهذا جعله النبي ﷺ قرين الذي آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها، فهو أحد المحسودَيْن اللَّذَيْن لا ثالث لهما، والجهلة يغبطون المنقطع المتخلي المقصور النفع على نفسه ويجعلونه أولى بالحسد من المنفق والعالم المعلم.

فإن قيل: فأيهما أفضل: من يختار الغنى والتصدق والإنفاق في وجوه البر؟ أم من يختار الفقر والتقلل ليبعد عن الفتنة ويَسْلَمَ من الآفة ويرفه قلبه على الاستعداد للآخرة فلا يشغله بالدنيا؟ أم من لا يختار لا هذا ولا ذاك، بل يختار ما اختاره الله له فلا يعين باختياره واحداً من الأمرين؟

قيل: هذا موضع اختلف فيه حال السلف الصالح، فمنهم من اختار المال للجهاد به والإنفاق وصرفه في وجوه البر كعبد الرحمن بن عوف وغيره من مياسير الصحابة، وكان قيس بن سعد يقول: اللهم إني من عبادك الذين لا يصلحهم إلا الغنى، ومنهم من اختار الفقر والتقلل كأبي ذر

وجماعة من الصحابة معه، وهؤلاء نظروا إلى آفات الدنيا وخشوا الفتنة بها، وأولئك نظروا إلى مصالح الإنفاق وثمراته العاجلة والآجلة، والفرقة الثالثة لم تختر شيئاً بل كان اختيارها ما اختاره الله لها، وكذلك اختيار طول البقاء في الدنيا لإقامة دين الله وعبادته، فطائفة اختارته وتمنته، وطائفة أحبت الموت ولقاء الله والراحة من الدنيا، وطائفة ثالثة لم تختر هـذا ولا ذاك، بل اختارت ما يختاره الله لها، وكان اختيارهم سلفاً بما يريده الله دون مراد معين منهم، وهي حال الصديق رضي الله عنه، فإنهم قالوا له في مرض موته: ألا ندعو لك الطبيب؟ فقال: قد رآني، فقالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي: إني فعال لما أريد.

والأولى حال موسى عليه السلام فإنه لما جاء ملك الموت لطمه ففقأ عينه، ولم يكن ذلك حباً منه للدنيا والعيش فيها؛ ولكن لينفذ أوامر ربه ويقيم دينه ويجاهد أعداءه فكأنه قال لملك الموت أنت عبد مأمور، وأنا عبد مأمور، وأنا في تنفيذ أوامر ربي وإقامة دينه، فلما عُـرضت عليه الحيـاة الطويلة وعلم أن الموت بعدها اختار ما اختاره الله له.

وأما نبينا صلوات الله وسلامه عليه فإن ربه أرسل إليه بخير، وكان أعلم الخلق بالله، فعلم أن ربه تبارك وتعالى يحب لقاءه ويختاره له فاختار لقاء الله، ولو علم أن ربه يحب له البقاء في الدنيا لتنفيذ أوامره وإقامة دينه لما اختار غير ذلك، فكان اختياره تابعاً لاختيار ربه عز وجل، فكما أنه لما خيره ربه عز وجل بين أن يكون ملكاً نبياً وبين أن يكون عبداً نبياً، وعلم أن ربه يختار له أن يكون عبداً نبياً اختار ما اختاره الله له، فكان اختياره في جميع أموره تابعاً لاختيار الله له، ولهذا يوم الحديبية احتمل ما احتمل من تلك الحال في ذاك الوقت ووفى هذا المقام حقه، ولم يثبت عليه من كل وجه إلا الصديق، فلم يكن له اختيار في سوى ما اختاره الله له ولأصحابه من تلك الحال التي نقرر الأمر عليها فكان راضياً بها مختاراً لها، شاهداً اختيار ربه لها، وهذه غاية العبودية، فشكر الله له ذلك وجعل شكرانه ما

بشّره به في أول سورة الفتـــح حتى هنأه الصحابة به وقالوا هنيئاً لك يا رسول الله، وحقّ له أن يهنأ بأعظم ما هُنِئَ به بشرٌ صلوات الله وسلامه عليه.

فصل: ومما ينبغي أن يعلم أن كل خصلة من خصال الفضل قد أحلَّ الله رسوله ﷺ في أعلاها وخصه بذروة سنامها، فإذا احتجت بحاله فرقة من فرق الأمة التي تعرفت تلك الخصال وتقاسمتها على فضلها على غيرها أمكن الفرقة الأخرى أن تحتج به على فضلها أيضاً، فإذا احتج به الغزاة والمجاهدون على أنهم أفضل الطوائف، احتج به العلماء على مثل ما احتج به أولئك.

وإذا احتج به الزهاد والمتخلفون عن الدنيا على فضلهم، احتج به الداخلون في الدنيا والولاية وسياسة الرعية لإقامة دين الله وتنفيذ أمره.

وإذا احتج به الفقير الصابر، احتج به الغني الشاكر.

وإذا احتج به أهل العبادة على فضل نوافل العبادة وترجيحها، احتج به العارفون على فضل المعرفة.

وإذا احتج به أرباب التواضع والحلم، احتج به أرباب العز والقهر للمبطلين والغلظة عليهم والبطش بهم.

وإذا احتج به أرباب الوقار والهيبة والرزانة احتج به أرباب الخُلُق الحسن والمزاح المباح الـذي لا يخرج عن الحق وحسن العشـرة للأهـل والأصحاب.

وإذا احتج به أصحاب الصدع بالحق والقول به في المشهد والمغيب احتج به أصحاب المداراة والحياء والكرم أن يبادروا الرجل بما يكرهه في وجهه.

وإذا احتج به المتورعون على الورع المحمود، احتج بـه الميسرون

المسهلون الذين لا يخرجون عن سعة شريعته ويسرها وسهولتها.

وإذا احتج به من صرف عنايته إلى إصلاح دينه وقلبه، احتج به من راعى إصلاح بدنه ومعيشته ودنياه فإنه ﷺ بعث لصلاح الدنيا والدين.

وإذا احتج به من لم يعلق قلبه بالأسباب ولا ركن إليها، احتج به من قام بالأسباب ووضعها مواضعها وأعطاها حقها.

وإذا احتج به من جاع وصبر على الجوع، احتج به من شبع وشكر ربه على الشبع، وإذا احتج به من أخذ بالعفو والصفح والاحتمال، احتج به من انتقم في مواضع الانتقام.

وإذا احتج به من أعطى لله ووالى لله؛ احتج به من منع لله وعادى لله.

وإذا احتج به من لم يدخر شيئاً لغد، احتج به من يدخر لأهله قوت سنة.

وإذا احتج به من يأكل الخشن من القوت والأدم كخبز الشعير والخل، احتج به من يأكل اللذيذ الطيب كالشوي والحلوى والفاكهة والبطيخ ونحوه.

وإذا احتج به من سرد الصوم، احتج به من سرد الفطر فكان يصوم حتى يقال لا يفطر، ويفطر حتى يقال لا يصوم.

وإذا احتج به من رغب عن الطيبات والمشتهيات، احتج به من أحب أطيب ما في الدنيا وهو النساء والطيب.

وإذا احتج به من ألان جانبه وخفض جناحه لنسائه، احتج به من أدبهن وآلمهن وطلق وهجر وخيّرهن.

وإذا احتج به من ترك مباشرة أسباب المعيشة بنفسه، احتج به من باشرها بنفسه فآجر واستأجر وباع واشترى واستسلف وأدان ورهن.

وإذا احتج به من يجتنب النساء بالكلية في الحيض والصيام، احتج به من يباشر امرأته وهي حائض بغير الوطء ومن يقبّل امرأته وهو صائم.

وإذا احتج من رجم أهل المعاصي بالقدر، احتج به من أقام عليهم حدود الله فقطع يَدَ السارق ورجم الزاني وجلد الشارب.

وإذا احتج به من أرباب الحكم بالظاهر، احتج به أرباب السياسة العادلة المبنية على القرائن الظاهرة فإنه حبس في تهمة وعاقب في تهمة.

وأخبر عن نبي الله سليمان أنه عليه السلام حكم بالولد للمـرأة بالقرينة الظاهرة مع اعترافها لصاحبتها به، فلم يحكم بالاعتراف الذي ظهر له بطلانه بالقرينة، وترجم أبو عبد الرحمن على الحديث ترجمتين: إحداهما قال: التوسعة للحاكم أن يقول للشيء الذي لا يفعله افعله ليستبين به الحق، ثم قال الحكم بخلاف ما يعترف به المحكوم عليه، إذا تبين للحاكم أن الحق غير ما اعترف به، وكذلك الصحابة عملوا بالقرائن في حياته وبعده، فقال علي رضي الله عنه للمرأة التي حملت كتاب حاطب لتُخرِجنَّ الكتاب أو لأجرِّدنَّكِ، وحَدَّ عمر رضي الله عنه في الزنا بالحَبل، وفي الخمر بالرائحة.

وحكى الله سبحانه عن شاهد يوسف حكاية مقرر غير منكر أنه حكم بقرينة شق القميص من دبر على براءته. وقال ﷺ لابن أبي الحقيق وقد زعم أن النفقة أذهبت كنز حيي بن أخطب: «العهد قريب والمال أكثر من ذلك» فاعتبر قرينتين دالتين على بقاء المال وعاقبه حتى أقر به، وجوّز لأولياء القتيل أن يحلفوا على رجل أنه قتله ويقتلونه به بناء على القرائن المرجحة صدقهم، وشرع الله سبحانه رجم المرأة إذا شهد عليها زوجها في اللعان وأبت أن تلاعن للقرينة الظاهرة على صدقه.

وشريعته ﷺ طافحة بذلك لمن تأملها، فالحكم بالقرائن الظاهرة من نفس شريعته وما جاء به فهو حجة لقضاة الحق وولاة العدل، كما أنه حجة على قضاة السوء وولاة الجور والله المستعان.

والمقصود بهذا الفصل أنه ليس الفقراء الصابرون بأحق به ﷺ من الأغنياء الشاكرين، وأحق الناس به أعلمهم بسنته وأتبعهم لها، وبالله التوفيق.

الباب الخامس والعشرون

في بيان الأمور المضادة للصبر والمنافية له والقادحة فيه

لما كان الصبر حبس اللسان عن الشكوى إلى غير الله والقلب عن التسخط والجوارح عن اللطم وشق الثياب ونحوها كان ما يضاده واقعاً على هذه الجملة، فمنه الشكوى إلى المخلوق، فإذا شكى العبد ربه إلى مخلوق مثله فقد شكى من يرحمه إلى من لا يرحمه، ولا تضاده الشكوى إلى الله كما تقدم في شكاية يعقوب إلى الله مع قوله فصبر جميل. وأما إخبار المخلوق بالحال فإن كان للاستعانة بإرشاده أو معاونته والتوصل إلى زوال ضرورة لم يقدح ذلك في الصبر، كإخبار المريض للطبيب بشكايته، وإخبار المظلوم لمن ينتصر به بحاله، وإخبار المبتلى ببلائه لمن كان يرجو أن يكون فرجه على يديه، وقد كان النبي ﷺ إذا دخل على المريض يسأله عن حاله ويقول كيف نجدك؟ وهذا استخبار منه واستعلام بحاله.

وأما الأنين فهل يقدح في الصبر؛ فيه روايتان عن الإمام أحمد، قال أبو الحسين: أصحهما الكراهة؛ لما روي عن طاووس أنه كان يكره الأنين في المرض. وقال مجاهد: كل شيء يكتب على ابن آدم مما يتكلم حتى أنينه في مرضه قال هؤلاء: وإن الأنين شكوى بلسان الحال ينافي الصبر.

وقال عبدالله ابن الإمام أحمد: قال لي أبي في مرضه الذي توفي فيه: أخرج إليّ كتاب عبدالله بن إدريس فأخرجت الكتاب، فقال أخرج أحاديث ليث بن أبي سليم، فأخرجت أحاديث ليث، فقال: اقرأ عليّ أحاديث ليث، قال: قلت لطلحة أن طاووس كان يكره الأنين في المرض فما سُمع له أنين حتى مات، فما سمعت أبي أنّ في مرضه إلى أن توفي.

والرواية الثانية أنه لا يكره ولا يقدح في الصبر، قال بكر بن محمد عن أبيه: سئل أحمد عن المريض يشكو ما يجد من الوجع، فقال تعرف فيه شيئاً عن رسول الله ﷺ؟ قال نعم، حديث عائشة وارأساه وجعل يستحسنه.

وقال المروذي: دخلت على أبي عبدالله وهو مريض فسألته، فتغرغرت عَيْنَاهُ وجعل يخبرني ما مرّ به في ليلته من العلّة.

والتحقيق أن الأنين على قسمين: أنين شكوى فيكره، وأنين استراحة وتفريج فلا يكره، والله أعلم.

وقد روي في أثر: أن المريض إذا بدأ بحمد الله ثم أخبر بحاله لم يكن شكوى، وقال شقيق البلخي: من شكا من مصيبة نزلت به إلى غير الله لم يجد في قلبه حلاوة لطاعة الله أبداً.

فصل: والشكوى نوعان: شكوى بلسان القال وشكوى بلسان الحال، ولعلها أعظمها، ولهذا أمر النبي ﷺ من أنعم عليه أن يظهر نعمة الله عليه، وأعظم من ذلك من يشتكي ربه وهو بخير، فهذا أمقت الخلق عند ربه.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبدالله بن يزيد حدثنا كهمس عن عبدالله ابن شقيق قال: قال كعب الأحبار: إن من حسن العمل سبحة الحديث ومن شر العمل التحذيف.

قيل لعبدالله: ما سبحة الحديث؟ قال: سبحان الله بحمده في خلال الحديث، قيل: فما التحذيف؟ قال: يصبح الناس بخير فيسألون فيزعمون أنهم بشر.

فصل: ومما ينافي الصبر شق الثياب عند المصيبة ولطم الوجه والضرب بإحدى اليدين على الأخرى، وحلق الشعر والدعاء بالويل، ولهذا بريء النبي ﷺ ممن صلق وحلق وخرق: صلق رفع صوته عند المصيبة،

وحلق رأسه وشق ثيابه ولا ينافيه البكاء والحزن قال الله تعالى عن يعقوب: ﴿وابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾ [يوسف: ٨٤] قال قتادة: كظيم على الحزن فلم يقل إلا خيراً.

وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «ما كان من العين ومن القلب فمن الله والرحمة، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان».

وقال هشيم عن عبد الرحمن بن يحيى عن حسان بن أبي جبلة قال: قال رسول الله ﷺ: «من بث فلم يصبر».

وقال خالد بن أبي عثمان: مات ابن لي فرآني سعيد بن جبير متقنعاً، فقال: إياك والتقنيع فإنه من الاستكانة، وقال بكر بن عبدالله المزني: كان يقال: من الاستكانة الجلوس في البيت بعد المصيبة.

وقال عبيد بن عمير: ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب، ولكن الجزع القول السيء والظن السيء.

وسُئل القاسم بن محمد عن الجزع فقال: القول السيء والظن السيء، ومات ابن لبعض قضاة البصرة فاجتمع إليه العلماء والفقهاء فتذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره، فأجمعوا أنه إذا ترك شيئاً مما كان يصنعه فقد جزع.

وقال الحسين بن عبد العزيز الحوري: مات ابن لي نفيس، فقلت: لأمه اتقي الله واحتسبيه، واصبري، فقالت: مصيبتي به أعظم من أن أفسدها بالجزع.

وقال عبدالله بن المبارك: أتى رجل يزيد بن يزيد وهو يصلي وابنه في الموت فقال ابنك يقضي وأنت تصلي؟ فقال إن الرجل إذا كان له عمل يعمله فتركه يوماً واحداً كان ذلك خللاً في عمله.

وقال ثابت: أصيب عبدالله بن مطرف بمصيبة فرأيته أحسن شيء شارعة وأطيبه ريحاً فذكرت له ما رأيت فقال: تأمرني يا أبا محمد أن أستكين للشيطان وأريه أنه قد أصابني سوء، والله يا أبا محمد لو كانت لي الدنيا كلها ثم أخذها مني ثم سقاني شربة يوم القيامة ما رأيتها ثمناً لتلك الشربة.

ومما يقدح في الصبر إظهار المصيبة والتحدث بها، وكتمانها رأس الصبر. وقال الحسن بن الصباح في مسنده حدثنا خلف بن تميم حدثنا زافر ابن سليمان عن عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من البر كتمان المصائب والأمراض والصدقة». وذكر أنه من بث الصبر فلم يصبر.

ورُوي من وجه آخر عن الحسن يرفعه: من البر كتمان المصائب وما صبر من بثّ، ولما نزل في إحدى عيني عطاء الماء مكث عشرين سنة لا يعلم به أهله حتى جاء ابنه يوماً من قبل عينيه فعلم أن الشيخ قد أصيب.

ودخل رجل على داود الطائي في فراشه فرآه يزحف، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال: مه، لا تعلم بهذا أحداً، وقد أقعد قبل ذلك أربعة أشهر لا يعلم بذلك أحد، وقال مغيرة شكا الأحنف إلى عمه وجع ضرسه فكرر ذلك عليه فقال ما تكرر علي! لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة فما شكوتها إلى أحد.

فصل: ويضاد الصبر الهلع وهو الجزع عند ورود المصيبة والمنع عند ورود النعمة قال تعالى: ﴿إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعاً، إذا مَسَّهُ الشرُّ جَزوعاً، وإذا مسَّهُ الخيرُ مَنوعاً﴾ [المعارج: ١٩] وهذا تفسير الهلوع.

قال الجوهري: الهلع أفحش الجزع، وقد هلِع بالكسر فهو هلع وهلوع.

وفي الحديث: «شر ما في العبد شح هالع، وجبن خالع».

قلت هنا أمران: أمر لفظي وأمر معنوي، فأما اللفظي فإنه وصف الشح بكونه هالعاً، والهالع صاحبه، وأكثر ما يسمى هلوعاً، ولا يقال هالع له، فإنه لا يتعدى؛ ففيه وجهان:

أحدهما: أنه على النسب كقولهم: ليل نائم، وسر كاتم، ونهار صائم ونوم عاصف، كله عند سيبويه على النسب، أي ذو كذا كما قالوا: تامرٌ ولابنٌ.

والثاني: أن اللفظة غيرت عن بابها للازدواج مع خالع وله نظير.

وأما المعنوي: فإن الشح والجبن أردى صفتين في العبد؛ ولا سيما إذا كان شحه هالعاً، أي مُلْقٍ له في الهلع؛ وجبنه خالعاً؛ أي قد خلع قلبه من مكانه، فلا سماحة ولا شجاعة ولا نفع بماله ولا ببدنه، كما يقال: لا طعنة ولا جفنة؛ ولا يطرد ولا يشرد، بل قد قمعه وصغره وحقره ودسَّاه الشح والخوف والطمع والفزع، وإذا أردت معرفة الهلوع فهو الذي إذا أصابه الجوع مثلاً أَظْهَرَ الاستجاعة وأسرع بها، وإذا أصابه الألم أسرع الشكاية وأظهرها، وإذا أصابه القهر أظهر الاستطامة والاستكانة وباء بها سريعاً؛ وإذا أصابه الجوع أسرع الانطراح على جنبه وأظهر الشكاية، وإذا بدا له مأخذ طمع طار إليه سريعاً، وإذَا ظفر به أحلّه من نفسه محل الروح فلا احتمال ولا أفضـــال، وهذا كله من صغر النفس ودناءتها، وتدسيسها في البدن وإخفائها وتحقيرها والله المستعان.

الباب السادس والعشرون

في بيان دخول الصبر والشكر في صفات الرب جل جلاله وتسميته بالصبور والشكور، ولو لم يكن الصبر والشكر من الفضيلة إلّا ذلك لكفى به

أما الصبر فقد أطلقه عليه أعرف الخلق به وأعظمهم تنزيهاً له بصيغة المبالغة، ففي الصحيحين من حديث الأعمش عن سعيد بن جبير عن أبي عبد الرحمن السلمي عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «ما أحدٌ أصبر على

أذى سمعه من الله عز وجل، يدعون له ولداً وهو يعافيهم ويرزقهم».

وفي أسمائه الحسنى الصبور، وهو من أمثلة المبالغة، أبلغ من الصابر والصبّار. وصبره تعالى يفارق صبر المخلوق ولا يماثله من وجوه متعددة، منها أنه عن قدرة تامة، ومنها أنه لا يخاف الغوث، والعبد إنما يستعجل الخوف الغوث. ومنها أنه لا يلحقه بصبره ألم ولا حزن ولا نقص بوجه ما، وظهور أثر الاسم في العالم مشهود بالعيان كظهور اسمه الحليم، والفرق بين الصبر والحلم أن الصبر ثمرة الحلم وموجبه، فعلى قدر حلم العبد يكون صبره، فالحلم في صفات الرب تعالى أوسع من الصبر، ولهذا جاء اسمه الحليم في القرآن في غير موضع ولسعته يقرنه سبحانه باسم العليم كقوله: وكان الله عليماً حليماً، والله عليم حليم.

وفي أثر: أن حملة العرش أربعة: اثنان يقولان سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك؛ فإن المخلوق يحلم عن جهل ويعفو عن عجز، والرب تعالى يحلم مع كمال علمه، ويعفو مع تمام قدرته وما أضيف شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم ومن عفو إلى اقتدار، ولهذا كان في دعاء الكرب وصفه سبحانه بالحلم مع العظمة، وكونه حليماً من لوازم ذاته سبحانه.

وأما صبره سبحانه فمتعلق بكفر العباد وشركهم ومسبتهم له سبحانه، وأنواع معاصيهم وفجورهم، فلا يزعجه ذلك كله إلى تعجيل العقوبة، بل يصبر على عبده ويمهله ويستصلحه ويرفق به ويحلم عنه، حتى إذا لم يبق فيه موضع للصنيعة ولا يصلح على الإمهال والرفق والحلم ولا ينيب إلى ربه ويدخل عليه، لا من باب الإحسان والنعم، ولا من باب البلاء والنقم أخذه أخذ عزيز مقتدر بعد غاية الأعذار إليه وبذل النصيحة له ودعائه إليه من كل باب، وهذا كُلّه من موجبات صفة حلمه وهي صفة ذاتية له لا تزول.

وأما الصبر فإذا زال متعلقه كان كسائر الأفعال التي يوجد وجود الحكمة وتزول بزوالها، فتأمله فإنه فرق لطيف ما عثرت الحذّاق بعشره وقلّ من تنبه له ونبّه عليه وأشكل على كثير منهم هذا الاسم، وقالوا: لم يأت في القرآن فأعرضوا عن الاشتغال به صفحاً، ثم اشتغلوا بالكلام في صبر العبد وأقسامه، ولو أنهم أعطوا هذا الاسم حقه لعلموا أن الرب تعالى أحق به من جميع الخلق، كما هو أحق باسم العليم والرحيم والقدير والسميع والبصير والحي وسائر أسمائه الحسنى من المخلوقين، وأن التفاوت الذي بين صبره سبحانه وصبرهم كالتفاوت الذي بين حياته وحياتهم وعلمه وعلمهم وسمعه وأسماعهم، وكذا سائر صفاته.

ولما علم ذلك أعرفُ خلقه به قال: لا أحد أصبر على أذىً سمعه من الله، فَعِلْمُ أرباب البصائر بصبره سبحانه كعلمهم برحمته وعفوه وستره، مع أنه صبرٌ مع كمال علم وقدرة وعظمة وعزة، وهو صبر من أعظم مصبور عليه، فإن مقابلة أعظم العظماء وملك الملوك وأكرم الأكرمين، ومَنْ إحسانه فوق كل إحسان بغاية القبح وأعظم الفجور وأفحش الفواحش، ونسبته إلى كل ما لا يليق به والقدح في كماله وأسمائه وصفاته، والإلحاد في آياته وتكذيب رسله عليهم السلام، ومقابلتهم بالسب والشتم والأذى، وتحريق أوليائه وقتلهم وإهانتهم أمر لا يصبر عليه إلا الصبور الذي لا أحد أصبر منه، ولا نسبة لصبر جميع الخلق من أولهم إلى آخرهم إلى صبره سبحانه.

وإذا أردت معرفة صبر الرب تعالى وحلمه والفرق بينهما فتأمل قوله تعالى: ﴿إن الله يُمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحدٍ من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾ [فاطر: ٤١] وقوله: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً، لقد جئتم شيئاً إدّاً، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً، أنْ دَعَوا للرحمن ولداً﴾ [مريم: ٩٠] وقوله: ﴿وإنْ كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ [إبراهيم: ٤٦] على قراءة من فتح اللام.

فأخبر سبحانه أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السموات والأرض، فالحلم وإمساكهما أن تزولا هو الصبر، فبحلمه صبر عن معالجة أعدائه.

وفي الآية إشعار بأن السموات والأرض تهمّ وتستأذن بالزوال لعظم ما يأتي به العباد، فيمسكها بحلمه ومغفرته، وذلك حبس عقوبته عنهم وهو حقيقة صبره تعالى، فالذي عنه الإمساك هو صفة الحلم، والإمساك هو الصبر، وهو حبس العقوبة، ففرق بين حبس العقوبة وبين ما صدر عنه حبسها فتأمله.

وفي مسند الإمام أحمد مرفوعاً: «ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم» وهذا مقتضى الطبيعة لأن كرة الماء تعلو كرة التراب بالطبع، ولكن الله يمسكه بقدرته وحلمه وصبره.

وكذلك حزور الجبال وتفطير السموات، الرب تعالى يحبسها عن ذلك بصبره وحلمه، فإن ما يأتي به الكفار والمشركون والفجّار في مقابلة العظمة والجلال والإكرام يقتضي ذلك، فجعل سبحانه في مقابلة هذه الأسباب أسباباً يحبها ويرضاها ويفرح بها أكمل فرح وأتمه، تقابل تلك الأسباب التي هي سبب زوال العالم وخرابه، فدفعت تلك الأسباب وقاومتها.

وكان هذا من آثار مدافعة رحمته لغضبه وغلبتها له وسبقها إياه، فغلب أثر الرحمة أثر الغضب كما غلبت الرحمة الغضب، ولهذا استعاذ النبي ﷺ بصفة الرضا من صفة السخط، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، ثم جمع الأمرين في الذات إذ هما قائمان بها، فقال: «أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك» فإن ما يستعاذ به هو صادر عن مشيئته وخلقه بإذنه وقضائه، فهو الذي أذن في وقوع الأسباب التي يستعاذ منها خلقاً وكوناً، فمنه السبب والمسبب، وهو الذي حرك الأنفس والأبدان وأعطاها قوى التأثير، وهو الذي أوجدها وأعدّها ومدّها وسلّطها على ما شاء، وهو الذي يمسكها إذا شاء ويحول بينها وبين قواها وتأثيرها.

فتأمل ما تحت قوله: «أعوذُ بكَ منك» من محض التوحيد وقطع الالتفات إلى غيره، وتكميل التوكل عليه تعالى والاستعانة به وحده، وإفراده بالخوف والرجاء ودفع الضر وجلب الخير، وهو الذي يمس بالضر بمشيئته، وهو الذي يدفعه بمشيئته وهو المستعاذ بمشيئته من مشيئته، وهو المعيذ من فعله بفعله، وهو الذي سبحانه خلق ما يصبر عليه وما يرضى به، فإذا أغضبه معاصي الخلق وكفرهم وشركهم وظلمهم، أرضاه تسبيح ملائكته وعباده المؤمنين له وحمدهم إياه، وطاعتهم له، فيعيذ رضاه من غضبه.

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه، وإن مقدار يوم من أيامكم عنده اثنتا عشرة ساعة، فتعرض عليه أعمالكم بالأمس أول النهار اليوم، فينظر فيها ثلاث ساعات فيطلع منها على ما يكره فيغضبه ذلك، فأول ما يعلم بغضبه حملة العرش يجدونه يثقل عليهم، تسبحه حملة العرش وسرادقات العرش والملائكة المقربون وسائر الملائكة حتى ينفخ جبريل في القرن فلا يبق شيء إلا يسمع، فيسبحون الرحمن ثلاث ساعات حتى يمتلىء الرحمن رحمة فتلك ست ساعات، قال: ثم يؤتى بالأرحام فينظر فيها ثلاث ساعات، فذلك قوله تعالى: ﴿هو الذي يُصَوِّرُكُم في الأرحامِ كيف يَشاء﴾ [آل عمران: ٦]، ﴿ويَهَبُ لمن يشاءُ إناثاً ويَهَبُ لِمَنْ يشاءُ الذكورَ، أو يزوِّجهم ذُكْرَاناً وإناثاً ويجعلُ مَنْ يشاءُ عقيماً﴾ [الشورى: ٤٩] فتلك تسع ساعات، ثم يؤتى بالأرزاق فينظر فيها ثلاث ساعات، فذلك قوله: ﴿يَبْسطُ الرزقَ لمن يشاءُ ويَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦] وقوله: ﴿كلَّ يَوْمٍ هُو في شَأن﴾ [الرحمن: ٢٩] قال هذا شأنكم وشأن ربكم. رواه أبو القاسم الطبراني في السنة، وعثمان بن سعيد الدارمي، وشيخ الإسلام الأنصاري، وابن منذة وابن خزيمة وغيرهم.

ولما ذكر سبحانه في سورة الأنعام أعداءه وكفرهم وشركهم وتكذيب

رسله ذكر في أثر ذلك شأن خليله إبراهيم، وما أراه من ملكوت السموات والأرض، وما حاج به قومه في إظهار دين الله وتوحيده، ثم ذكر الأنبياء من ذريته وأنه هداهم وآتاهم الكتاب والحكم والنبوة، ثم قال: ﴿فإن يكفرْ بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾ [الأنعام: ٨٩].

فأخبر أنه سبحانه كما جعل في الأرض من يكفر به ويجحد توحيده، ويكذب رسله، كذلك جعل فيها من عباده من يؤمن بما كفر به أولئك ويصدق بما كذبوا به، ويحفظ من حرماته ما أضاعوه، وبهذا تماسك العالم العلوي والسفلي، وإلا فلو اتبع الحق أهواء أعدائه لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ولخرب العالم، ولهذا جعل سبحانه من أسباب خراب العالم رفع الأسباب الممسكة له من الأرض، وهي كلامه وبيته ودينه والقائمون به، فلا يبقى لتلك الأسباب المقتضية لخراب العالم أسباب تقاومها وتمانعها. ولما كان اسم الحليم أدخل في الأوصاف واسم الصبور في الأفعال كان الحلم أصل الصبر، فوقع الاستغناء بذكره في القرآن عن اسم الصبور، والله أعلم.

فصل: وأما تسميته سبحانه بالشكور فهو في حديث أبي هريرة، وفي القرآن تسميته شاكراً، قال الله تعالى: ﴿وكانَ اللّهُ شاكراً عليماً﴾ [النساء: ١٤٧]، وتسميته أيضاً شكور.

قال الله تعالى: ﴿واللّهُ شَكُورٌ حَليم﴾ [التغابن: ١٧] وقال تعالى: ﴿إنّ هذا كانَ لكم جزاءً وكان سعيُكُم مَشْكُوراً﴾ [الإنسان: ٢٢] فجمع لهم سبحانه بين الأمرين أن شكر سعيهم وأثابهم عليه، والله تعالى يشكر عبده إذا أحسن طاعته، ويغفر له إذا تاب عليه، فيجمع للعبد بين شكره لإحسانه ومغفرته لإساءته، إنه غفور شكور.

وقد تقدم في الباب العشرين ذكر حقيقة شكر العبد وأسبابه ووجوهه، وأما شكر الرب تعالى فله شأن آخر كشأن صبره، فهو أولى بصفة الشكر من كل شكور، بل هو الشكور على الحقيقة، فإنه يعطي

العبد ويوفّقه لما يشكره عليه، ويشكر القليل من العمل والعطاء فلا يستقله أن يشكره، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة، ويشكر عبده بقوله بأن يثني عليه بين ملائكته وفي ملئه الأعلى، ويلقي له الشكر بين عباده ويشكره بفعله، فإذا ترك له شيئاً أعطاه أفضل منه، وإذا بذل له شيئاً ردّه عليه أضعافاً مضاعفة، وهو الذي وفّقه الترك والبذل وشكَره على هذا وذاك.

ولما عقر نبيه سليمان الخيل غضباً له إذ شغلته عن ذكره، فأراد ألا تشغله مرة أخرى أعاضه عنها متن الريح، ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها في مرضاته، أعاضهم عنها أن ملّكهم الدنيا وفتحها عليهم.

ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن شكر له ذلك بأن مكّن له في الأرض يتبوَّأ منها حيث يشاء، ولما بذل الشهداء أبدانهم له حتى مزّقَها أعداؤه شكر لهم ذلك بأن أعاضهم منها طيراً خضراً أقرّ أرواحهم فيها ترد أنهارَ الجنة وتأكل من ثمارها إلى يوم البعث، فيردّها عليهم أكمل ما تكون وأجمله وأبهاه، ولما بذل رسله أعراضهم فيه لأعدائهم فنالوا منهم وسبّوهم، أعاضهم من ذلك بأن صلّى عليهم هو وملائكته وجعل لهم أطيب الثناء في سمواته وبين خلقه فأخلصهم بخالصة ذكرى الدار.

ومن شكره سبحانه أنه يجازي عدوه بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا، ويخفف به عنه يوم القيامة فلا يضيع عليه ما يعمله من الإحسان وهو من أبغض خلقه إليه، ومن شكره أنه غفر للمرأة البغي بسقيها كلباً كان قد جهده العطش حتى أكل الثرى، وغفر لآخر بتنحيته غصن شوك عن طريق المسلمين.

فهو سبحانه يشكر العبد على إحسانه لنفسه، والمخلوق إنما يشكر من أحسن إليه، وأبلغ من ذلك أنه سبحانه هو الذي أعطى العبد ما يحسن به إلى نفسه، وشكره على قليله بالأضعاف المضاعفة التي لا نسبة لإحسان

العبد إليها، فهو المحسن بإعطاء الإحسان وإعطاء الشكر، فمن أحق باسم الشكور منه سبحانه!.

وتأمل قوله سبحانه: ﴿ما يفعلُ اللّهُ بعذابِكُم إنْ شكرتُم وآمنتُم، وكان اللّهُ شاكراً عليماً﴾ [النساء: ١٤٧] كيف تجد في ضمن هذا الخطاب أن شكره تعالى يأبى تعذيب عباده بغير جرم كما يأبى إضاعة سعيهم باطلاً، فالشكور لا يضيع أجر محسن، ولا يعذب غير مسيء.

وفي هذا رد لقول من زعم أنه سبحانه يكلفه ما لا يطيقه، ثم يعذبه على ما لا يدخل تحت قدرته، تعالى الله عن هذا الظن الكاذب والحسبان الباطل علواً كبيراً، فشكره سبحانه اقتضى أن لا يعذب المؤمن الشكور، ولا يضيع عمله، وذلك من لوازم هذه الصفة، فهو منزّه عن خلاف ذلك كما ينزه عن سائر العيوب والنقائص التي تنافي كماله وغناه وحمده.

ومن شكره سبحانه أنه يخرج العبد من النار بأدنى مثقال ذرة من خير ولا يضيع عَلَيْه هذا القدر، ومن شكره سبحانه أن العبد من عباده يقوم له مقاماً يرضيه بين الناس فيشكره له وينوه بذكره ويخبر به ملائكته وعباده المؤمنين، كما شكر لمؤمن آل فرعون ذلك المقام وأثنى به عليه ونوه بذكره بين عباده، وكذلك شكره لصاحب يس مقامه ودعوته إليه، فلا يهلك عليه بين شكره ومغفرته إلا هالك، فإنه سبحانه غفور شكور، يغفر الكثير من الزلل، ويشكر القليل من العمل.

ولما كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة كان أحب خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر، كما أن أبغض خلقه إليه من عَطَّلها واتصف بضدها، وهذا شأن أسمائه الحسنى أحب خلقه إليه من اتصف بموجبها، وأبغضهم إليه من اتصف بأضدادها، ولهذا يبغض الكفور والظالم والجاهل والقاسي القلب والبخيل والجبان والمهين واللئيم، وهو سبحانه جميل يحب الجمال، عليم يحب العلماء، رحيم يحب الراحمين محسن يحب المحسنين، شكور يحب

الشاكرين، صبور يحب الصابرين، جواد يحب أهل الجود، ستّار يحب أهل الستر، قادر يلوم على العجز، والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف، عفو يحب العفو، وتر يحب الوتر، وكل ما يحبه فهو من آثار أسمائه وصفاته وموجبها، و كل ما يبغضه فهو مما يضادها وينافيها.

خاتمة الكتاب

يا من عزم على السفر إلى الله والدار الآخرة، قد رفع لكَ علم فشمر إليه فقد أمكن التشمير، واجعل سيرك بين مطالعة منته، ومشاهدة عيب النفس والعمل والتقصير، فما أبقى مشهد النعمة والذنب للعارف من حسنة يقول هذه منجيتي من عذاب السعير، ما المعول إلا على عفوه ومغفرته فكل أحد إليهما فقير، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي فاغفر لي، أنا المذنب المسكين وأنت الرحيم الغفور، ما تساوي أعمالك لو سلمت مما يبطلها أدنى نعمة من نعمه عليك وأنت مرتهن بشكرها من حين أرسل بها إليك، فهل رَعَيْتَها بالله حق رعايتها وهي في تصريفك وطوع يديك، فتعلَّق بحبل الرجاء وادخل من باب التوبة والعمل الصالح إنه غفور شكور.

نهج للعبد طريق النجاة وفتح له أبوابها وعرّفه طرق تحصيل السعادة وأعطاه أسبابها، وحذره من وبال معصيته وأشهده على نفسه وعلى غيره شؤمها وعقابها، وقال إن أطعتَ فبفضلي وأنا أشكر، وإن عصيتَ فبقضائي وأنا أغفر، إن ربنا لغفور شكور.

وأزاح عن العبد العلل، وأمره أن يستعيذ به من العجز والكسل، ووعده أن يشكر له القليل من العمل، ويغفر له الكثير من الزلل، إن ربنا لغفور شكور، أعطاه ما يشكر عليه ثم يشكره على إحسانه إلى نفسه لا على إحسانه إليه، ووعده على إحسانه لنفسه أن يحسن جزاءه ويقربه لديه، وأن يغفر له خطاياه إذا تاب منها ولا يفضحه بين يديه إن ربنا لغفور شكور.

وثقت بعفوه هفوات المذنبين فوسعتها، وعكفت بكرمه آمال المحسنين فما

قطع طمعها، وخرقت السبع الطباق دعوات التائبين والسائلين فَسمعها، ووسع الخلائق عفوه ومغفرته ورزقه، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، إن ربنا لغفور شكور.

يجود على عبيده بالنوافل قبل السؤال، ويعطي سائله ومؤمله فوق ما تعلقت به منهم الآمال، ويغفر لمن تاب إليه ولو بلغت ذنوبه عدد الأمواج والحصى والتراب والرمال، إن ربنا لغفور شكور.

أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وأفرح بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا وجدها، وأشكر للقليل من جميع خلقه، فمن تقرّب إليه بمثقال ذرة من الخير شكرها وحمدها، إن ربنا لغفور شكور، تعرّف إلى عباده بأسمائه وأوصافه، وتحبب إليهم بحلمه وآلائه، ولم تمنعه معاصيهم بأن جاد عليهم بآلائه، ووعد من تاب إليه وأحسن طاعته بمغفرة ذنوبه يوم لقائه، إن ربنا لغفور شكور.

السعادة كلها في طاعته، والأرباح كلها في معاملته، والمحن والبلايا كلها في معصيته ومخالفته، فليس للعبد أنفع من شكره وتوبته، إن ربنا لغفور شكور.

أفاض على خلقه النعمة وكتب على نفسه الرحمة، وضمن الكتاب الذي كتبه، إن رحمته تغلب غضبه إن ربنا لغفور شكور.

يُطاع فَيَشكر وطاعته من توفيقه وفضله، ويُعصى فيحلم ومعصية العبد من ظلمه وجهله، ويتوب إليه فاعل القبيح فيغفر له، حتى كأنه لم يكن قط من أهله، إن ربنا لغفور شكور.

الحسنة عنده بعشر أمثالها أو يضاعفها بلا عدد ولا حسبان، والسيئة عنده بواحدة ومصيرها إلى العفو والغفران، وباب التوبة مفتوح لديه منذ خلق السموات والأرض إلى آخر الزمان، إن ربنا لغفور شكور.

بابه الكريم مناخ الآمال ومحط الأوزار، وسماء عطاه لا تقلع عن الغيث بل هي مدرار، ويمينه ملأى لا تغيضها نفقة سحّاء بالليل والنهار؛ إن ربنا لغفور شكور.

لا يلقَى وصاياه إلا الصابرون، ولا يفوز بعطاياه إلا الشاكرون، ولا يهلك

عليه إلا الهالكون، ولا يشقى بعذابه إلا المتمردون، إن ربنا لغفور شكور.

فإياك أيها المتمرد أن يأخذك على غرة فإنه غيور، وإذا أقمت على معصيته وهو يمدك بنعمته فاحذره فإنه لم يهملك لكنه صبور، وبشراك أيها التائب بمغفرته ورحمته إنه غفور شكور.

من علم أن الرب شكور تنوّع في معاملته، ومن عرف أنه واسع المغفرة تعلق بأذيال مغفرته، ومن علم أن رحمته سبقت غضبه لم ييأس من رحمته، إن ربنا لغفور شكور.

من تعلق بصفة من صفاته أخذته بيده حتى تدخله عليه، ومن سار إليه بأسمائه الحسنى وصل إليه، ومَنْ أحبَّه أحبَّ أسماءه وصفاته وكانت آثر شيء لديه حياة القلوب في معرفته ومحبته، وكمال الجوارح في التقرب إليه بطاعته، والقيام بخدمته والألسنة بذكره والثناء عليه بأوصاف مدحته، فأهل شكره أهل زيادته، وأهل ذكره أهل مجالسته، وأهل طاعته أهل كرامته، وأهل معصيته لا يقنطهم من رحمته، إن تابوا فهو حبيبهم، وإن لم يتوبوا فهو طبيبهم، يبتليهم بأنواع المصائب ليكفّر عنهم الخطايا ويطهرهم من المعائب إنه غفور شكور.

والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله حمداً يملأ السموات والأرض وما بينهما وما شاء ربنا من شيء بعد بمجامع حمده كلها، ما علمنا منها وما لم نعلم، على نعمه كلها ما علمنا منها وما لم نعلم، عدد ما حمده الحامدون، وغفل عن ذكره الغافلون وعدد ما جرى به قلمه وأحصاه كتابه وأحاط به علمه.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ورضي الله عن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

فهرس